تاريخ شبه الجزيرة العربية

في عصورها القديمة

(محاضرات - طبعة مزيدة ومعدلة)

للدكتور عبد العزيز صالح
أستاذ التاريخ القديم
عميد كلية الآثار الأسبق - جامعة القاهرة

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعي

١٩٩٢

تاريخ شبه الجزيرة العربية

في عصورها القديمة

(محاضرات ـ طبعة مزيدة ومعدلة)

للدكتور عبد العزيز صالح
أستاذ التاريخ القديم
عميد كلية الآثار الأسبق - جامعة القاهرة



الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

مطبعة جامعة القاهره
والكتاب الجامعي

١٩٩٢

رقم الايداع ١٩٩١/٩٩٧٠
I.S.B.N. 977-05-1076-9

فهرس الموضوعات

صفحة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عن البيئة والسكان

توافر لشبه الجزيرة العربية موقعها المكانى المتوسط بين بلاد الشرق الأدنى القديم ، ودورها البشرى المؤثر فى تكوين السلالات الأكثر عدداً بين سكانه الأقدمين . كما كان لها نصيب أيضاً من دور الوساطة والتأثير فى بعض خطوط اتصالاته واقتصادياته .

وسوف يكتفى هذا الكتاب فى منهاجه العلمى بتحليل المسارات الرئيسية للتاريخ العربى القديم ، والمعالم والتطورات العامة لحضاراته ، مع تأجيل التوسع فى مشكلاتها وتفاصيلها إلى مجلد أكبر نصدره قريباً على نسق بقية مؤلفاتنا الكبيرة السابقة ، بمشيئة الله تعالى .

وقد عرضنا فى سياق الفصل الأول من مؤلفنا عن الشرق الأدنى القديم (ج ١ — ١٩٦٧ ص ٩ — ١٣ ، أو ١٩٩٠ ص ١٤ — ١٩) لنوعية التأثيرات المتبادلة بين بيئة شبه الجزيرة العربية وبين أهلها فى العصور القديمة التى كانوا فيها أكثر التزاما بظروف بيئاتهم وإيحاءاتها عما هم عليه الآن إلى حد كبير ، وذلك من حيث مدى انطباعهم فى بعض سبل معايشهم ، وبعض عاداتهم وعقائدهم ، وظروف تفرقهم أو تجمعهم ، وبداوتهم أو تحضرهم ، وتنقلهم أو استقرارهم ، بخصائص الاتساع الجغرافى الكبير لشبه الجزيرة وتنوع تضاريسها بين صحراوات وواحات وجبال ووديان وسواحل، مع غلبة الطبيعة الصحراوية عليها — وما ترتب على هذا من تفاوت أسباب ونتائج الخصب أو الجفاف ، ووفرة الإنتاج أو شح الموارد ، ومدى الأمن أو القلق ، والانطلاق أو الانطواء ، واليسر أو المشقة فى المعايش والاتصالات ، وهلم جرا . ثم من حيث تباين الفرص التى أتيحت أمام مختلف جماعات السكان هنا أوهناك فى مجالات التبادل الاقتصادى والثقافى مع بقية الشعوب الحضرية القديمة المعاصرة لهم ، نتيجة لاختلاف مواقع إقامتهم بالنسبة لجيرانهم فى الداخل

وفى الخارج ، وبالنسبة لاتجاهات طرق التجارة البرية والبحرية الرئيسية القديمـــة .

وعرضنا فى الفصل ذاته لمسببات التحركات القبلية الداخلية القديمة ، أو الهجرات الداخلية المحدودة لمختلف البطون والعشائر فى شبه الجزيرة . تبعا لتفرق موارد المـــاء والتسابق إلى مناطق الكلأ . والتماس المواطن ذات الحماية الطبيعية والأمن النسبي والموارد الكافية . ثم ما ترتب على هذا كله من تنمية الروح الاستقلالية لدى القبائل وبين الأفراد . فى مقابل تغليب المصالح القبلية على المصلحة العامة أو المصلحة القومية . وصعوبة قيام وحدة عامة بين السكان ، حتى وحدهم دين الإسلام ودولة الإسلام .

وناقشنا كذلك فى شيء من التفصيل المسببات المناخية والبشرية والاقتصادية المؤدية إلى خروج الهجرات البشرية الكبيرة من شبه الجزيرة إلى أطرافها . وفاضلنا بين النظريات المرجحة لتأثير دورات الجفاف الشديد المتباعدة . وبين الآراء المرجحة لتأثيرات فترات الضعف السياسى وتحول طرق التجارة الرئيسية . كما تتبعنا المراحل المحتملة لهذه الهجرات حتى استقرارها فى مناطق الهلال الخصيب أو بقربها .

الجنس والاسم :

تعددت الآراء قديما وحديثا حول تحديد الموطن الأصلى للجنس الغالب فى شبه الجزيرة العربية ؛ وهى آراء رغم كثرة ترديدها فى مؤلفات التاريخ القديم ، لا تكاد تؤدى إلى نتائج يقينية فى سوى أمرين : أولهما أن ضخامة الكتلة الصحراوية لشبه الجزيرة قد ساعدت على النقاء الجنسى واللغوى بين أهلها ، ومناطقها الوسطى بخاصة ، إلى حد نسبي كبير . والقول بالنسبية هنا ضرورة علمية لازمة حيث لا وجود لسلالة بشرية لم تختلط بغيرها قط . وحيث دلت الشواهد التاريخية على أن اختلاط السلالات والأمم بعضها ببعض قد يؤدى أحيانا إلى تجديد حيويتها وثراء حضارتها . وذلك على شريطة ألا تطغى العناصر الدخيلة على العناصر الأصيلة فيها .

أما الأمر الثانى فهو ترجيح انتماء سكان شبه الجزيرة العربية فى لباتهم أوفى جوهرهم إلى سلالة بشرية متجانسة ذات خصائص رئيسية متشابهة تعرف عادة باسم السلالة السامية (أو الساميين) . وهو اسم اصطلاحى نشره الباحث النمسوى شلوسر (August Ludvig Schlozor) فى أواخر القرن الثامن عشر (١٧٨١م) واستعاره مما ذكرته أنساب التوراة (فى مثل الإصحاح العاشر من سفر التكوين) عن ولد لنوح عليه السلام يدعى شام أو سام فى مقابل ولد آخر يدعى حام . وولد ثالث يدعى يافث . وتواتر استخدام اسم الساميين بين معظم الباحثين . وإن أصبح بعضهم يطلقونه أساساً على مجموعة اللغات ذات الأصل المشترك التى استخدمها سكان شبه الجزيرة وأطرافها . وجيرانهم ممن اتصلوا بهم بصلة الدم فى الهلال الخصيب . أو بصلة الجوار والاستيطان والتعامل على الساحل الأفريقى بجنوب البحر الأحمر . وعلى الساحل الشمالى لأفريقيا (لاسيما فى قرطاجة الفينيقية) . وذلك أكثر مما يرتبونه على سلالة بشرية مغلقة على ذاتها . وهذا اتجاه سليم نعود إليه فى موضع آخر . ويكفى أن نشير هنا إلى أن القرآن الكريم لم يذكر للنبى نوح عليه السلام غير ولد واحد كان من المغرقين . وذلك مما يعنى عدم ضرورة الالتزام بالرواية العبرية وإن لم ينفها تماما . وأن الفوارق الطبقية والشعوبية التى وضعها العبرانيون فى أنساب التوراة بين الساميين وبين الحاميين هى فوارق مفتعلة لم يسبب ظواهرها من حيث اختلاف اللون واللغة فى واقع الأمر غير الفوارق المناخية ومطالب البيئات وفوارق اللهجات . على أننا قد نضطر إلى استخدام تعبير الساميين وتعبير الحاميين أحيانا فى سياق أحاديثنا نظرا لشيوعهما . ولابأس من ذلك ما دمنا نتبين حقيقة الأمر فيهما .

ومع وحدة الأصل البعيد انشعبت اللغات السامية القديمة إلى شعبتين كبيرتين كانت لكل منهما فروعها العديدة . وذلك من قبل أن توحدت لغة القرآن الفصحى بينهما . وكانتا : شعبة سامية غربية شاعت بقواعدها ولهجاتها فى غرب شبه الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها وشمالها . وفى أغلب بلاد الشام وأغلب مصر . ثم بعد ذلك فى جزء من شمال أفريقيا (وجزء من

شمال السودان)، بل وامتدت قديما من اليمن إلى أكسوم فى الحبشة وجزء من الساحل الأفريقى القريب منها . ثم شعبة سامية شرقية شاعت بخصائصها فى المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية وما اتصل بها من نواحى الخليج العربى وجزره، وبلاد النهرين أو العراق القديم . وكنموذج للصلات القديمة بين الأصول وبين الفروع من هذه الشعوب المتجاورة قدمنا فى الفصل الأول من كتاب الشرق الأدنى القديم نماذج من أوجه التشابه بين بعض قواعد اللغة العربية وبين بعض قواعد اللغة المصرية القديمة ، على الرغم من اختلاف صور الكتابة فيهما — وذلك مع تقدير أن قواعد اللغات لا يمكن أن تنتقل مع التجارة أو باتصالات عارضة شأنها شأن المفردات اللفظية ، وإنما يدل تشابهها بين اللغات على وحدة الأصول بينها فى أغلب الأحوال حتى ولو كانت أصولا بعيدة . وذلك مما يمكن تقريبه إلى افتراض وجود أم لغوية قديمة واحدة وأبناء متنوعين أخذ كل منهم يطوع مفردات لغته ولهجتها بما تناسب مع ظروف بيئته ومطالب حياته .

وتعددت الآراء مرة أخرى فى منشأ وتفسير تسميه « العرب » ، كما تعددت أمثالها فى شأن تسميات كثير من الشعوب والبلدان القديمة الأخرى (مثل تسميات مصر وسومر وعراق وشام وعبرى وآرام . . . إلخ) .

فمن وجهات النظر العربية القديمة فيها القول باشتقاق لفظ العرب من اسم جد أعلى كان يسمى يعرب بن قحطان ، أو من فعل يعرب بمعنى يفصح تدليلا على ما كان العرب يعتزون به من فصاحة البيان . . ، ثم القول باشتقاقها من اسم عربة وهو أحد أسماء مكة التى شب اسماعيل عليه السلام على أرضها ، أو هو اسم لجزء منها .

ومن وجهات النظر السامية الأخرى القول باشتقاق تسمية العرب من أحد الأصول التى خرجت منها كلمات عبرية شبيهة بها (وليس من الكلمات العربية نفسها) مثل عرابة بمعنى الأرض الجافة ، وأرابا بمعنى الأرض الداكنة المعشبة ، وإرب بمعنى الشرود عن النظام، وعابار بمعنى التجوال أو الترحال . . . إلخ .

وعندما استخدمت النصوص المسمارية العراقية القديمة تسميات « أربى » و« أريبى » و« أريبو » . . . إلخ ، بمعنى العربى والعرب والعربية منذ القرن التاسع ق . م . لم تقصرها على سكان شبه الجزيرة وحدهم ، وإنما أطلقتها كذلك على بعض أهل بادية جنوب الشام ، وعنت بهم (الأعراب) البدو فى أغلب الأحوال . وكذا فعلت بعض قصص التوراة . كما مد المؤرخون والرحالة الإغريق والرومان فيما بعد تسمية « أرابيا » إلى صحراء مصر الشرقية .

واستخدمت بعض النصوص المصرية القديمة لفظ « أربايا » تحريفا فيما يبدو عن « عربية » أو « العربية » ، للدلالة على المنطقة القريبة من الحدود المصرية فى شبه الجزيرة العربية . كما استخدمت النصوص الفارسية نفس اللفظ « أربايا » فى القرن الخامس ق . م . للدلالة على بادية فلسطين وشبه جزيرة سيناء وما يتصل بها من شمال شبه الجزيرة العربية .

ودلت تسمية « ع رب ن » و « أعرب » فى نصوص الجنوب العربى القديمة على معنى الأعراب أساساً ، لاسيما الخيالة والأبالة من بدو وسط شبه الجزيرة العربية ، وقالت عنهم فيما قالت « أعرب طودم » أى أعراب الهضبة أو أعراب النجد ، و « أعرب تهمت » أى أعراب تهامة أو الوديان والسهول الساحلية .

طبعة أولى — الرياض ١٩٦٤ ، جدة ١٩١٥
طبعة ثانية - القاهرة ١٩٨٠
طبعة ثالثة -- القاهرة ١٩٨٨

الفصل الأول

مصادر البحث فى التاريخ العربى القديم
ومراحل دراساته الحديثة

تعاقبت على شبه الجزيرة العربية خلال تاريخها القديم عصور كثيرة سبقت عهود الجاهلية بمعناها المحدود بقرون طويلة . وتعددت مصادر البحث فى تاريخ هذه العصور – ويمكن عرضها على النحو التالى :

أولا : الآثار المادية الباقية ، وهذه تبدأ بما خلفه إنسانها البدائى القديم فى دهوره الحجرية من أدوات حجرية متواضعة . وماخطه من رسوم بدائية متفرقة . ثم تتضمن أساساً ماتركته الجماعات العربية المتحضرة فى عصورها التاريخية القديمة من آثار معمارية قائمة كبقايا المعابد والأسوار والسدود . والحصون والأبراج ، والمساكن والمقابر . وما عثر عليه فى هذه وتلك من آثار منقولة متنوعة لأدوات الاستعمال اليومى وأدوات الزينة وفنون النحت والنقش ، فى مناطق عدة من أنحاء شبه الجزيرة العربية .

والآثار فيما نعلم هى التاريخ الحى لأهلها ، أو هى الشاهد الصادق على حضارة أصحابها . فهى تكشف عن مدى التقدم أو مدى البداءة فى إنتاجهم ، ومدى الثراء أو مدى الفقر فى إمكاناتهم . ومدى الأصالة أو مدى التقليد فى صناعاتهم . ومدى التأثر أو مدى التأثير بين حضارتهم وبين حضارات جيرانهم . ثم هى تعبر عن هيئاتهم وأزيائهم وطبيعة أذواقهم . ولا جدال فى أنه كلما زاد الكشف عن هذه الآثار كلما زادت الحصيلة التى يستنتج منها تاريخ بلدها وقومها . .

وقد يضاف إلى مدلول الآثار مايهتم به علماء الأنثروبولوجى من دراسة الهياكل البشرية التى تمكن أن تحدد السلالات ومدى النقاء أو مدى الاختلاط النسبى فيها . ثم ما يهتم به علماء الجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية والتاريخية من دراسة التكوينات البيئية لتحديد الأماكن القديمة للآبار والواحات والمناجم .

ومواطن الاستقرار والاستثمار القديمة . فضلا على ظروف المناخ واتجاهات الوديان ومسالك الهجرات والتجارة . وهلم جرا . .

ثانياً : النصوص العربية القديمة التي عثر عليها داخل شبه الجزيرة وخارجها . سواء كتبت بخطوط المسند ومشتقاته ، أم بالخطوط الأرامية — لاسيما النبطية والتدمرية ، أم بالخطوط العربيه الخالصة .

والنصوص سواء أكانت شخصية أم سياسية أم حربية أم دينية تمثل ثروة تاريخية مفيدة ، وتسجل رأى أهلها فى أنفسهم ووجهات نظرهم فى علاقاتهم بجيرانهم . ولكنها إذا عوملت بموازين النقد العلمى احتمل بعضها الشك كما يحتمل بعضها التأييد . وبتعبير آخر فإن النصوص القديمة مع أهميتها فى التعبير عن آراء أصحابها لا تخلو عادة من مبالغات فى تضخيم الانتصارات إذا كانت نصوصا حربية . ولاتخلو من الإسراف فى تعظيم وتقديس الملوك والرؤساء إذا كانت نصوصا رسمية أو نصوصا للموظفين وأتباع الحكام . ولاتخلو من ادعاءات بالصلاح والإصلاح إذا كانت نصوصا شخصية . ولاتخلو من تكرار وسذاجة إذا كان كتبتها من الأفراد البسطاء . ولاتخلو من غموض الاصطلاحات إذا كانت نصوصا إدارية أو تقنينية . ولاتخلو من تخيلات وأوهام إذا كانت نصوصا عقائدية أو سحرية ، ولكنها فى مجملها ، وعلى الرغم من ذلك كله ، هى المصدر الرئيسى لتصوير عادات أهلها وعقائدهم وأوضاعهم السياسية والاجتماعية وعلاقاتهم الخارجية . فضلا على ما يمكن أن يستفاد به من بين سطورها مما لم يشأ كتبتها أن يفصحوا عنه صراحة من مشكلات عصورهم .

وجلى أن ماعقبنا به هنا على إيجابيات وسلبيات الآثار والنصوص العربية القديمة يمكن أن يقال كذلك عن بقية الآثار والنصوص القديمة كلها .

ثالثا : النصوص الدمارية التي تحدثت عن علاقات بعض دول العراق القديمة بعدد من قبائل ودويلات شبه الجزيرة منذ القرن التاسع ق . م . وهذه هى الأخرى لاتخلو من قيمة ولاتخلو من شك فى الوقت ذاته .

فهى قد اعتادت على أن تنسب إلى أصحابها الأشوريين والبابليين سلطانا واسعا . وأسرفت فى تصوير انتصاراتهم الحربية على العرب — أو الأعراب .

وتعتبر فى أغلبها نصوصا تعبر عن جانب واحد نظرا لأنه لم يعثر على نصوص عربية تقابلها وتعاصرها وتشرح وجهة نظر أصحابها إلا فى القليل النادر . وذلك مما يعنى أنه ليس من ضرورة إلى التسليم بحرفية أخبارها . ولكن نفس هذه النصوص المسمارية على الرغم من تحيزها ومبالغاتها لم تخل مما يستفاد به منها . فهى أقدم المصادر التى سجلت تسمية العرب كتابة منذ أواسط القرن التاسع ق . م . (بصيغ أربى وأريبى وأريبو) كما أسلفنا . وهى المصادر الوحيدة حتى الآن التى تحدثت عن نحو ست ملكات عربيات شماليات ظهرن خلال القرن الثامن والقرن السابع ق . م .

— وإذا كانت المصادر المصرية القديمة المعاصرة للمصادر العراقية لم تسجل تسمية العرب صراحة إلا فى قرون متأخرة فى الزمن نسبياً ، إلا أنها ذكرت قبل ذلك بقرون طويلة أسماء بعض المناطق الإقليمية على طرق التجارة فى شمال شبه الجزيرة ، كما أشارت إلى استخدام منتجات الجنوب العربى فى مصر بوفرة منذ الألف الثانى ق . م . على أقل تقدير . ودلت بذلك على قدم اتصالاتها بأهله اتصالا مباشرا أحيانا وعن طريق وسطاء التجارة أحيانا أخرى .

رابعاً : مصادر التوراة : وهذه بما تضمنته من أسفار وقصص ليست كلها منزلة من السماء وليست كلها من رسالات الأنبياء . وإذا كان بعضها له قداسته ، فإن بعضها الآخر تضمن أخبارا أضافها الأحبار والرواة . وصورت هذه المصادر فى عبارات مقتضبة من سفر التكوين وسفر حزقيال وسفر المزامير وسفر عاموس وسفر دانيال ومن التلمود ، علاقات العبرانيين ببعض قبائل ودويلات عرب شبه الجزيرة ، و معلوماتهم عنهم وعن مناطقهم . تصويرا بعضه مقبول وأغلبه مفتعل . وحاولت أن ترتب أنساب القبائل التى عرفها العبرانيون ترتيبا قليله مقبول وكثيره مفتعل أيضاً . ولهذا تؤخذ معلوماتها بحذر شديد .

خامساً : كتابات الرحالة والمؤرخين الإغريق والرومان الذين زاروا أطراف وسواحل شبه الجزيرة العربية أو جمعوا الأخبار عنها ممن زاروها من قبلهم ، ثم سجلوا أسماء بعض دولها ومدنها وموانيها وقبائلها ، وأهم مصادر

الثروة فيها . وطرق التجارة منها وإليها . وضمنوها فى مؤلفاتهم ابتداء من القرن الخامس ق . م . على وجه التقريب . ومن هذه الكتابات ما هوواقعى صحيح مفيد ، ومنها ما يسوده الوهم والخيال وتحريف الأسماء نظرا لقصر زياراتهم لها ولاختلاف لغاتهم عن اللغة العربية وشقيقاتها الساميات .

ومن أهم هؤلاء الرحالة والمؤرخين هيرودوت (فى أواسط القرن الخامس ق . م .) وثيوفراتيس (فى أواخر القرن الرابع ق . م .) ، وإراتوستنيس (فى أواسط القرن الثالث ق . م .) وجوبا (فى أواخر القرن الثانى ق . م .) . وديودور الصقلى (فى أواسط القرن الأول ق . م .) ، واسترابون (فى أواخر القرن الأول ق . م .) . وبلينى (فى أوائل القرن الأول الميلادى) . وبطلميوس (فى أواسط القرن الثانى الميلادى) . ومؤلف الطواف حول البحر الإريترى (بين القرنين الأول والثالث للميلاد) ، ويوسيبيوس (فى أوائل القرن الرابع الميلادى) . ثم مجموعة من المؤرخين والرحالة المسيحيين والبيزنطيين الذين اتصلوا بالحبشة وإمارتى الحيرة وغسان ، ومنهم روفينوس بترانيوس ، وشمعون مؤلف رسائل الشهداء الحميريين فى نجران ، وبروكوبيوس صاحب كتاب تاريخ الحروب وصديق القائد البيزنطى بليزاريوس . . . . وغيرهم

ولا تقتصر أهمية ما كتبه هؤلاء الكلاسيكيون على ما تضمنه من معلومات ، وإنما يفيد كثيراً أيضاً فى عقد التواريخ المقارنة بين العهود التى تحدثوا عنها ويمكن تحديدها ، وبين أحداث شبه الجزيرة التى عجزت نصوصها عن تحديد زمنها بدقة .

سادساً : آيات القرآن الكريم التى وصفت بعض أحوال الشعوب العربية القديمة ، ونبهت إلى العبرة من مسلك أهلها مع الرسل والأنبياء ، وبينت أنه كان فيهم مؤمنون وكفرة . وعلماء وجهلة . ولبعضهم ممالك ومنشآت . . . . لا سيما فيما يختص بابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ومكة والبيت الحرام ، وأقوام شعيب وهود وصالح وغيرهم فى مدين وعاد وإرم وثمود وأصحاب الرس وسبأ والأخدود . إلخ .

ويقترن ببعض ماجاء به القرآن الكريم ما ورد من أحاديث نبوية تعرضت أحياناً بالتعديل أو النقد أو التجريح أو الإجازة لبعض أوضاع الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى عهود الجاهلية القريبة من بداية العصور الإسلامية .

سابعاً : مؤلفات المؤرخين المسلمين التى جمعوا بعض أخبارها من التدوين العربية والأشعار الجاهلية وسلاسل الأنساب المروية ، وجمعوا بعضاً آخر من اخبارها من الإسرائيليات والقصص السريانية بل والفارسية ، فضلا على مشاهداتهم الشخصية لما بقى من آثار المدن والمعابد والمقابر القديمة حتى العهود التى عاشوا فيها .

ومن هؤلاء المؤرخين :

عبيد بن شرية الجرهمى اليمنى (فى القرن الهجرى الأول) : ونسب إليه « كتاب الملوك وأخبار الماضين » .

وهب بن منبه (ت ١١٠ هـ) : ونسب إليه « كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم » ، و « كتاب المبتدأ » .

هشام بن محمد بن سائب الكلبى (ت ٢٠٤ هـ) : ومن مؤلفاته الكثيرة « جمهرة النسب » أو « الجمهرة فى الأنساب » ، و « كتاب الأصنام » . ونسب إليه « كتاب الحيرة » ، و « كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين » و « كتاب ملوك كندة » و « كتاب الكلاب الأول والكلاب الثانى » . . . ، إلخ .

محمد بن هشام بن أيوب الحميرى (ت ٢١٣ هـ) : وأخرج « كتاب التيجان وملوك حمير » .

أبو محمد الحسن الهمدانى (ت ٣٣٤ هـ) : ومن مؤلفاته الضخمة « الإكليل » و « صفة جزيرة العرب » و « ملوك كندة » .

ونسب إلى الأصمعى كتاب « جزيرة العرب » و « مياه العرب » . . إلخ .

وأخرج الحسن الغدة الأصفهانى مؤلفه عن « بلاد العرب » .

وألف نشوان الحميرى « القصيدة الحميرية » ، و « القصيدة اليائية » . إلخ .

وأقرب إلى الوقائع التاريخية فيما كتبه هؤلاء. المؤرخون المسلمون هى أخبارعهود الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام، أما ما سبقها من عصور فقل منهم من أخضع رواياته عنها للنقد العلمى . وندر منهم من استطاع أن يقرأ نصوصها القديمة قراءة سليمة .

وكما كانت أشعار الجاهليه من المصادر التى اعتمد عليها هؤلاء المؤرخون وكثير غيرهم . فهى لا زالت فى حد ذاتها مصدراً لتصوير أيام العرب وحروبهم وعاداتهم الاجتماعية ومثلهم العليا . وذلك على الرغم مما ينبه النقاد إليه من كثرة منحولاتها الأدبية والتاريخية .

* * *

تلك إذن مصادر عدة فيما رأينا ، ولكنها فى حقيقتها لا تزال مصادر شحيحة لا تعطى الكثير لا سيما بالنسبة للعصور الأولى من التاريخ العربى القديم . وهى باستثناء آيات القرآن الكريم . تتفاوت فيما بينها فى مدى صحتها ومدى وضوح تعبيراتها . ومدى المحلية أو العمومية فى أخبارها . وإن كانت لا تخلو على الرغم من بعض أوجه النقص فيها ، مما يستفاد به منها فى تحديد وتصوير الخطوط العامة للتاريخ العربى القديم .

وليس من شك فى أن أوسع المصادر السابقة تعبيراً عن أحوال سكان شبه الجزيرة الأقدمين . هما المصدران الأولان . أى الآثار العربية القديمة الباقية . والنصوص العربية القديمة الباقية .

وقل نصيب أراضى المناطق الوسطى والشمالية والشرقية لشبه الجزيرة العربية من هذين المصدرين حتى الآن نتيجة لأربعة أسباب هى :

— قلة البحوث الأثرية التى أجريت فيها قلة نسبية ، إلى إن أخذت الدولة السعودية . ودول الخليج العربى ، تولى هذه البحوث عناية طيبة خلال العقود الأخيرة .

— شدة اتساع أرضها الذى كان من عوائق اجتماع سكانها القدماء قبل الإسلام فى دولة كبيرة واحدة تستطيع أن تقيم تنظيمات مستقرة ومنشآت كبيرة ، أو تعمل على تدوين أخبارها فى نصوص كبيرة متصلة .

— قلة مواردها الطبيعية القديمة قلة نسبية لم تسمح لجموعها بأن يقيموا غير منشآت صغيرة لم تستطع مغالبة عوادي الزمن إلا في الشمال الغربي .

— عدم احتفال أهل العصور الإسلامية المتعاقبة حتى بداية العهود الحديثة برعاية الآثار القديمة في البلاد التي نشأ الإسلام فيها . نتيجة لاختلاف عقائدها عن ديانة التوحيد . ونتيجة لما وجدوه من صعوبة في معرفة أغراضها الحقيقية وصعوبة قراءة نصوصها قراءة صحيحة .

وزاد حظ المناطق الجنوبية القديمة من شبه الجزيرة العربية من هذين المصدرين . أي من الآثار والنصوص الباقية . نتيجة لستة أسباب . وهي :

— ظهور الكتابة فيها في وقت مبكر نسبياً مما ساعد على وفرة نصوصها المكتوبة وفرة نسبية وقدم عهدها قدماً نسبياً أيضاً .

— بعدها النسبي عن مركز نشأة الدعوة الإسلامية في الشمال الغربي مما ساعد على بقاء بعض آثارها الظاهرة ونصوصها القديمة إلى الآن نظراً لتجاوز العصور الإسلامية المتتابعة عن إزالتها .

— تعدد الفواصل الطبيعية في أرضها مما عمل على تجميع أعداد متجانسة من سكانها في دول سياسية واضحة الحدود والمعالم اهتمت بتدوين أخبارها وعملت كل منها على تمييز إنتاجها الحضاري ما استطاعت .

— سخاء بيئتها الطبيعية القديمة سخاء نسبياً مما يسر استقرار دولها وطول أمد عهودها وكثرة منشآتها .

— وفرة موارد تجارتها القديمة القائمة على الإنتاج الداخلي وعلى الوساطة الخارجية ، مما شجع أهلها على أن يقيموا آثاراً ضخمة قاومت عوادي الزمن وبقي بعضها حتى الآن . .

— بدء أعمال البحث الأثري فيها في وقت مبكر نسبياً من العصر الحديث .

وعلى أية حال ، فقد خضعت كل من آثار الجنوب والشمال والشرق والغرب في شبه الجزيرة لعوامل هدامة أخرى قللت من أعدادها ومن أحجامها . ألا

وهي شدة السيول والعواصف التي كانت تطيح بما لا يثبت أمامها من المباني ، وقلة اهتمام العرب القدماء أنفسهم بالتعمق في إرساء أسس مبانيهم مما عجل بانهيارها . ثم انتفاع الأجيال المتعاقبة من السكان بأحجار المباني القديمة في إقامة مبانيهم . فضلا على ما جناه لصوص الآثار في العصر الحديث من سرقة الآثار الصغيرة الفنية الثمينة للاتجار بها .

نشأة الدراسات والاكتشافات الحديثة :

انتفعت الدراسات التاريخية الحديثة لشبه الجزيرة العربية كما انتفعت أمثالها في بقية مناطق الشرق القديم بأنشطة حركة البحث العلمي وجهود الكشف عن الحضارات القديمة وإحياء التراث التي نشأت في أوروبا منذ القرن الثامن عشر وماتلاه . وبفضلها ثابرت مجهودات البحث العلمي والأثري في العصر الحديث على كشف النقاب عن التاريخ العربي القديم بنصوصه وآثاره من أجل التعرف عليه كما صنعه أصحابه أو كما سجلوه بأنفسهم .

ولفت أنظار أوائل المؤرخين والرحالة الحديثين الأجانب إلى تاريخ وآثار شبه الجزيرة العربية ما أتت به الكتب المقدسة عن ملكة سبأ وثراء دولتها ، وعن أقوام مدين وعاد وثمود ... ، وما كتبه الكلاسيكيون الإغريق والرومان عن أرض البخور وتجارتها ، وما قرأه المستشرقون من كتب المؤرخين والجغرافيين المسلمين . إلى جانب دافع الفضول عندهم لمعرفة المزيد عن الأرض التي انبعث الإسلام منها .

وإذا كان واقع الأمر يدعو إلى الاعتراف بأن أغلب من سنتناول جهودهم من المؤرخين والآثاريين والرحالة في العصر الحديث كانوا من الأوروبيين ، فإنه يجب الاعتراف كذلك بأن تحفظ الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على الشرق الإسلامي حينذاك ، وتخوف المسلمين من سوابق أطماع المستعمرين الغربيين ، كلاهما حادد عدد البعثات العلمية وجعل أغلب جهودها فردية تتم في غير علنية وبغير الطرق الرسمية بل وعن غير طريق المتخصصين أحيانا .

وفى الوقت نفسه لم تكن حركة الكشف العلمى الأوروبى تستهدف غرضاً واحداً ، أو تستهدف العلم وحده ، وإنما كانت تستهدف الكشف عن خبايا الأرض والثروات الطبيعية ؛ وعن المعالم الجغرافية والمعالم التاريخية فى آن واحد . ويبدو أنه كان لوجود أعداد من اليهود والأغراب المستوطنين فى مناطق الجنوب العربى أثر فى اتجاه أوائل الرحلات الكشفية الحديثة إليها لسهولة التخفى فى زى بعض طوائف سكانها والطارئين عليها وبالتالى إمكانية التنقل فى أراضيها . وسوف نكتفى فيما يلى بحديث موجز عن الرواد الأوائل الذين يسروا السبيل أمام الدراسات الموسعة فى الوقت الحاضر .

فتحت أبواب الدراسات التاريخية الحديثة لمناطق الجنوب العربى بعثة يسرت لها حكومة الدانمرك طريق الوصول إلى اليمن فى عام ١٧٦١ للقيام بدراسات جغرافية ونباتية وحيوانية . وتجولت البعثة فى اليمن ، وكان أنشط أعضائها وأطولهم بقاء الهولندى كارستين نيبور Karsten Niebuhr وقد زار مخا وعمان وعدة مناطق من الخليج العربى . ونشر نتائج رحلته فى عام ١٧٧٢ ووصف فيها ما شاهده ، ودون عدداً من الملاحظات الطبوغرافية والخرائط التوضيحية للمناطق التى زارها ، كما ضمنها مستنسخات لعدد من نصوص المسند التى وجدت فى مدينة ظفار إحدى عواصم دولة سبأ وذوريدان القديمة . ولفت الأنظار إلى أطلال المواقع الأثرية التى شاهدها وأثبتها على خرائطه .

والطريف أن تجربة نيبور مع الآثار والنصوص العربية الجنوبية فى عام ١٧٦١ شجعته على أن يجرى نفس النشاط مع الآثار والنصوص الفارسية فى مدينة برسوبوليس بإيران ، فأصبح بذلك رائداً للدراسات القديمة فى كل من البلدين .

واقتفى أثر نيبور الألمانى أولريخ جسبار سيتزن A. J. Seetzon الذى زار ظفار فى صيف ١٨١٠ واستنسخ بعض نقوشها .

وكان من المتوقع أن يتاح لرحالة انجلترا وفرنسا وهما الدولتان الكبيرتان فى القرن التاسع عشر نصيب من الكشف عن حضارات الشرق القديم . ففى

عام ١٨٣٦ نجح كل من هلتون وكروتندن البريطانيين فى استنساخ نقوش سبئية من صنعاء .

وباسم البحرية الهندية أو شركة الهند البريطانية كلف الكابتن ولستد R. Wellsted وزميله هايس S.B. Haines فى عام ١٨٣٥ بمهمة تتبع خطوط الساحل العربى . وكانت لولستد اهتماماته الخاصة بالرحلة والآثار فوجه الأنظار فى حضرموت إلى أطلال ونقوش حصن الغراب الذى كان يحمى ميناء من أكبر موانئ دولة حضرموت القديمة . ونبه إلى أطلال مدينة نقب الحجر أحد المراكز الحضارية القديمة . وسجل ملاحظاته عن خصب وادى حضرموت . ووصل إلى أطراف الربع الخالى . كما بدأ رحلاته الجغرافية فى عمان حتى وصل إلى الحافة الجنوبية للجبل الأخضر .

وشابهه فى مثل هذا المجهود الألمانى أدولف بارون فون فريده Adolf-Barron von Wrede

وفى هذه الأثناء تفرغ بعض المستشرقين للتعرف على خصائص الكتابة العربية الجنوبية عن طريق مقارنتها بما يشبهها ويعرفونه من الكتابات الحبشية والعبرية والفينيقية وغيرها من الكتابات السامية القديمة .

وكان من أوائل من بدأوا هذا المجهود اللغويان إميل ريدجر Emil R. Rödiger (١٨٣٧) وولهام جيسينيوس H.F. Wilhelm Gesonius (١٨٤١) وتبعهما أرنست أوسندر .

وقامت البعثات الفرنسية بنصيبها الكشفى ، وكان أشهر رجالها أرنو ، وهاليفى .

وركز توماس جوزيف أرنو Thomas J. Arnaud وهو صيدلى رحالة ، جهوده فى عام ١٨٤٣ فى صرواح ومأرب عاصمتى دولة سبأ — وسجل مشاهداته كتابة ورسما عن سد مأرب ، ومحرم بلقيس (أو معبد إلمقه) . ونسخ حوالى ٥٦ نقشاً قديماً نشرها فلجانس فرينل قنصل فرنسا فى جدة فى عام ١٨٤٥ فى كتابه « بحوث فى النقوش الحميرية » .

وأدت هذه الجهود إلى أن قررت الأكاديمية الفرنسية فى باريس عام ١٨٦٩ البدء فى إصدار موسوعة النقوش السامية Corpus Inscriptionum Semiticarum وكان ذلك كسباً كبيراً للدراسات العربية القديمة .

وكان جوزيف هاليفى Joseph Halevy أكثر حظاً فى التوغل فى الجنوب العربى وفى وصف أهم آثاره الظاهرة واستنساخ العديد من نصوصه وترجمتها . وفى هيئة اليهودى الفقير وصل إلى مواضع لم يصل إليها من سبقوه. فلم يكتف بالآثار السبئية فى مأرب وصرواح وصنعاء ، وإنما اجتاز أيضاً منطقة الجوف الجنوبى ، وتعرف على بعض آثار دولة معين القديمة فى مدينتى قرناو ويطيل بما فيهما من أسوار ومعابد وحصون . ووصل نجران وأطراف الربع الخالى فى عام ١٨٦٩ — ثم عاد إلى فرنسا وفى حصيلته ٦٨٦ نصاً من ٣٧ موضعاً . ونشر نتائج رحلته فى المجلة الأسيوية فى عام ١٨٧٢ وشفعها بدراسة تحليلية للنصوص الجنوبية المعروفة حتى وقته . كما نشر مقالا فى عام ١٨٧٧ عن رحلته إلى نجران .

وأهم من يقرن بهاليفى من حيث غزارة المادة هو المستشرق النمسوى إدوارد جلاسر Eduard Glaser وقد اكتست رحلاته بنوع من العلنية والرسمية بعد أن يسر له المسئولون الأتراك فى صنعاء هذه الرحلات فى أعوام ١٨٨٧ ، ١٨٨٨ ، ١٨٩٢ ، وبهذا اتسعت دراساته للآثار والنصوص الحميرية فى همدان وظفار ، والنصوص السبئية فى مأرب ، كما اتسعت جهوده للآثار والنصوص المعينية والحضرمية والقتبانية ، وقدم تخطيطاً دقيقاً لبقايا القنوات والسدود القديمة .

ومن الشخصيات التى ساهمت فى استخلاص قواعد اللغة العربية الجنوبية فريتز هومل F. Hommel فى بحث أصدره عام ١٨٩٣ اعتمد فيه على النصوص المعينية واعتبرها أصلا لغيرها ، وهو ما يعارضه الآن فيه باحثون آخرون .

وهكذا مهدت رحلات ودراسات المستشرقين فى القرن التاسع عشر السبيل أمام أبحاث أكثر عمقاً وشمولا فى القرن العشرين . فبرز خلال هذا

القرن عدد ممن تتلمذوا على الرواد الأوائل اهتموا بتحقيق النصوص وتأريخ الأحداث والاستعانة بالدراسات المقارنة . وظلت الدراسات الجغرافية لطرق التجارة ومشروعات الرى مكملة لهذه الجهود .

وتعدت الدراسات الأثرية وصف الآثار الظاهرة إلى التنقيب عن الآثار الدفينة تحت التلال وفى باطن الأرض . وتعددت على هذا السبيل بعثات نمسوية وبريطانية وأمريكية . فى اليمن بأجزائها وعدن وحضرموت ومسقط وعمان . فكشفت عن أعداد من المعابد والمقابر والحصون والمنازل فضلا على النصوص والآثار المنقولة المتنوعة .

وبدأ عدد من الباحثين العرب ، ومن المصريين بخاصة ، يشاركون بجهودهم فى المجالات اللغوية والأثرية فى شبه الجزيرة منذ عام ١٩٣٦ وحتى الآن .

وعن طريق تعاون المؤرخين والأثاريين واللغويين زادت المعرفة بأسماء القبائل والمدن القديمة وتحديد مواقعها ، وزاد التعرف على كنه المعبودات الجنوبية ، والعلاقات بين الممالك المتعاصرة ، والصلات بين حكامها ، وتتابع عهودهم وما تم فيها من تجديدات سياسية أو عمرانية .

ولم يقل نصيب المناطق العربية الشمالية والغربية والشرقية فى شبه الجزيرة من اهتمام الرحالة والباحثين فى العصر الحديث كثيراً عن نصيب المناطق الجنوبية . وكان من مقدمات البحث فيها فضول بعض الرحالة الأجانب للتعرف على الأماكن الإسلامية المقدسة . وتتبع آثار الأنباط الكبيرة التى انتشرت فى جنوب الأردن وامتدت حتى شمال المناطق الحجازية . وكانت عمائرها فى الأردن واضحة معروفة وإن لم تكن نصوصها قد حلت رموزها بعد . وجدير بالذكر أن رحالة يدعى عبد الغنى بن أحمد بن ابراهيم النابلسى أخرج كتابا فى عام ١٦٩٣ بعنوان « الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » وصف فى سياقه بعض آثار مدائن صالح والحجر ومغاير شعيب واستنسخ بعض نقوشها ، وسبق غيره من الغربيين فى هذا السبيل .

وكما حدث فى الجنوب العربى لم تتعمد الجهود الأولى للرحالة الأوروبيين الكشف العلمى مباشرة عن الحضارات القديمة ، وإنما صاحبتها رغبة التعرف على ثروات البلاد الطبيعية ودراسة حياة البدو . وكانت أغلب رحلاتهم فى شبه الجزيره استمراراً لرحلاتهم الأخرى فى بوادى الشام وفلسطين ومناطق الخليج العربى .

وعلى الرغم من تحريم دخول المدينتين المقدستين على غير المسلمين تحريماً قاطعاً ، فقد استطاع بعضهم دخولها . وكان فى تعدد أجناس الحجاج وتنوع هيئاتهم فرصة لبعض الأوروبيين الذين تظاهروا بالإسلام واستخفوا فى هيئات شتى لم تكشف عن أجنبيتهم . وعن هذا الطريق تسلل عدد منهم إلى المدينتين المقدستين منذ بداية القرن السادس عشر ، ومن أوائلهم الأسبانى Domingo Badia Leblich الذى تنكر تحت اسم على بك ووصف الأماكن المقدسة فى مكة وما حولها .

وكما مهدت رحلة نيبور للدراسات الحديثة فى الجنوب العربى ، مهدت رحلة السويسرى لودفيج بوركهارت J.L. Burckhardt السبيل لدراسات الأجزاء الشمالية الغربية من شبه الجزيرة . وقد أشهر إسلامه وتسمى ابراهيم بن عبد الله ، وخرج من القاهرة إلى جدة فى عام ١٨١٤ . وزار مكة والطائف وتتبع الطريق الساحلى . وربما دخل الحجر . ووصل المدينة عام ١٨١٥ . ثم عاد إلى ينبع ومنها إلى القاهرة . وحاول أن يكون دقيقاً فى تسجيل ما شاهده فى رحلته وما نشره عنها . ولم يكن بوركهارت آثاريا ولكنه فتح الطريق أمام المهتمين بالآثار .

وكان إدوارد روبل أول أوروبى يزور مغاير شعيب وآثارها فى العصر الحديث .

وإلى جانب الرحالة الأوروبيين العاديين والمندوبين السياسيين الذين زاروا أراضى الدولة السعودية فى منتصف القرن التاسع عشر (مثل فالين . وسادلير) . وصف ر . برتون R. Barton المقابر النبطية فى مغاير شعيب . ولفت الأنظار إلى آثار المناجم القديمة فى منطقة مدين ، خلال دراساته

الطبوغرافية التى كان يقوم بها فى الأراضى الحجازية الممتدة من هضبة حسمى إلى ساحل تهامة .

وتبعه ج . ر . ولستد فى زيارة مغاير شعيب حيث استنسخ بعض نصوصها ، وكتب عن ميناء الوجه الذى يبدو أنه كان يخدم تجارة دولة ددان والحيان .

ومن الرحالة دوى الميول الأثرية وليم ج . بلجريف W.G. Palgrave فى سياق ما نشره عن رحلاته فى أراضى نجد ، شمالها ووسطها وشرقها ، فى عامى ١٨٦٢–١٨٦٣ . للأغراض المتنوعة التى استهدفها رحالة عصره . أشار إلى بعض المعالم الأثرية كالمقابر ونحوها فى عام ١٨٦٥ . ولكن آخذ عليه أنه كان يعتمد على السماع أحيانا فيما يكتبه دون أن يمحصه ودون أن يقطع الشك فيه باليقين .

وهكذا استأثر بالتقدير دونه شارل مونتاج دوتى Charles M. Doughty الذى زار مناطق مدائن صالح ، والعلا والخريبة ، فى عامى ١٨٧٦ ؛ ١٨٧٧– واستنسخ منها نصوصاً نبطية وثمودية ولحيانية نشرها فى عام ١٨٨٤ – وترجمهاالباحث اللغوى جوزيف رينان J. Renan ، وأشار دوتى إلى معالم قديمة أخرى فى تيماء والطائف ووادى فاطمة . ونبه خلال دراساته الجيولوجية إلى وجود أدوات حجرية لدهور ما قبل التاريخ فى معان .

وانتفعت دراسة آثار ونقوش شبه الجزيرة ووسطها كذلك بما جمعه منها تشارلز هوبر Ch. Huber خلال رحلاته فى ١٨٧٨–١٨٨٢ ، ١٨٨٣–١٨٨٤ وما نشره عنها فى عام ١٨٨٤ وفى عام ١٨٩١ . وقد هلك خلالها .

وكان قد شاركه يوليوس يوتنج J. Euting فى زيارة العلا ومدائن صالح والخريبة ، ثم زار تيماء . ونشر عن آثار متفرقة وعن نتائج رحلاته داخل شبه الجزيرة فى عام ١٨٩٦ ، وعام ١٩١٤ ، وعن النقوش النبطية فى عام ١٨٨٥ ، والنقوش الثمودية فى عام ١٩٠٤ . وقد عاود ترجمة هذه النصوص كل من اللغويين د . مولر ، وإنو ليتمان E. Littmann .

ومع أوائل القرن العشرين تجمعت من جهود الرحالة والباحثين حصيلة مناسبة لتحقيقات علمية أكثر شمولا عن التاريخ القديم لشبه الجزيرة . وقد ساهم فيها بنصيب كبير ألوا موزيل Alois Musil فقدم دراسات تفصيلية عن شمال الحجاز وشمال نجد ، خلال عشرين عاما (١٨٩٦—١٩١٥) ، قام فيها بعدة رحلات ، مع دراسات مستفيضة أخرى عن جنوب فلسطين وبادية الشام . وقد نشرها فى عدة كتب بين ١٩٠٧—١٩٣٠ ، وتناول فيها طبوغرافية الأرض ومصادر المياه ، وحقق أسماء الأماكن ، والأعلام ، وترسم طرق التجارة ، وتعرف على كنه المواضع التى عثر فيها على النصوص القديمة النبطية والثمودية واللحيانية ، والعربية والإغريقية واللاتينية . وحاول أن يربط بين هذا كله وبين ما ذكرته قصص الكتب المقدسة عن شعوب المنطقة وأنبيائها كشعوب مدين وثمود وإرم وقصة يوسف وقصة موسى وخروج بنى اسرائيل مستعيناً بروايات المؤرخين والجغرافيين الإغريق والرومان ، ومؤلفات المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، وما انتهت إليه الدراسات الحديثة للآثار والنصوص حتى أيامه . وكل ذلك إلى جانب الكتابة المعتادة عن السكان وحياة البدو الاجتماعية فى العصر الحديث الذى قام فيه برحلاته .

وفى نفس الوقت تقريباً ، غلبت الصبغة اللغوية والأثرية على رحلات الباحثين جوسين وسافينياك A. Jaussen; R. Savignac فى شمال شبه الجزيرة وساحل الحجاز . وكانا من الآباء الفرنسيسكان فى القدس ، وأسهما فى نشر وإعادة نشر عشرات من النصوص النبطية واللحيانية والثمودية وترجمتها ، ودراسة الآثار فى تفصيل وتصويرها تصويراً دقيقاً ، لا سيما فى مدائن صالح والخريبة ثم فى تيماء . وقد نشرا ذلك كله فى ثلاثة أجزاء كبيرة (١٩٠٩—١٩٢٠) وفى عدد من البحوث القصيرة . وكانت دراساتهما من الأسس التى اعتمدت عليها المؤلفات المستفيضة عن الحضارة النبطية (مثل مؤلفات كرامرر ، وكونتينو — A. Kramerer; J. Contineau) — وعن الحضارة اللحيانية (فى مثل مؤلفات فريدرك وينت ، وفريتز كاسكل F. V. Winnett; W. Caskel) ، وعن الحضارة الثمودية (فى مثل مؤلف فان دن براندن (A. Van den Branden)

واهتمت رحلات برترام توماس Bertram Thomas جزئياً بجنوب نجد ، فكان أول الأوروبيين الذين حاولوا كشف النقاب عن طبيعة الربع الخالى ، حين عبر الجزء الشرقى منه فى طريقه من ظفار إلى قطر ، وقدم نماذج جيولوجية وأثرية من رحلته ، ورسم خريطة لمسالكه ومعالمه الطبيعية . وكانت دراساته عوناً لدراسات سان جون فلبى H. St. J.B. Philby وثسيجر Z. Thesiger عن الربع الخالى ، وهى دراسات نبهت ضمن ما نبهت إلى بعض الطرق التجارية التى كانت تحاذى حافته الغربية وتقوم فيها بعض محطات القوافل .

ولعل الآراء لم تختلف فى الحكم على مؤلفات باحث فى تاريخ شبه الجزيرة العربية كما اختلفت فى الحكم على مؤلفات فلبى العديدة . وكل ما يمكن قوله إنه قدم فى ثناياها معلومات متناثرة كثيرة ، وترك لغيره أن ينتقى منها ويمحصها .

وتتابعت الجهود العلمية حتى الآن ، كما تعدد المشتغلون باللغويات والآثار والدهور الحجرية والتاريخ القديم عن كل هذه المناطق الواسعة ، وظهرت منهم أسماء لامعة لا تزال تقدم بحوثها حتى الآن من الأجانب ومن المواطنين ومن بقية البلاد العربية ؛ ممن سوف نعاود التنويه بهم فى الفصل الحادى عشر ، مع وجود التفاوت المعتاد بينهم فيما ينشرونه ، فمنهم من يستهدف الدعاية ولا تكاد صفحة مما يكتبه تخلو من اهتمامه بأنه قابل فلاناً وأكل عند هذا وقال لهذا . . . . . . ومنهم من يكتفى بالوصف والدراسة السطحية ، ومنهم كذلك من يفضل العلم للعلم فيدقق ويجدد ، وهو الأنفع والأبقى .

* * *

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

بيرن (جاكلين) . اكتشاف جزيرة العرب — مترجم — بيروت ١٩٦٤ .

جروهمان ١٠ . : مادة العرب — فى دائرة المعارف الإسلامية .

حمد الجاسر . فى مجلة العرب — سبتمبر ١٩٦٩ .

عبد العزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث فى شبه الجزيرة العربية — إصدار دراسات الخليج والجزيرة العربية ٤ — الكويت ١٩٨١ . ص ٥ . ٩٣ .

وات . جونز ، بار . لطفى ، الدورى ، الجاسر : فى مصادر تاريخ الجزيرة العربية — ج ١ — جامعة الرياض ١٩٧٩ (فى مواضع مختلفة)

الفصل الثاني

ممهدات العصور التاريخية

في شبه الجزيرة العربية

أسلفنا أن المفهوم العلمي للتاريخ القديم في شبه الجزيرة العربية لا يقتصر على عهود الجاهلية بمعناها التقليدي المحدود، وإنما يمتد كذلك إلى حضارات أخرى سبقتها بعصور طويلة وآماد بعيدة.

وبدأ النشاط العملي للإنسان القديم فيما قبل التاريخ في المناطق الصالحة للاقامة خلال ما يسمى اصطلاحاً باسم الدهور الحجرية، تلك التي تبعد أزمنتها عن عصرنا الحاضر بعشرات الآلاف من الأعوام. وقد قدمنا عنها في الفصل الثاني من كتابنا عن «الشرق الأدنى القديم» أنه تعاقبت خلالها على شبه الجزيرة العربية وغيرها من مناطق العروض الوسطى في الشرق الأدنى، عصور مطيرة طويلة، وعصور جفاف عنيف طويلة أيضاً (وذلك في مقابل ما شهدته العروض العليا في أوروبا مثلا من عصور تقدم الجليد وعصور تراجعه). وكان لكل طائفة من هذه العصور نباتاتها وحيواناتها المناسبة لظروفها، كما كانت تأثيراتها الطبيعية أي تأثيرات العصور المطيرة وعصور الجفاف يمكن ترسمها جزئيا حتى الآن في تكوينات الأودية الكبيرة التي يجري بعضها ناحية الخليج العربي، ويجري بعضها ناحية البحر الأحمر، ويضيع معظمها الآخر في قلب الصحراء. ومن هذه وتلك وادي الحمض ووادي الرمة ووادي حنيفة ووادي فاطمة وودیان حضرموت وبيحان وحريب وأذنة . . . إلخ. وكلها كانت قد شقتها مياه أمطار غزيرة في فترات قديمة طويلة. ويغلب على الظن أن مدرجاتها لا تزال تحتفظ ببعض أدوات الدهور الحجرية، وهي أدوات متواضعة صنعها الإنسان البدائي واستخدمها في الدفاع عن نفسه وفي صيد الحيوان وفي تحصيل قوته. وعثر على نماذج منها في أنحاء مختلفة من

الأحساء والعروض،والأطراف الشمالية ، ومناطق متفرقة من دول الخليج واليمن الشمالى والجنوبى . وفى البداية عثر على أغلبها عن طريق المصادفة ، ولكن عددا من بعثات الآثار الدانمركية والعربية قد أولتها أخيراً عناية خاصة فى حفائرها بشرق شبه الجزيرة ومناطق دول الخليج العربى . وسوف نتناول خصائصها وما تدل عليه حين الدراسة التفصيلية للأماكن التى وجدت فيها فى الفصل الحادى عشر .

ومن المحتمل أن تكون شبه الجزيرة العربية قد شاركت بقية مناطق الشرق الأدنى منذ العصر الحجرى الحديث فى الألف السادس ق . م . أو نحوه فى معرفة حرفة الرعى بعد مرحلتين متتابعتين مهدتا لها،وهما مرحلة أسر بعض الحيوانات البرية الصغيرة من آكلات العشب لتكون احتياطيا حياً من اللحم فى فترات الجفاف وقلة الحيوانات ، ثم مرحلة استئناسها وتعويدها على جيرة الإنسان ، لاسيما ما كان منها من ذوات الظلف المدرة للبن .

وحين نتناول ظروف شبه الجزيرة فى تلك الدهور البعيدة ، فلا ينبغى أن نتصور لها حدوداً مغلقة على أهلها أو أمام أهلها ، فالحدود الإقليمية لم تكن معروفة بعد ، وكانت الجماعات تنتشر هنا وهناك حيثما استطاعت وفى كل اتجاه بحثاً عن الأراضى النباتية والمعشبة التى يتوافر فيها حيوان الصيد والرعى وموارد الماء على نطاق الشرق الأدنى باتساعه الكبير .

ومن المحتمل كذلك أن الموقع المتوسط لشبه الجزيرة العربية قد يسر لبعض سكان أطرافها أن يشاركوا فى نقل المتاجر المناسبة لعهودهم بين أقطار الهلال الخصيب حين بدأت عصورها التاريخية منذ الألف الثالث ق . م ، وازدادت معها إمكانياتها ومطالبها . وكما قام بعض هؤلاء السكان بدور الوسيط التلقائى فى المناطق التى يرتادونها ، عملوا كذلك فى صلب العصور التاريخية على نقل ما يمكن الاتجار به من منتجات بلادهم نفسها لا سيما منتجات البخور واللبان والصموغ والمر من الجنوب العربى .

ويبدو أن هذا الدور التجارى لم يتم على نطاق وأسع إلا بعد استئناس

الجمل سفينة الصحراء واستخدامه فى النقل والأسفار، نظرا لما هو معروف عن قدرته على تحمل المشقة والعطش والسير المتصل فى رمال الصحراء . وليس من المستبعد أن معرفة الانسان بالإبل كانت قديمة وتقرب من قدم معرفته بغيرها من الحيوانات آكلة العشب المدرة للبن (ففى مصر القديمة مثلا كشف عما يشبه هيئة الجمل فى نحو ١٥ نموذجا أثريا منذ فجر التاريخ حتى الدولة الحديثة) . ولكن الغريب هو أن مصادر شبه الجزيرة والهلال الخصيب ومصر لم تذكر الجمل أو اسمه صراحة إلا فى وقت متأخر يقدره الباحث ألبرايت (W. F. Albright) بالنصف الثانى من الألف الثانى ق . م (وفى حوالى القرن ١٢ ق . م .) . وإذا صح أن هذا التاريخ ينطبق فعلا على استخدام الجمل فى النقل والتنقل فى شبه الجزيرة لكان فيه ما يفسر بداية التغيير فى الحياة النمطية لسكانها فى وقت لاحق بقليل . ويبدو أن العرب كانوا قبل ذلك يعتمدون على الحمير . ولهذا ظلت تحركاتهم بطيئة . فلما استخدموا الإبل زادت إمكاناتهم الاقتصادية وأصبحوا أقدر على مداومة الاتصال بعضهم ببعض . وعلى تكوين الوحدات السياسية فى بعض المناطق المشجعة على حياة الاستقرار . واتسعت آفاق اتصالاتهم حينذاك بجيرانهم فى الهلال الخصيب وانتفعوا ببعض عناصر خصائص حضاراتهم المتقدمة وأخصها فكرة الكتابة . وربما زكى هذا الارتباط مايتجه اليه بعض الرأى من إرجاع أوائل النصوص العربية المعروفة ، وهى مجرد مخربشات أولية فى مثل وادى بيحان بالجنوب العربى ، إلى أواخر الألف الثانى ق . م . ، وقد وجدت حول نبع ماء دائم وعدة برك صغيرة .

وبفضل العوامل الطبيعية والبشرية والتطورية التى تقدم ذكرها ظهرت دول وإمارات عدة على فترات مختلفة فى مناطق متفرقة من شبه الجزيرة . فتميزت فى الجنوب العربى خمس دول كبيرة ، وهى سبأ وقتبان وأوسان ومعين وحضرموت ، وقد تعاصر بعضها مع بعض ، وتعاقب بعضها إثر بعض . وكانت للدولة الأولى منها وهى سبأ عدة أطوار متعاقبة .

وانتفعت هذه الدول بما اتصفت به بيئاتها من الوفرة النسبية فى الأمطار والوديان والأنهار . والوفرة النسبية بالتالى فى محاصيل الزراعة ومنتجات البخور والصموغ واللبان والمر والذريرة ، وربما حتى بعض المعادن أيضاً كالذهب .وانتفعت كذلك بإشرافها على مداخل طرق القوافل التجارية الرئيسية التى كانت تربط بين جنوب شبه الجزيرة وبين شمالها ثم تتفرع بعد ذلك إلى مختلف مناطق الهلال الخصيب . ثم بإشرافها شيئا فشيئا على مناطق ساحلية طويلة أطلت بموانيها (المحدودة) وخلجانها الطبيعية على البحر الأحمر وعلى المحيط العربى (أو الهندى) فتعاملت منها مع مناطق الإنتاج الطبيعى على سواحل أفريقيا الشرقية . وبعد ذلك مع سواحل الهند الغربية . وقامت بدور الوسيط التجارى فى تصديرها إلى مناطق الاستهلاك والاستيراد فى العالم الخارجى المتحضر القديم .

وتوزعت مناطق العمران والاستقرار والحضارة فى المناطق الشمالية والغربية والوسطى والشرقية من شبه الجزيره العربية والخليج . على أسس متشابهة . فتركزت فى الوديان وحول موارد المياه فى مناطق الواحات والحرات . وحول الطرق التجارية الداخلية . والطرق التجارية الكبيرة المؤدية إلى الخارج . وحول الخلجان والموانىء على السواحل البحريه .

وهكذا ظهرت مع توالى العصور إمارات مدين وعاد وثمود . وممالك دومة . وقيدار، وتيماء، وددان. ولحيان . والأنباط ،وكندة وتجمعات مذحج والأزد وقحطان ومعد . كما ازدهرت مكة ويثرب ، وانتعشت موانى الشعيبة والجار والوجه والحوراء وأملج على البحر الأحمر . وجرها وأقطار دلمون وماجان وملوخا على الخليج العربى .

وربما قامت إلى جانب ذلك تجمعات قبلية أخرى فى قلب الصحراء لم تكتشف آثارها بعد . وأخيرا قامت على الأطراف الشرقية والشمالية الغربية . دولة المناذرة . ودولة الغساسنة ، حتى ظهر الإسلام وجعل من شبه الجزيرة العربية دولة كبيرة واحدة .

ولم يقتصر نشاط العرب القدماء على أرضهم ، وإنما خرجت جاليات منهم إلى جزيرة سوقطرة وساحل الصومال وشاطىء الحبشة وميناء رهابتا قرب دار السلام في شرق أفريقيا . وذلك بطبيعة الحال إلى جانب هجراتهم الشعوبية الكبيرة التي استوطنت في بعض أراضي الهلال الخصيب على فترات متباعدة، لاسيما في مناطق الأطراف الواصلة بينها وبين البوادي القريبة منها .

وسوف يعترضنا خلال البحث التفصيلي للدول والإمارات العربية القديمة كثير من الجدل حول تحديد بداياتها ونهاياتها الزمنية . وترتب هذا الجدل على أن كتبة تلك الدول والإمارات لم يسجلوا أحداثها بتأريخ ثابت إلا في عهود متأخرة . ولم يسجلوا سنوات حكم ملوكهم إلا في عهود متأخرة أيضاً . ولم تعرف لهم حتى الآن قوائم ترتب أسماء حكامهم واحدا بعد الآخر . وذلك بحيث أنه لايتيسر تحديد عهد حاكم منهم تحديدا قاطعا إلا إذا ورد اسمه أو مايدل عليه في نص خارجي معاصر له، من النصوص المسمارية ، والمصادر المصرية والشامية والإغريقية والرومانية، أو إذا كانت عهده من العهود المتأخرة التي استخدم بعض العرب فيها التأريخ الثابت، حين عرفوه على أطراف الشام بعد عام ٣١٢ ق . م . ، وعرفوه في سبأ وحمير في عام ما بين ١١٥ وبين ١٠٩ ق . م . واستخدموه في دولة الأنباط في عام ١٠٦ بعد الميلاد .

***

خطوط الكتابات القديمة
فى شبه الجزيرة العربية

ترجع خطوط الكتابات القديمة التى سبقت الخط العربى المألوف فى شبه الجزيرة العربية ، إلى مجموعتين كبيرتين : مجموعة شاعت فيها كتابة المسند ، وهى كتابة استخدمتها الدول العربية الجنوبية المتحضرة القديمة ، سبأ وقتبان ومعين وحضرموت وأوسان . ثم شاركتها فيها بعض الإمارات والجماعات الشمالية والغربية فى شبه الجزيرة العربية ومايتصل بها من جنوب الشام ، بعد أن حور كتبتها فى أشكال حروفها بما يتفق مع مدى إتقانهم لها وربما بما يناسب مخارج ألفاظهم ، تعديلات عفوية أحيانا وتعديلات مقصودة أحيانا أخرى . وهكذا خرجوا منها بخطوط إقليمية امتاز منها الخط اللحيانى والخط الثمودى والخط الصفوى . ويرى بعض اللغويين أن هذه الخطوط الإقليمية يمكن التمييز فيها أيضاً بين عدة خطوط فرعية محلية اختلفت فيما بينها باختلافات طفيفة .

ثم مجموعة ثانية من الخطوط اعتمدت أساساً على قواعد الكتابة الأرامية وكتب بها فريق آخر من الدول والإمارات العربية الشمالية والغربية ، بعد أن حور كتبتها فيها هم الآخرون تحويرا قليلا أو كثيرا . وأهم هذه الدول هى إدوم والأنباط وتدمر : مع احتمال وجود خطوط أخرى فرعية فى داخلها . وأخيرا اشتق كتبة الحجاز الخط العربى الصريح من الخط النبطى فى الأجيال القليلة التى سبقت ظهور الإسلام لاسيما فى مكة ويثرب .

وعثر على بعض نصوص هذه الكتابات الشمالية منها والجنوبية منقوشة على سطوح حجرية كبيرة وصغيرة مثل جدران المعابد ومداخل المدن والحصون وسفوح الجبال وقواعد التماثيل وسطوح النصب وكسر الحجر الصغيرة . وعثر عليها منقوشة كذلك على سطوح معدنية كالصحاف وقواعد التماثيل الصغيرة وقطع العملة وما إليها . وربما كانت منقوشة على الأخشاب أيضاً . ولكن ندر حتى الآن ما يحتمل معه أن العرب القدماء كتبوا عليه من

ألواح الصلصال التى كتب عليها كتبة الهلال الخصيب ، والجلود والرق والعظام وحقاف النخيل التى كتب العرب عليها فى صدر الإسلام ، أو صحائف البردى التى صنعها وكتب عليها المصريون القدماء ثم تعلم استخدامها منهم بعض الآراميين . ولو أنه ليس من المستبعد أن العرب القدماء فى الشمال وفى الجنوب كتبوا على بعض هذه المواد ، ولكنها بليت بمرور الزمن نظرا لطبيعتها الهشة وفعل الأرضة والحشرات فيها .

وفى سياق النصوص المنقوشة يمكن التمييز بين نوعين : نصوص مطولة إلى حد ما نقش الكتبة المهرة حروفها بعناية على جدران المعابد والنصب وواجهات المقابر والمبانى الدنيوية الكبيرة أحيانا ، وعلى بعض المصنوعات الثمينة . ثم نصوص أخرى مختصرة أطلق المستشرقون عليها لفظ الخربشات . وقد حزها أو خربش حروفها فى عجلة رجال عاديون من أهل المدن والقرى لخدمة مطالب حياتهم اليومية ، كما حزها وخربش حروفها بعض الكتبة المصاحبين للقوافل على سفوح التلال وجوانب الوديان التى كانوا يمرون بها ويريحون عندها ، وسجلوا فيها بعض أسمائهم ودعواتهم بأسماء معبوداتهم ، بل وبعض ماعن لهم من خواطر شخصية أيضاً .

كتابة المسند :

ليس ما يمكن تأكيده حتى الآن عن المنطقة أو الدولة التى بدأت فيها كتابة المسند فى الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية . فبينما كان هناك رأى قديم رد ابتداعها إلى دولة معين ، نبه رأى آخر إلى دلالة العثور على أقدم صور معروفة لهذه الكتابة فى دولة قتبان . ونبه رأى ثالث إلى وضع ظاهرة تركز أغلب النصوص المعروفة حتى الآن فى دولة سبأ موضع الاعتبار .

ومرة أخرى ليس ما يمكن تأكيده عن العهد الذى ظهرت فيه بداية كتابة المسند فى هذه المناطق ، وذهب بعض الاحتمال إلى تعيين هذا العهد بأواخر الألف الثانى ق . م . أو أوائل الألف الأول ق . م . ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وإن افترضت جاكلين بيرن لها تاريخا أحدث من هذا بكثير .

وتضمنت كتابة المسند تسعة وعشرين حرفا جامدا لم تتأكد أسماؤها القديمة ولا ترتيبها القديم حتى الآن . ولكن تشابهت أصوات ثمانية وعشرين حرفا منها مع أصوات حروف الهجاء العربية الحالية ، وزادت عليها حرفا واحدا يسمى (فى العبرية) حرف «سامك» كان ينطق قريبا من نطق حرف السين على الرغم من وجود سين أخرى عادية فى كتابة المسند ،(وقد وجد حرفان للسين فى الكتابة المصرية القديمة أيضاً) . وذلك فى مقابل عدم تضمنها حرف «لا» المركب فى الكتابة العربية .

وتتصف كتابة المسند بصفات أخرى بعضها اختصت به ، وبعضها اشتركت فيه مع غيرها من الكتابات السامية القديمة . وكان من ذلك على سبيل المثال :

أولا : كانت حروفها تخطيطية ، وليست صورا صريحة أو مقاطع صوتية . وقد يدل ذلك على أنه كانت لها أصول أخرى تصويرية لم تكتشف بعد ، أو أنها نقلت حروفها ناضجة من كتابة أخرى متطورة هى فيما يغلب على الظن الكتابة الكنعانية المبكرة .

ثانيا : أن حروفها ظلت تكتب منفصلة غير متصلة ، الواحد منها بجوار الآخر . وكان ذلك هو شأن أغلب الكتابات القديمة أيضاً حتى ماقبل الميلاد بقليل .

ثالثاً : لم تتغير أشكال حروف المسند ، سواء كتبت فى بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها . وكانت سطورها الأفقية تكتب عادة من اليمين إلى اليسار . ولكن فردية الحروف ، وثبات أشكالها ، كل منهما سمح لبعض الكتبة ببداية السطور من اليسار أحيانا . وقد يخالف الكاتب بين بدايتى سطرين متتاليين فيبدأ أولهما من اليمين ويبدأ الثانى من اليسار ، إما لإظهار المهارة ورغبة التغيير ، أو للتعمية على القارىء العادى فى النصوص اللغزية .

رابعاً : كانت كل كلمة فيها تنفصل عن الأخرى فى سطرها الأفقى

بخط قائم ، دون ترك مسافة مقصودة بين كلمة وأخرى إلا فى القليل النادر ، وذلك مع إلحاق حرف الوصل بأول الكلمة المتصل بها .

خامساً : أنها لم تتضمن حروفا لينة أو حروف حركة ولم تسجل تشكيل الحروف ، شأنها فى ذلك شأن أغلب الكتابات السامية القديمة ، وإن لم يمنع هذا من ترجيح استعمال الحروف اللينة فى لغتها المنطوقة ووجود قواعد شفهية لنطق كلماتها مشكلة .

سادساً : أنها لم تأخذ بالحروف المنقوطة ، واكتفت بتغيير أشكال حروفها المتقاربة بعضها من بعض .

سابعاً : أنها عبرت أحيانا عن التعريف والتنوين بإضافة نون أخيرة فى نهاية الاسم ، كما عبرت أحيانا عن التنكير بإضافة حرف ميم أخيرة فى نهاية الاسم ، وذلك بما يتفق مع لهجة أهلها .

ثامناً : أنها نسبت أغلب أفعالها إلى ضمير الغائب ، على الرغم من معرفة لغتها بضمائر المتكلم والمخاطب فى الإفراد والجمع والتذكير والتأنيث .

تاسعاً : أنها اكتفت فى أغلب أحوالها بكتابة أصول الأفعال ، وتركت للقارىء أن يستنتج صيغ هذه الأفعال من سياق النصوص ، فيما خلا التعبير عن صيغة المستقبل بإضافة حرف السين أو حرف الهاء فى بدايتها ، بما يتفق مع لهجة أصحابها .

عاشرا : أنها عبرت عن التشديد أحيانا بتكرار الحرف المراد تشديده ، ولم تتضمن ما يعبر صراحة عن صيغة الاستفهام وما يشبهها .

وتعددت آراء اللغويين فى تعليل تسمية كتابة « المسند » — وأقرب هذه الآراء إلى الاحتمال رأيان وهما :

أولا : أن العرب الجنوبيين كانوا يستخدمون كلمة «مسند» بمعنى الكتابة

على الإطلاق . ويزكى هذا الفرض أن بعض الأوامر الملكية القديمة كانت تبدأ عندهم بعبارة « سطرو ذن مسندن » أى سطروا أو اكتبوا هذه الكتابة .

ثانياً : أن الفواصل القائمة بين كل كلمة وأخرى فى هذه الكتابة ، قد أوحت إلى أهلها ، أو أوحت إلى المؤرخين المسلمين ، بتسمية خطهم باسم الخط المسند . على اعتبار أن كل كلمة فيه تكاد تستند على الخط القائم الذى يسبقها والخط القائم الذى يليها .

أسلفنا أن بعض الدول والجماعات العربية الشمالية كتبت بالخط المسند ، نتيجة لظروف واتصالات نتعرض لها فيما بعد ، وأهمها دولة ددان أو لحيان التى قامت حاضرتها فى واحة العلا الحالية . وكانت حروفها أقرب الحروف الشمالية شبها بحروف المسند الجنوبية . مع تعديلات طفيفة فيها . ثم جماعات الثموديين الذين تعددت مناطقهم فى شمال الحجاز وشمال نجد وغيرهما من مناطق شبه الجزيرةوخارجها ، وقد كتبوا نصوصهم الرأسية بخط تقيدوا فيه بأشكال حروف المسند التقليدية فى النصوص الرئيسية ، وخط آخر اشتقوا أشكال حروفهمن أشكال المسند أيضاً ولكنهمحوروا فيها تحويرا ملحوظا وغالبا ماااستخدموه فى النصوص الموجزة والخربشات . أما المنطقة الثالثة التى أخذت بكتابة المسند فقد انتشرت نصوصها أساساً بين جبل سيس شرقى دمشق وبين قلعة الزرقا إلى الشمال الشرقى من عمان (وعلى سفوح جبل حوران إلى الجنوب الشرقى من دمشق) . وسميت كتابتها اصطلاحا باسم الكتابة الصفوية — مع أن أقدم نصوصها وجدت فى الحرة وليس فى الصفا ، ولكن كثرة الحرار واتقاء اللبس بينها دعيا إلى نسبتها تجاوزا إلى الصفا . وقد حور كتبتها فى رسم حروفها عن حروف المسند أكثر مما فعل غيرهم .

ولم ينتشر الخط المسند القديم فى هذه المناطق العربية وحدها ، وإنما وجد سبيله كذلك إلى منطقة أكسوم الحبشية حيث كتب به الجعزيون (وهم الأحرار من ذوى الأصول العربية) وحوروا بعض الشىء فى أشكال حروفه . وجمعت نصوصهم بين اللغة الأفريقية المحلية وبين اللغة العربية الجنوبية ؛ ويرى بعض اللغويين أن تسميات الحروف وترتيبها فيما احتفظت به

الأبجدية الحبشية قد تلقى ضوءا على تسميات وترتيب الحروف فى الجنوب العربى القديم نظرا للصلات المكانية والبشرية والحضارية بين الجانبين .

الخط النبطى وتطوره إلى الخط العربى :

سلف التنويه بمجموعة رئيسية ثانية من الخطوط القديمة فى شبه الجزيرة العربية رجعت أصولها إلى الكتابة الآرامية ثم سلكت وجهات إقليمية أو شعوبية ، وتمايز منها الخط النبطى والخط التدمرى فضلا عن الخط السريانى . . . إلخ . ويعنينا الآن منها الخط النبطى بخاصة لوثيق صلته بالخط العربى ووثيق صلة أصحابه بالعرب .

تعلم كتبة الأنباط الخط الأرامى من موضعين ، من إمارة إدوم بعد أن استقروا فى أرضها وتغلبوا على حكمها فى نواحى هضبة إدوم وجبل سعير شرقى العقبة وجنوب شرقى الأردن ، ثم من دويلة دمشق الأرامية الأصل التى اتصلوا بها عن طريق التجارة واستفادوا من حضارتها وحاولوا أن يحتلوها أكثر من مرة . وحين تعلم الأنباط الخط الأرامى تعلموه كيفما اتفق وفى غير دقة كبيرة ، فرسموا حروفه فى أشكال مختصرة وكتبوا بها لغتهم المحلية وكانت لغة عربية فى مجملها ولكنها عربية ذات رطانة آرامية لاسيما فى مناطق استقرارهم الشمالية .

وكان الآراميون ومن أخذوا بخطهم قد كتبوا حروفهم من قبل مفردة ، وكلماتهم متعاقبة دون فواصل بينها . فلما انفرد الأنباط بخطهم كان خير مازادوه فيه تجديدان ، وهما محاولة وصل حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض ، أو على الأقل محاولة وصل الحرفين المتجاورين مع بعضهما . ثم محاولة الفصل بين كل كلمة والكلمة التى تليها فى سطرها الأفقى بطريقة ما . وأدى هذان التجديدان إلى زيادة الفوارق بين الخط النبطى وبين أصوله الأرامية القديمة .

وبدأ كتبة الأنباط خطوة وصل الحروف بالوصل بين حرفى الباء والراء فى كلمة « بر » بمعنى « بن » نظرا لكثرة استخدامها فى ذكر نسب الشخص

إلى أبيه . واتخذوا الوصل بين هذين الحرفين نموذجا لكلمات ثنائية أخرى تبدأ بحرف الباء (مثل به) ، وذلك منذ القرن الأول قبل الميلاد على أقل تقدير . ثم طبقوا هذا الربط على أغلب الكلمات الثنائية الأخرى (مثل يد، من ، نه ، إلخ) . — وبعض الكلمات الثلاثية التي يكثر استعمالها فى كتابة النصوص مثل كلمة ملك ، وفعل عبد بمعنى صنع ، وذلك منذ القرن الأول الميلادى . وعملوا بعد ذلك على تطبيق هذه الطريقة على كثير من كلماتهم الأخرى خلال القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد، مع استثناء حروف معينة تركوها مفردة (مثل الألف والواو) .

واستخدم الأنباط أربع وسائل فى ربط الحروف ببعضها ، وهى :

(أ) سند الحرف على ساق الحرف الذى يليه .

(ب) ربط الحرف بذيل الحرف الذى يليه .

(جـ) مزج الحرف مع الحرف الذى يليه (مثل لا) .

(د) ربط حروف الكلمة من أسفلها برباط واحد .

وشابه الأنباط فى محاولات الربط بين الحروف ، كتبة دولة تدمر فى القرن الثالث الميلادى على أقل تقدير .

أما خطوة الفصل بين كل كلمة وأخرى ، فاستخدم كتبة الأنباط لها أربع وسائل أيضاً لازلنا نستعمل بعضها حتى الآن ، وهى :

(أ) التفرقة بين شكل الحرف إذا أتى فى أول الكلمة وبين شكله إذاأتى فى وسطها أو فى نهايتها .

(ب) إطالة ذيل الحرف النهائى للكلمة .

(جـ) الفصل بين كل كلمة والكلمة التى تليها بفراغ قليل ، ولو أن هذه الوسيلة كانت قليلة الاتباع .

(د) إضافة حروف أجنبيةاستعاروها من نصوص جيرانهم ، إلى نهاية الكلمة (مثل الألف النهائية والتاء النهائية) . ولو أنهم مالبثوا حتى استغنوا عن بعضها بعد أن تعودوا على بقية وسائل الفصل الأخرى .

وظلت تنقص الكتابة النبطية خطوات أخرى لم يستكملها العرب إلا فى صدر الإسلام ، وهى :

- عدم تنقيط الحروف المتقاربة مما أدى إلى تشابه كتابة التاء مع الثاء، والدال مع الذال ،والصاد مع الضاد . . . إلخ .

- وعدم كتابة حروف الحركة أو حروف المد فى داخل الكلمة (مثل كتابة ملك عوضا عن مالك) .

- وعدم تشكيل الحروف أو الكلمات .

- وكتابة تاء التأنيث الأخيرة تاء مفتوحة على الرغم من نطقها هاء ، مثل حرثت عوضا عن حارثة ، وكليبت عوضا عن كليبة ، . . إلخ .

ولكن فى مقابل هذا تضمنت اللغة النبطية بعض القواعد التى عرفتها اللغة العربية ، مثل إضافة الـ التعريف ، و استخدام الفاء والواو للترتيب ، والاستثناء بكلمة غير ، واستخدام الماضى فى الدعاء .

وبعد أن ورث العرب الشماليون خط الأنباط واستخدموه ، أضافوا إليه بضعة تجديدات قبيل ظهور الإسلام وفى أوائله . ومن هذه التجديدات ربط بعض الحروف من رأسها لتصبح تحت مستوى السطر مثل الراء والنون فى لفظ الرحمن . وزادوا فى تحوير أشكال بعض الحروف إلى صور قريبة مما نستخدمه لها الآن مثل شكل الهاء فى بداية الكلمة ووسطها ونهايتها ، وشكل الياء فى أول الكلمة وفى آخرها . . . إلخ .

وكما استفاد الكتبة العرب من أسلوب الخط النبطى أثروا فى زيادة صبغ النصوص النبطية بلهجتهم العربية على حساب اللهجة الأرامية منذ القرن الثالث والقرن الرابع الميلاديين (كما يتضح فى نقش النمارة ونقوش سيناء) ، ثم جعلوها عربية خالصة فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين (كما يتضح من نقش زبد ونقش حران) .

واختلف المؤرخون المسلمون القدماء فى تحديد المنطقة التى تطور الخط

النبطى فيها إلى صورته العربية التى عرف بها قبيل ظهور الإسلام . واتجه أغلبهم إلى نسبة هذا التطوير إلى الحيرة . وقالوا فيما قالوه إن أهل الحيرة أخذوه عن الأنبار وإن الأنبار أخذوه عن اليمن . وإن ثلاثة من قبيلة بولان فى الأنبار اجتمعوا فوضعوا الحروف المقطعة والموصولة، والمنقوطة وغير المنقوطة .

ويبدو أنه ساعدهم على القول بهذا الرأى ما تواتر إليهم عن رقى حضارة أهل الحيرة فى عهود المناذرة ، وما علموه من أن بعض عربها النصارى كانوا يكتبون الإنجيل ويقرأونه . ويدونون أخبارهم ويرسلون أبناءهم إلى الكتاتيب ، وأن فريقا منهم كان يقرأ الفارسية واليونانية .

واتجه الباحثون المحدثون وجهة أخرى ، ومنهم خليل يحيى نامى الذى أصدر بحثا عن أصل الخط العربى استبعد فيه الرأى السابق ، على اعتبار أن المسيحيين من أهل الحيرة كانوا يكتبون بالخط السريانى ، والخط السريانى وإن كان فرعا من الكتابة الآرامية إلا أنه فرع بعيد عن أصول الكتابة العربية .

وكان المؤرخ العربى هشام الكلبى أكثر توفيقاً من بقية المؤرخين المسلمين القدامى فى تخمين منطقة تطوير الخط النبطى إلى صورته العربية، فنقل عنه ابن النديم أن العرب أخذوا خطهم عن أهل مدين . وأن المقاطع التى حفظ العرب بها أبجديتهم تعبر عن أسماء ملوك مدين . ورأى خليل نامى وغيره أنه لا بأس من قبول الشطر الأول من هذا الرأى دون الشطر الأخير ؛ وذلك على اعتبار أن الأنباط انتشروا فى نفس المنطقة التى كان يسكنها قديما أهل مدين وكتبوا فيها خطهم (فى مثل مغاير شعيب والحوراء فى شمال الحجاز) ؛ وعن هذا الخط الأنباطى أخذ عرب الحجاز ولكن ليس عن خط أهل مدين بالذات ؛ ويسر ذلك لهم قربهم من المناطق الشمالية وتعاملهم معها فى التجارة وما تتطلبه شئون التجارة من الكتابة . وكانت أهم مراكز الكتابة فى مناطقهم هى مكة ويثرب . وقد ذكر البلاذرى أنه لما ظهر الإسلام كان فى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب . وكانت الشفاء بنت عبد الله العدوية تحسن الكتابة . ولما دخل الإسلام يثرب كان من الأوس والخزرج عدة يكتبون .

* * *

تشابهت النصوص القديمة فى شبه الجزيرة العربية مع نصوص الحضارات الأخرى فى الشرق الأدنى وغيره فى بعض أغراضها واختلفت عنها فى بعض آخر . فتشابهت معها فى اهتمامها بتسجيل أخبار الانتصارات الحربية ، وإقامة المنشآت العامة والمشروعات العمرانية والدفاعية ، وتسجيل الدعوات الدينية وألفاظ التعبد ، والهبات المقدمة إلى المعابد ، وتسجيل مراسيم الضرائب وبعض المعاملات الشخصية كالبيوع والمواريث ، وتسجيل أسماء أصحاب المقابر ودعواتهم وتخصيصها لهم.ولكن هذه النصوص لاتزال تنقصها حتى الآن ماتضمنته نصوص الحضارات الكبيرة القديمة الأخرى من قصص وأساطير وعلوم وتعاليم مطولة ، ولاتزال تنقصها كذلك المدونات التاريخية المنسقة التى تتحدث عن قصد عن أخبار الماضى وحوادثه وترتب أسماء حكامه وعهودهم تدوينا مرتبا متصلا . وليس من اليسير أن نقرر ما إذا كان العرب القدماء قد تجاوزوا عن الكتابة فى هذه النواحى فعلا ، أم أنهم كتبوا عنها ولكن لازالت نصوصها خبيئة تنتظر كشف اللثام عنها ،لاسيما وأن قلة قليلة من النصوص المطولة نسبياً بدأت تلفت أنظار بعض الباحثين إلى احتمال صياغتها على هيئة السجع أو الرجز أو النشيد . ويقتضى هذا السياق أن نشير إلى حقيقة معروفة وهى أن نشأة الكتابة والنصوص المكتوبة لاترتبط بنشأة اللغة المنطوقة أو بمدى النشاط الفكرى عند أهلها . فليس من شك فى أن كل الجماعات البشرية كانت لها لغاتها التى تتفاهم بها منذ أن بدأت تجمعاتها على سطح الأرض . وليس من شك كذلك فى أن كل جماعة كانت تتناقل عقائدها الدينية وأخبار أسلافها وأنسابها وآدابها وأساطيرها عن طريق الرواية قبل أن تعرف الكتابة بأزمان طويلة . ولعل فى ثراء الشعر الجاهلى وثراء النثر معه مايرجح دسامة الآداب العربية الشمالية القديمة التى لم تعرف طريقها إلى التدوين أو التى لم يعثر على مدوناتها الكبيرة حتى الآن .

* * *

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

بيستون ، وريكمانز ، والغول ، ومولر : المعجم السبئى — من منشورات جامعة صنعاء — بيروت — ١٩٨٢ .

خليل يحيى نامى : أصل الخط العربى وتطوره إلى ما قبل الإسلام — القاهرة ١٩٣٤ .

Beeston, A.F. L., A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabian, London 1962.

Pirenne, J., Paléographie des Inscriptions Sud-Arabes, Brussel, 1956.

الفصل الثالث

فى جنوب شبه الجزيرة العربية

تمهيـد :

قدمنا بما يحتمل من قيام نشاط عمرانى داخلى قديم فى بعض مناطق شبه الجزيرة العربية ،وقيام نشاط اقتصادى مناسب للتعامل به فى داخلها ومع ما فى خارجها معا ، وذلك حتى عندما كان أهلها لايزالون يتألفون من وحدات صغيرة وقبائل متفرقة ، ومن قبل أن ينشئوا دولا سياسية مستقرة بفترات طويلة . ويكفى هنا من القرائن التى تزكى هذا الاحتمال فى إيجاز عثورنا على نص مصرى قديم يسجل وصول وفد من تجار « جنبتين » بمتاجرهم من اللادن والكندر والمر والبخور إلى مصر فى العام ٣٢ من عهد الفرعون تحوتمس الثالث (أى فى حوالى عام ١٤٥٨ ق . م .) . وكان « الجنبتيون » أو «الجبانيتاى » كما ذكرهم بعض المؤرخين الإغريق والرومان فيما بعد ، عشائر نشطة من العرب القتبانيين فى جنوب شبه الجزيرة العربية . وحدث قبل وصول هذا الوفد إلى مصر أن اعتزم رجال البحرية المصرية فى فى عام ١٤٨٢ ق . م . خلال عهد الملكة حاتشبسوت التى سبقت الفرعون تحوتمس الثالث فى الحكم، أن يصلوا بأسطولهم التجارى إلى مدرجات الكندر فى الجنوب العربى ليتعاملوا مع تجارها مباشرة ويوفروا بذلك تكاليف الوساطة والوسطاء بينهما . وقد اعتبروا هذه المدرجات من أرض الله التى وقفها على تزويد معابدهم بأطايب البخور ، وأملوا خيرا فى أن يهديهم ربهم إلى طرق البحر والبر المؤدية إليها . ولكن وسطاء التجارة من سكان منطقة بوينة (أو بونت) على الشاطىء الأفريقى للبحر الأحمر قرب نواحى الصومال أو إريتريا الحاليتين ، خشوا أن يفقدوا مكاسبهم فبالغ أميرهم أمام المندوبين المصريين حين وصلوا إلى أرضه فى تصوير استحالة عبور مضيق باب المندب المؤدى إلى مدرجات الكندر (فى الجنوب العربى) وصعوبة اختراق ماوراءه

من طرق برية ، وادعى أن أحدا لم يجرء على ذلك منذ أيام رع . ثم أرضى المندوبين المصريين بأن استورد من أجلهم ٣١ شجيرة من أشجار الكندر العربى الثمين حتى يزرعوها فى حدائق معبد آمون المدرجة فى مدينة طيبة ماداموا حريصين على أن يعودوا إلى بلدهم بهذا النوع الثمين من البخور ، وسوف تغنيهم زراعته عن تكبد مشقة الوصول إلى مدرجاته . ورضى المندوبون المصريون بهذا ، ولو أن هذه الشجيرات لم تنجح زراعتها فى مصر نظرا للاختلاف فى التربة وفى المناخ عن بيئتها الأصيلة . وليس من المستبعد أن هذه الوقائع بلغت أسماع الجنبتيين فى جنوب شبه الجزيرة العربية وكانت من عوامل لفت أنظارهم إلى إمكان التعامل مع مصر مباشرة مادامت هى راغبة فى ذلك . وقد وجدوا فى عهد تحوتمس الثالث الذى ساد مناطق واسعة من الهلال الخصيب امتدت من الشلال الرابع فى السودان إلى غرب الفرات بين الشام وبين العراق ، ووطد الأمن فيها ، ما شجعهم على تنفيذ رغبتهم . وليس من المستبعد مرة أخرى أن بعضهم سلكوا الطرق البرية فى سير طويل ومراحل متعددة حتى وصلوا إلى البلاط المصرى فى منف أو طيبة .

وبعد هذا العهد ظلت المناظر المصرية القديمة تصور ضمن تجار الكندر واللادن والبخور والمر الواردين إليها عن طريق البحر الأحمر وشواطئه ، والذين اعتبرتهم من وجهة نظرها أتباعا يؤدون الجزية إلى مصر . رجالا ذوى ملامح سامية ، يصلون إلى العاصمة المصرية تارة ، ويقفون عند سيناء تارة أخرى ، وعند بعض الموانىء المطلة على البحر الأحمر تارة ثالثة ، ويتبادلون المتاجر هنا وهناك مع المندوبين المصريين . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك ثلاثة فروض، وهى أنه ليس من المستبعد أن بعض هؤلاء التجار ذوى الملامح السامية كانوا من سكان السواحل العربية الشمالية الذين قاموا بدور الوساطة فى نقل المتاجر من الجنوب العربى إلى مصر ، وأن ماقام به الجنبتيون أسلاف القتبانيين من تعامل تجارى مع مصر فى ذلك الزمن البعيد كانت تقوم بمثله طوائف عربية أخرى لم تعرف بعد أسماؤها القديمة ، وأن

ماكانوا يؤدونه من التبادل التجارى مع مصر كانوا يؤدون مثله مع الشام والعراق . وكانت سلعهم من البخور ومشتقاته تلقى الرواج الكبير هنا وهناك لكثرة استخدامها فى المعابد وفى القصور ، وفى المحافل والأعياد والمآتم والجنازات ، وفى تركيب العقاقير ؛ وإن زادت مصر فاستخدمتها كذلك بكثرة فى عمليات التحنيط التى اشتهرت بها . وكانت الشعوب المستهلكة لهذه المنتجات الثمينة تنتج بعضها فى أرضها أحيانا ، وتستورد بعضها من المناطق الأفريقية التى تنتجها ، ولكن يبدو أن أفضل أنواعها هو ما كانت تستورده مباشرة أو عن طريق الوسطاء من مدرجات الجنوب العربى بالذات ولهذا عادت تجارته على أصحابه بأرباح وفيرة .

وقد استشهدنا من قبل برأى ألبرايت وغيره من آن احتمال استخدام الإبل فى عمليات النقل والتنقل منذ القرن الثانى عشر ق . م أو نحوه قد زاد من الإمكانات الاقتصادية لعرب شبه الجزيرة العربية وزاد من إمكانات اتصالاتهم بالدول المحيطة بهم ، وأن هذه الإمكانات وتلك قد هيأتهم لتكوين دول ودويلات غنية مستقرة تأخذ بأسباب الحضارة الراقية .

وأغلب الظن أن التحول من الأوضاع القبلية إلى تنظيمات الدول المستقرة لم يتم بسهولة أو فى وقت قصير . ولعله بدأ فى بعض صوره على الأقل بنوع من التحالف على قدم المساواة بين القبائل ذات المصالح المشتركة والمناطق المتقاربة ، والمترابطة بروابط الدم والنسب ، ثم عملت الظروف عملها فى تغليب كفة فريق منهم على فريق فى إطار هذا التحالف ، ووصول أكبر زعمائه إلى الرياسة التى أصبحت وراثية فى أعقابه ، سواء تحت راية الدين أم بتأثير القوة والثراء ونبالة الأصل . ويبدو أن أقدم الجماعات التى نهجت مثل هذا النهج المحتمل هى الجماعات السبأية التى أشارت الكتب السماوية إلى أهميتها منذ أيام سليمان عليه السلام ، أى منذ القرن العاشر ق . م على أقل تقدير . ولهذا سوف نبدأ فيما يلى بدراسة المراحل الأولى من تاريخ دولتها « دولة سبأ » ، دون أن ينفى هذا أن دولا أخرى من الدول التى سوف نبحث تاريخها بعدها كانت تعاصرها فعلا فى بعض عهودها الأولى .

* * *

دولة سبأ فى عصورها المبكرة

توافرت لدولة سبأ بين المؤرخين القدماء والمحدثين شهرة لم تتوافر لما عداها من بقية الدول العربية الجنوبية القديمة . وترجع عوامل هذه الشهرة إلى عدة أسباب، أهمها: ذكر سبأ فى أكثر من قصة من قصص العهد القديم، وفى أكثر من آية من آيات القرآن الكريم ، وذكر أسماء بعض حكامها صراحة فى النصوص المسمارية العراقية منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، واستمرار كيانها السياسى المتطور إلى ما قبل ظهور الإسلام بقليل ، وارتباطها بعدة حوادث دينية وسياسية تأثر بها العرب الشماليون والجنوبيون قبيل ظهور الإسلام بقليل أيضاً ، ثم بقاء بعض معابدها ومنشآتها الكبرى ظاهرة فوق سطح الأرض خلال العصور الإسلامية نفسها وحتى الآن .

مشكلة النشأة :

تناول بعض المستشرقين نشأة السبأيين (أو السبئيين كما يكتب اللفظ أحيانا) من أكثر من زاوية واحدة ، ويمكن إيجاز آرائهم فيها فى نظريتين رئيسيتين ، وهما :

أولا : نظرية زكاها عدد من الباحثين (مثل شرادر وكيبرت وهارتمان ودلتش وفريتز هومل) ، ورأوا فيها أن السبأيين عاشوا أصلا فى شمال شبه الجزيرة العربية قرب منطقة الجوف الشمالى واستمروا فيها على البداوة زمنا طويلا ، ثم دفعتهم دوافع معينة إلى الاتجاه نحو جنوب شبه الجزيرة قبيل بداية القرن الثامن ق . م بقليل حيث استقروا فيه . واعتمدت هذه النظرية على عدة قرائن سوف نناقشها واحدة بعد الأخرى بعد قليل .

ثانياً : نظرية ألمح اليها باحثون آخرون (ومنهم مولر وجلاسر وفنكلر وماير ثم ألوا موزيل) ، ويرون فيها أن السبأيين عاشوا منذ بداية أمرهم فى الجنوب العربى ، ولكن جالية منهم اتجهت خلال القرن الثامن ق .م أو قبله بقليل إلى الشمال وأقامت قرب واحة تيماء ومنطقة الجوف الشمالى لترعى المصالح التجارية لقومها فى شمال شبه الجزيرة وعلى طرق القوافل المتجهة منها إلى الهلال الخصيب .

ومع منطقية كل من هاتين النظريتين ، يبدو أن النظرية الثانية منهما هى الأقرب إلى الصواب لاسيا فيما يختص بأحوال السبأيين فى عصورهم التاريخية.

أما النظرية الأولى فثمة شواهد تدعونا إلى الاكتفاء بالخروج منها بما يحتمل من أن السبأيين عاشوا قبل تكوين دولتهم السياسية المستقرة فى منطقتها الخصبة بجنوب شبه الجزيرة العربية ، على ماعاش عليه أغلب أهل القبائل القديمة لايعترفون بحدود إقليمية مفروضة وتتفرق بطونهم بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب وفقاً لظروفها الخاصة ومصالحها الطارئة وعلاقاتها بجيرانها. ولم يكن هذا هوشأن القبائل القديمة فى الشمال والوسط فقط من شبه الجزيرة العربية ، بل كان شأنها أحيانا أيضاً فى الجنوب الخصيب نفسه .

ولتوضيح ذلك نعاود عرض ومناقشة قرائن هذه النظرية الأولى التى افترضت بداية حياة السبأيين فى شمال شبه الجزيرة ، وهى قرائن أوردها أصحابها ممن أسلفنا ذكرهم من الباحثين متفرقة فى سياق مؤلفاتهم فخرجت واضحة حينا وغامضة حينا آخر . وهى فى مجملها قرائن لاتخلو من منطقية وإن كانت فى الوقت نفسه لاتخلو من شك . ويمكن أن نجملها من ناحيتنا فى ثمان قرائن نعرضها فيما يلى واحدة بعد أخرى ، ونعقب على كل منها بما يزكيها أو ما يضعفها.

أولا : ذكرت التوراة كما ذكر القرآن الكريم أن حاكمة سبأية زارت سليمان (عليه السلام) فى عاصمته أورشليم (خلال منتصف القرن العاشر ق . م) ؛ وهى حاكمة لم تعرف حقيقة إسمها ولم يذكره لها القرآن الكريم . ولكن بعض الروايات العربية والعبرية والحبشية القديمة أطلقت عليها أسماء يلمقه ويلقمه وماقدة وبلقمة وبلقيس ، على خلاف فيما بينها . وكلها فيما يرى أغلب اللغويين الحديثين قد تكون أسماء محرفة عن إسم « إلمقه » المعبود الأكبر لدولة سبأ (وذلك مع وجود احتمالات أخرى لتفسير بعض الأسماء المفترضة آنفاً لهذه الحاكمة بمعنى الزهرة فى اللغة العربية القديمة ، ومعنى الجارية أو المحظية فى اللغة العبرية)

ولا بأس من أن نشير ابتداء إلى أن الجدل فى اسم ومكان حاكمة سبأ هذه لايتعارض مع الكتب السماوية فى شىء ، فكما أن هذه الكتب لم تذكر اسمها صراحة ، فهى أيضاً لم تحدد مكان دولتها بالشمال أو الجنوب . وعلى هذا الأساس من حرية البحث نستعرض ما ارتآه فريتز هومل وأصحابه من أن هذه الحاكمة كانت تحكم منطقة قريبة من مملكة سليمان الفلسطينية وتقيم فى منطقة ما من شمال شبه الجزيرة ، وذلك بحجة أنه كان من المستبعد أن تسافر بحاشيتها من أقصى جنوب شبه الجزيرة إلى مقر سليمان فى أورشليم ، وأنه ما من نص عربى جنوبى قد أشار إلى إمرأة حكمت سبأ الجنوبية أو وليت حكم دولة أخرى من دول الجنوب ، على حين ذكرت النصوص الأشورية نحوستة ملكات عربيات حكمن فى منطقة شمالية من شبه الجزيرة العربية .

ومع منطقية هذا الفرض ، نلاحظ أن هناك أربعة شواهد أخرى تدعو إلى إعادة النظر فيه ، وهى :

(أ) جاء فى القرآن الكريم عن حديث الهدهد مع سليمان (فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . . . .) . وإذا عنت جملة (فمكث غير بعيد) قصر المدة الزمنية على الرغم من طول المسافة المكانية ،وهو المرجح للدلالة على إعجاز الحدث ، فإن سياق بقية معجزة الهدهد يدل على أن أرض سبأ كانت بعيدة عن مملكة سليمان بحيث لم يحط علما بها ، ولهذا لم يقم بينهما من قبل اتصال مباشر ، أو على أقل تقدير لم تكن إحداهما تحيط بأحوال الأخرى إحاطة كاملة .

(ب) وجاء عن حديث الهدهد أيضاً : (إنى وجدت إمرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم .) ، ومثل هذا الثراء الذى يتوافر فيه كل شىء أقرب إلى أن يناسب المناطق العربية الجنوبية التى كانت لها فى عصورها القديمة مواردها الطبيعية والاقتصادية ذات الوفرة النسبية .

ولو كانت من المناطق العربية الشمالية فعلا لصح التساؤل عن ثلاث ظواهر ، وهى : لم لم تظهر آثار دولتها الثرية هذه فى الشمال حتى الآن ؟ وهل لقلة البحوث الأثرية هناك دخل فى ذلك؟ — ولم أهمل الرواة والمؤرخون العرب الشماليون ذكرها ولم يتفاخروا بها ؟ ، وهل كان لبعدها الزمنى الكبير عنهم دخل فى ذلك ؟ — وأخيراً إذا كان السبأيون قد بلغوا مبلغاً عظيماً من الثراء فى الشمال فى عهد سليمان أى فى القرن العاشر قبل الميلاد ، فما الذى دعاهم بعد ذلك إلى النزوح إلى الجنوب ؟ — وهل كان لتقلبات الظروف المناخية دخل فى ذلك ؟ — أم أنهم كانوا يقومون فى عهده بدور الوساطة فى نقل المتاجر الجنوبية إلى الشمال ثم طمعوا بعد ذلك فى أن يسيطروا على مصادرها بأنفسهم ويقيموا عليها ؟ — هذه كلها تساؤلات تصعب الإجابة عنها بردود شافية للأسف فى حدود المعلومات التاريخية والأثرية المعروفة لنا حتى الآن على الرغم مما عقبنا به عليها من احتمالات شتى .

(ج) ذكر القرآن الكريم جنتى سبأ وسيل العرم ، وكل منهما لا شك فى قيامه فى جنوب شبه الجزيرة العربية دون شمالها ؛ بعد ذكر قصة سليمان ودولته ، وذلك مما يمكن أن يدل على ترتيب مقصود للتنبيه إلى الرابطة القديمة بين الدولتين ، دولة سليمان ودولة سبأ ، وإلى العاقبة التى انتهت إليها أمور هاتين الدولتين .

(د) ردت الأساطير الحبشية نسب أسرتها الملكية القديمة إلى سليمان وماقدة ملكة شبا،أو بلقيس ملكة سبأ . وربما تواترخبر هذه النسبةالمزعومة إلى الأحباش عن طريق أسلافهم القدامى ، أو عن طريق جيرانهم السبأيين الجنوبيين ، أو عن طريق رواة العبرانيين الذين اتصلوا بهم منذ أواخر القرن الرابع ق . م . وهى على أى وجه من هذه الوجوه تشير إلى أن دولة الجدة ماقدة التى انتسب ملوكهم إليها ؛ إن حقاً وإن ادعاء ، كانت فى أغلب الظن قريبة من بلدهم أى فى جنوب شبه الجزيرة العربية .

وعلى أية حال فإنه يبدو أنه إلى جانب الكسب الدينى الذى أحرزه

سليمان بتحويل حاكمة سبأ من عبادة الشمس إلى عقيدة التوحيد كما ذكر القرآن الكريم ، كان هناك كسب اقتصادى آخر ، إذ يسرت الصلة بينه وبين سبأ الانتفاع بطريق قوافل الإبل السبأية الجديدة التى تحمل منتجات البخور الجنوبية إلى دولته ، وهو طريق يعتبر أقل نفقة وأخطاراً من طريق نقل المتاجر بأسطول سليمان عبر البحر الأحمر إلى أوفير التى ذكرتها التوراة ، كما أنه أقل تكلفة قطعاً من طريق الوساطة عبر الخليج العربى والعراق إلى فلسطين . وقد روت التوراة أن ملكة شبا حين قصدت سليمان « أتت إليه بحاشية كبيرة وجمال تحمل الطيوب وذهباً كثيراً وأحجاراً كريمة» وقالت كذلك « ولما سمعت ملكة شبا عن اهتمام سليمان بإسم الرب أتت تمتحنه بأسئلة صعبة » . وأشار القرآن الكريم إلى هدايا حاكمة سبأ إلى سليمان ورفضه قبولها وتفضيله دعوتها إلى ديانة التوحيد .

وبقى أخيراً أنه إذا اعتبرت الحجة الأولى لنظرية هومل وأصحابه باستبعاد سفر الحاكمة السبأية من الجنوب العربى إلى فلسطين حجة غير ذات موضوع نظراً لترجيح استخدام الإبل فى السفر فى عصرها ، فإن الحجة الثانية لها لا تزال بغير رد شاف حتى الآن ، وهى لماذا لم تتضمن النصوص السبأية القديمة المعروفة اسم ملكة وليت عرش قومها فى الجنوب ؟ ولعل ما يمكن أن يرد به حتى الآن على هذا التساؤل هو أن الأمر قد يرجع إلى محض المصادفة ، بمعنى أن أرض سبأ الجنوبية لا تزال تتضمن نصوصاً قديمة لم تكتشف بعد ، هذا إذا كانت الكتابة قد عرفت فعلا فى عهد تلك السيدة التى قرئت رسالة سليمان فى حضرتها أو تلت هى مضمونها وطلبت التشاور فيها .

ثانياً : ذكرت النصوص الأشورية السبأيين وحاكمين لهم فى ثلاث مناسبات ترجع إلى أعوام ٧٣٨ و ٧١٤ و ٦٨٥ ق . م . فذكر نص للملك الأشورى تيجلات بيليسر الثالث فى عام ٧٣٨ ق . م . أنه تلقى جزى السبأيين من الذهب والإبل والتوابل . وأكد نص للملك سرجون الثانى ملك آشور فى عام ٧١٤ ق . م . أنه تلقى من « إتى أمر» السبأى (أو السبئى)

جزى من الذهب والأحجار الكريمة والأعشاب والخيول . ثم ذكر نص لولده الملك الأشورى سينا خريب فى عام ٦٨٥ ق . م . أنه حين احتفل بوضع حجر أساس « بيت أكيتو » (وقد يكون معبداً أو حصناً أو قصراً) ، استقبل مندوباً عن الحاكم السبأى « كريبى إيلو » حمل إليه جزاه (أو هداياه) من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والطيوب ، ووضع جانباً منها بأمر مولاه فى أساس المبنى الجديد

ولم يجد الباحثون المحدثون بأساً فى اعتبار اسمى الحاكمين السبأيين اللذين ذكرتهما النصوص الأشورية ، محرفين عن « يثع أمر » و « كرب إيل » وهما من حكام سبأ الأوائل . ثم أضافت النظرية الأولى أن السبأيين الذين صورتهم هذه النصوص يدينون بالولاء لدولة آشور لا بد وأنهم كانوا يحسون بسطوتها ويخشون بأسها ، وبمعنى آخر كانوا قريبين منها فى شمال شبه الجزيرة وليسوا بعيدين عنها فى مناطق الجنوب .

ولكن هذا الاستنتاج يضعفه من ناحية أخرى أن هومل وغيره (مثل سان جون فلبى) أرخوا بداية الكيان السياسى لحكام سبأ الجنوبية بعام ٨٠٠ أو ٨٢٠ ق . م . وإذا صح هذا فلا بد أنه حدث بعد فترة طويلة تكفى لاستقرارهم وبسط سيطرتهم على الأراضى التى نزلوها جنوبا . وهو أمر يتعارض بداهة مع سابق الظن بوجود دولتهم فى الشمال وتأثرها المباشر بسطوة الأشوريين حتى عهد سينا خريب فى أوائل القرن السابع ق . م .

ولا يكفى فى هذا القول بأن الضغط الأشورى على طرق التجارة فى شمال شبه الجزيرة هـــو الذى اضطر السبأيين إلى النزوح إلى الجنوب . فالمصادر الأشورية لم تصور السبأيين كأعداء تعمل جيوشها على طردهم وحرمانهم من التجارة ، وإنما صورتهم مهادنين لملوكها تتوافر فيهم علامات الود والطاعة ، وإن أدوا الجزى إليهم أو أرسلوا هداياهم إلى بلاطهم .

وهكذا يبدو أقرب إلى الاحتمال أن السبأيين الشماليين المتصلين بدولة آشور كانوا مجرد جالية تجارية أقامت قرب تيماء ومنطقة الجوف الشمالى

كما رأت النظرية الثانية ، لترعى المصالح التجارية لدولتها على طرق القوافل ، وكانت تحس بسطوة الأشوريين فعلا لقربها منهم وترى من مصلحتها أن تنتفع من الاتجار معهم والاحتماء بهم ، ولم تجد بأساً من أن تقدم إلى ملوكهم هداياها بأسماء ملوك دولتها الجنوبية . كما أن الأشوريين لم يجدوا بأساً من ناحيتهم فى أن يروا طاعتها لهم تعبيراً عن طاعة دولتها الجنوبية لسلطانهم .

ثالثاً : ذكرت عبارة فى الإصحاح الأول من سفر أيوب فى التوراة أن لصوصاً سبأيين فتكوا برعاة أيوب ، وقال قائل : « البقر كانت تحرث ، والأتن ترعى بجانبها ؛ فسقط عليها السبأيون وأخذوها ، وضربوا الغلمان بحد السيف ، ونجوت أنا وحدى لأخبرك » . ولما كان أيوب فيما يحتمل من أهل الشمال أكثر من أهل الجنوب ، فإن ذلك قد عنى فى رأى هومل وأصحابه أن السبأيين كانوا يعيشون فى عهد أيوب قريباً من دياره فى شمال شبه الجزيرة وليس فى جنوبها ، وهو استنتاج طريف لولا أنه أقرب إلى أن ينطبق على بعض رجال الجالية السبأية الصغيرة التى أشرنا إليها ، دون دولة سبأ الغنية الكبيرة .

رابعاً : ذكرت عبارة أخرى من عبارات العهد القديم اسم سبأ إلى جانب اسم ددان . وكانت ددان هذه دولة شمالية قامت حول واحة العلا فى شمال الحجاز . وقد عنى ذلك عند هومل وأصحابه أن سبأ كانت بدورها قريبة منها فى الشمال وليست بعيدة عنها . وذلك استنتاج منطقى هو الآخر ، ولكن يمكن أن يرد عليه بما انتهينا إليه فى القرينة السابقة من حيث أنه أقرب إلى أن ينطبق على الجالية السبأية التى سكنت حول واحة تيماء إلى الشمال الشرقى من واحة العلا أو ددان .

وقبل أن ندع قرائن التوراة لا بأس من أن نشير إلى أنه لما كانت أسفار التوراة قد أقرت فى بعض قصصها الأخرى بالأمر الواقع من استقرار السبأيين فى الجنوب فى دولة سياسية كبيرة ، اتجه بعض الباحثين إلى القول بأن هذه القصص عندما تذكر « شبا » تعنى بها سبأ اليمن ، وعندما تذكر « سبأ »

تعنى بها السبأيين القاطنين فى الشمال ، وإن كان كتبة التوراة قد خلطوا بين التسميتين فى صحفهم ولم يراعوا هذه التفرقة كثيراً .

خامساً : سجل كبيران من حكام ددان أيضاً فى نص مشترك أنهما توجها بالشكر إلى أرباب معين (وكانت معين دولة جنوبية ارتبطت بها دولتهما بالولاء) على نجاة قافلة تجارية اضطرت إلى المرور فى مناطق شملتها الحروب ، وتعرضت خلال سيرها لهجوم سبأى (وخولانى) عليها . ورأى هومل أن الأخطار التى تعرضت لها هذه القافلة كانت فى شمال شبه الجزيرة العربية ، كما أضاف فلبى أنه ليس من المعقول أن يعمل السبأيون على نهب قافلة تجارية فى عهود نضجهم السياسى وإنما الأرجح فى رأيه أنهم كانوا لا يزالون يعيشون حينذاك على حال من البداوة .

ومرة أخرى يمكن التعقيب على هذا الاستنتاج بأنه إذا صح أن السبأيين الذين تعرضوا للقافلة المعينية كانوا من أهل الشمال فعلاً فإنه ليس هناك ما يحول دون اعتبارهم من أفراد الجالية السبأية الشمالية الصغيرة لا سيا وأن فشل هجومهم عليها يدل على قلتهم وبساطة شأنهم. ويمكن أن نتجاوز هنا عن أن قبائل خولان التى ذكرت مع المهاجمين السبأيين قد عاشت هى الأخرى على أطراف الجنوب ، وأن تاريخ نجاة القافلة متأخر عن تاريخ إنشاء دولة سبأ الجنوبية بأجيال كثيرة .

سادساً : جمعت بعض النصوص السبأية بين اسم سبأ واسم يقرأه هومل بهليح ويراه مرادفاً لاسم دقلة وأنه يدل على منطقة الجوف فى شمال شبه الجزيرة ، كما جمعت بينه وبين اسم يقرأه هومل أيضاً بيشان أو فيشان ويراه مرادفاً لاسم وادى الدواسر أحد أودية الشمال أو أودية الجنة على حد تعبيره .

غير أنه يبدو أن هذا الاستنتاج لا يزال هو الآخر قرين الظن إن لم يكن قرين الافتعال ، وكل ما يمكن قوله الآن هو أن اسم بهليح قد استعمل كذلك للدلالة على قبيلة عاشت حول صرواح أقدم عواصم سبأ فى الجنوب. وأن اسم

بيشان إن دل على وادى الدواسر أو وادى بيشة فهو أقرب إلى حافة الربع الخالى ، وإن دل على قبيلة فهى قبيلة عاشت حول صرواح أيضاً وانتسب إليها أوائل الحكام السبأيين .

سابعاً : يرى هومل أن اسم مأرب (أو مريب) الذى اشتهرت به عاصمة سبأ الجنوبية (بعد صرواح) ذو صلة بلفظ أريبى الذى أطلقه الأشوريون على أعراب شمال شبه الجزيرة وبادية الشام ، ولفظ يارب الذى أطلقته عليهم بعض نصوص التوراة ؛ وذلك مما يعنى فى رأيه أن السبأيين كانوا من الأقوام الشماليين الذين عناهم الأشوريون والعبرانيون ، فلما انتقلوا إلى الجنوب أطلقوه على عاصمتهم .

ولكن يلاحظ على هذا الاستنتاج أن السبأيين فى الجنوب لم يتخذوا مأرب عاصمة لهم منذ بداية أمرهم أى فى الوقت الذى كانوا يستطيعون أن يتذكروا فيه أصلهم ويخلدوا ذكره ، وإنما اتخذوا أولى عواصمهم فى صرواح قبل أن ينتقلوا إلى مأرب بعشرات السنين . وهم لم يصفوا أنفسهم صراحة فى نصوصهم المكتوبة بتسمية عرب أو أعراب المرادفة لتسمية أريبى الأشورية . بل ولم يستعملوها إلا فى عهود متأخرة نسبياً ليصفوا بها أعراب الجبال والوديان التابعين لدولتهم ، وذلك فى حدود ما هو معروف حتى الآن من نصوصهم .

ثامناً : نبه هومل وأصحابه إلى أن اللهجة السبأية هى أقرب اللهجات الجنوبية صلة بلغة القرآن العربية الشمالية . وفى ذلك قرينة لطيفة لا تنكر . لولا أن هذه الصلة تمكن أن تفسر من ناحية أخرى باستمرار النصوص السبأية الحميرية حتى عهد نزول القرآن الكريم أكثر مما عداها من بقية النصوص الجنوبية الأخرى ، وأن عامل الزمن كان له أثره فى التقريب بين لهجات عرب الجنوب ولهجات عرب الشمال نتيجة لاستمرار الصلات التجارية والحضارية والتنقلات القبلية بين الفريقين ، وذلك فضلا عن وحدة الأصل البعيد بينهما .

وعلى أية حال ، فقد تعمدنا الإسهاب فى مناقشة وجهات النظر المختلفة حول الأصول السبأية كنموذج لما يمكن أن تعالج به مشكلات التاريخ العربى القديم على أساس من أدب النقد ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وعدم التسليم برأى ما إلا بدليل يزكيه ، وعدم رفض رأى ما إلا بدليل يضعفه .

* * *

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

تكاتش ، ج . : سبأ - فى دائرة المعارف الإسلامية - ج ١٨ - ص ١٦٨ وما بعدها .

نيلسن و هومل وروودوكاناكيس وجروهمان . التاريخ العربى القديم - ١٩٢٧ - ترجمة فؤاد حسنين - القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦٣ - ٦٤ .

Abdel-Aziz Saleh, "The Gnbtyw of Thutmosis III's Annals and the South Arabian Gebbanitae of the Classical Writers", BIFAO, 1972, 245-262.

Eissfeldt, O., in CAH. II, 1965,593 and referencs.

Grohmann, A., Arabien, 1961.

Musil, A., The Northern Hegaz, 1926.

الفصل الرابع

عهود المكربين (أو المكارب) في سبأ

اصطبغت سلطة أوائل حكام دولة سبأ بصبغة ثيوقراطية أو دينية ، فتلقب كل منهم بلقب «مكرب» وهو لقب لايزال غير محدد النطق والدلالة ، وإن أمكن تفسيره احتمالا بمعنى «المقرِّب» للمعبودات ، أى من يشرف على توفير القرابين وتقديمها إلى معابدهم ، أو بمعنى «المقرَّب» بين شعبه وبين معبوداته باعتباره وسيطا مقدسا بينهما ، أو بمعنى «المقرَّب» إلى أربابه . وهو على أى وجه من هذه الوجوه يتولى رياسة الكهنوت فى دولته ويضمن إحاطة حكمة بقداسة روحية تكفل احترام الناس له وتدعوهم إلى تأييده . وتوافرت لهذه الصبغة الثيوقراطية سوابقها فى أمم شرقية قديمة ، فتلقب أوائل الحكام السومريين فى العراق ، على سبيل المثال ، بلقب « إنسى » أى النائب أو الوكيل ، إشارة إلى وكالته عن معبود مدينته فى حكم أهلها ، وإشارة إلى القداسة بالوكالة التى يرتكز عليها فى ممارسة سلطاته الدينية والمدنية . وتكررت نفس الظاهرة فى دول عربية جنوبية أخرى عاصرت السبأيين فى بعض مراحل تاريخهم . وكان منها أن تلقب أوائل الحكام فى دولة معين بلقب «مزود» ، وهو ما سوف نتناول مدلوله فى حينه .

ولازال الجدل التاريخى قائما فى شأن تحديد البداية الزمنية لعهود المكربين السبأيين (أو المكارب السبئيين). فبينما يلتزم باحثون بوضع عهد حاكمة سبأ المعاصرة لسليمان موضع الاعتبار وبدء قيام دولتها بالتالى بالقرن الحادى عشر ق. م. أو نحوه – يكتفى بعض الباحثين الآخرين بالإقتصار على عهود الحكام الذين سجلت النصوص القديمة أسماءهم ، ضاربين صفحا عن عهود ما قبل معرفةالكتابة فى سبأ ، ولايذهبون بتاريخ الدولة المؤكد بناء على ذلك

إلى أبعد من عهد «يثع أمر» السبئى الذى ذكره نص سرجون الثانى ملك آشور فى عام ٧١٥ أو عام ٧١٤ ق . م . ، وربما قبل ذلك بفترات قليلة .

وقام جدل تاريخى مماثل حول أعداد المكربين الذين أتوا بعد « يثع أمر » وسبقوا عهود الملكية الصريحة فى سبأ — فتراوحت النظريات فى تقدير عددهم بين ١٠ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٧ . ولكل نظرية مبرراتها بطبيعة الحال .

وترتب هذا الجدل وذاك على ماسبق أن أشرنا إليه من أن كتبة السبأيين وغيرهم من كتبة الدول الجنوبية لم يسجلوا الأحداث بتاريخ ثابت إلا فى عهود متأخرة ، ولم يلتزموا بتسجيل سنوات عهود حكامهم إلا فى عهود متأخرة أيضاً ، وفى حالات قليلة . ولم يتركوا قوائم ترتب أسماء حكامهم ومدد حكمهم واحدا بعد الآخر . وترتب على هذا كله أنه لم يعد فى الإمكان معرفة تتابع حاكمين إلا إذا ذكر نص صريح أن أحدهما أكمل عمل الآخر ، أو إذا ورد اسم حاكم وأبيه . بل إن الاعتماد على هذين الأساسين لايخلو من مخاطرة فى بعض أحواله ، فقد يكمل أحدهم عمل جده وليس عمل أبيه ، وقد يحكم بعد عمه وليس بعد أبيه ، وقد تتشابه أسماء الحكام وآبائهم فى فترات متباعدة . كما قد يحكم ابن مع أبيه فى وقت واحد ، أو أخ مع أخيه فى آن واحد . وهكذا لم يجد الباحثون بدا من ترتيب أسماء الحكام التى أتت الآثار بها ترتيبا اجتهاديا . وتقدير عهودهم تقديرا اصطلاحيا ، على أساس افتراض ما بين ١٥ أو ٢٠ أو ٢٥ عاما لكل منهم ، وعلى أفضل الفروض بالاستعانة بماورد عن بعضهم عن طريق المصادفة فى نصوص خارجية مؤرخة عاصرت عهودهم .

على أنه مهما يكن من أمر بداية عهود المكربين وعددهم . فإن أهم ماينسب إلى عهودهم هى آثار معابدهم الباقية ، وبداية مشروع سد مأرب . وعملهم على التوسع الخارجى فى المناطق الجنوبية المجاورة لهم .

اتخذ المكربون عاصمتهم الأولى فى مدينة توافرت لها بعض المقومات الضرورية للعواصم السياسية . وهى مدينة صرواح . فقد نشأت فى وادخصب شبه دائرى كفل لها مطالبها الزراعية وبعض مواردها الاقتصادية . وأحاطت

بها بعض المرتفعات فكفلت لها الحصانة الطبيعية . وتوسط موقع صرواح بين مدينتي مأرب وصنعاء الشهيرتين ، وتقوم على أطلالها الآن كل من قرية القصر وقرية الخربية ، ويظهر على سطح الأرض من عمائرها القديمة أطلال قليلة ، بينما بقيت أغلب آثارها تغطيها الأنقاض حتى الآن .

ويبدو أن الصبغة الدينية التي استعان المكربون بها في تدعيم حكمهم جعلتهم يولون اهتماما كبيرا لمعابد معبوداتهم . إظهارا لتقواهم الشخصية . وتأكيدا لصلتهم الروحية بهذ المعبودات . وعملا على كسب ولاء رجال الكهنوت وبعض المدنيين أيضاً عن طريق تخصيص المرتبات العينية لهم من عائدات هذه المعابد .

وينسب إلى عهود المكربين البدء فى إقامة أو توسيع عدة معابد قديمة نتخير منها أربعة جرى الكشف عن بعض أجزائها ، وهى : معبد فى صرواح ؛ وآخر فى صرواح أرحب (أو حجر أرحب) ، وثالث فى أوام ، ورابع فى المساجد . وكان هناك دون شك ما هو أكثر منها لولا أنه لم يكشف عنه بعد .

وحين نبحث أمر المعابد فى سبأ أو فى غيرها نبحثها على ثلاثة أسس ، وهى :

(أ) أن المؤرخ يستمد تاريخ الحضارات القديمة ويستنتجه من كل ما تركه أهلها فى عالم الفكر وعالم المادة .

(ب) ما سبق أن ذكرناه من أن الآثار القائمة للأمم القديمة تعتبر من أصدق الدلالات على مدى إمكاناتها الاقتصادية والصناعية والفنية ، فضلا عن دلالتها على معتقدات قومها الدينية .

(جـ) أن المعابد لاتزال أكثر ما بقى من آثار الأمم القديمة ، نتيجة لبناء أغلبها من الأحجار الصلبة ، ومحافظة القدماء عليها بالترميم والإضافة جيلا بعد جيل ، نظرا لما كانوا يفترضونه فيها من الحرمة والقداسة .

ومع هذه الأسس التي يجب تقديرها فى الدراسات التالية لا بأس من الاكتفاء

بالمعالم الرئيسية فى دراسة المعابد وغيرها من الآثار المعمارية والفنية ، دون ضرورة للالتزام هنا بالتفاصيل الدقيقة فيها ، ولابأس كذلك من التعقيب على العناصر الدينية فيها بما تختلف به عن العقائد الإسلامية ، كلما تطلب الأمر ذلك .

أنشىء معبد العاصمة صرواح الكبير لمعبود دولتها الأكبر الذى أطلق عليه اسم «إلمقه» ربما تعنى الإله المقتدر أو الآمر . أو الإله البهى أو الجميل . ودل لفظ « إل » أو « إيل » عند العرب الجنوبيين وعند شعوب سامية قديمة أخرى فى العراق والشام على معنى الإله . كما استخدم بنفس المعنى فى اللغة العربية الشمالية أيضاً فى مثل أسماء : اسماعيل وجبرائيل وميكائيل واسرائيل . . وهلم جرا .

وتأكيدا لقداسة أصلهم تلقب حكام سبأ بلقب « ولد إلمقه » أى أبناؤه . وخص السبأيون معبودهم الأكبر هذا بربوبية القمر واعتبروه « سيد وعول صرواح » بما يعنى تعدد المعبودات فيها إلى جانبه ورئاسته لهم . وقدسوا معه فى معبد العاصمة ربة باسم « حريمت » ربما كزوجة له ، وهى ترمز فى أغلب الظن إلى ربوبية الشمس . وهكذا توافرت للقمر عندهم وعند بقية عرب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام منزلة أكبر من منزلة الشمس ، على عكس شعوب الهلال الخصيب الزراعية ، ربما لانتفاع أهل شبه الجزيرة بالقمر فى مسرى القوافل وتوقيت الشهور ، مع شدة هجير الشمس وقسوتها لاسيما فى البيئات الصحراوية . وقد تعددت ألقاب هذين المعبودين بتعدد الصفات التى نسبها الناس إليهما واختلاف الأماكن التى عبدوهما فيها ، وكان شأنهما فى ذلك شأن بقية ما تخيله القدماء من معبودات نعقب على خصائصها كلما أدت مناسبة الحديث إلى ذكرها .

وتألفت العناصر المعمارية الظاهرة فى معبد « إلمقه » فى صرواح من جزئين ضخمين ، أحدهما مستطيل واسع ، والآخر يتصل به ويبدو على هيئة البيضاوى الناقص . وتضمن أحد نصوص المعبد اسم المكرب يدع إيل ذريح (حرفيا : يدع إل ذرح) وذكر أنه سور معبد «إلمقه» وقدم ثلاث

ذبائح لربته « حريمت » . ويميل أصحاب التأريخ المختصر إلى توقيت عهد هذا المكرب بنحو ٦٧٠ ق . م . — ويبدو أنه لم يشيد المعبد كله ولم يضع أساسه كله ، وإنما بدأ بتوسيع معبد صغير قديم لمعبود قومه وعمل على تسويره كما أشار إلى ذلك نصه ، وترك لخلفائه أن يزيدوه اتساعا وارتفاعا . ويدعو إلى الأخذ بهذا الرأى أمران ، وهما أن بقية نقوش المعبد تضمنت أسماء عدة مكربين وملوك سبأيين آخرين ، وأن مبانى المعبد الحالية التى ترتفع بعض جدرانها الباقية نحو عشرة أمتار تدل على مهارة كبيرة فى فن العمارة لم يكن من السهل على السبأيين أن يبلغوها فى أوائل عهودهم بالاستقرار وإقامة العمائر الضخمة . ولازالت الأجزاء الداخلية من المعبد لم تكتشف كشفا علميا منظما حتى الآن . ويبدو أن جزءا منه تحول إلى حصن فى العصور الاسلامية وزادت فيه حينذاك بعض المداخل والمخارج . بل ولازالت تقوم فوق جدرانه بعض المساكن الحالية التى غيرت إلى حد ما من خارطته الأصيلة .

وأنشىء معبد « معرب » فى قرية المساجد ببلاد مراد وعلى مبعدة ٢٧ كيلو متر من مأرب الحالية ، من أجل « إلمقه » أيضاً . وأتم نفس المكرب يدع إيل ذريح عمارته فى مناسبتين تحدثت عنهما نصوصه ، مناسبة قام فيها بتنظيمات اجتماعية ، وأخرى أحرز فيها انتصارات حربية . وذكر عن المناسبة الأولى أنه أسس كل الهيئات الخاصة بمعبوده ، والخاصة به شخصيا باعتباره حامى دولته ، ثم الخاصة بتحقيق الاتحاد والتحالف بين طوائف شعبه . ومعنى ذلك أن دولته الناشئة كانت بسبيل إقرار تنظيمات مستقرة تجرى عليها فى شئونها الدينية والدنيوية . وتخليداً لذكرى هذه الإنجازات أقيم الجـــزء الداخلى من المعبد وتألف من بهو أعمدة بقيت منها ثلاثة ؛ ويعقبه إلى الداخل فناء كبير تقوم فى وسطه مقصورة العبادة الرئيسية وتحمل سقفها أربعة أعمدة فى صفين ، بينما يتقدم المقصورة صفة ذات أعمدة . ويصل بين أعلى هذه الصفة وبين اعلى المقصورة سقف حجرى منحدر . ولا تزال هذه المجموعة المعمارية للمعبد تحتفظ بروعتها على الرغم مما لحق بها من تهدم .

أما المناسبة الحربية فقد أدت إلى توسيع رقعة الدولة بعد أن استولى يدع إيل ذريح بجيشه على منطقة يشقر ومزارعها . ولما كان يعتقد أن هـذا التوسع قد تم بتأييد إلمقه (وذات حميم وعثتر) عمل على توسيع مساحة المعبد أيضاً وإحاطته بسور مستطيل كبير بلغت أبعاده ١٠٤ × ٣٧ متراً . وتقدمت واجهة هذا السور صفة أخرى فخمة ذات ستة أعمدة مستطيلة المقطع بلغ ارتفاعها بين ٤.٥ و ٥ أمتار، أقيمت فوق رصيف حجرى ليضمن توازنها . وتألف كل عمود منها من حجر واحد . وأدت هذه الصفة الخارجية إلى المدخل الرئيسى للمعبد الذى حف به مدخلان جانبيان فتوفر له شكل مهيب . واتصل أعلى الصفة بأعلى المدخل بسقف حجرى منحدر. ولا ندرى هل كانت ظاهرة السقف المنحدر التى تكررت مرتين فى عمارة المعبد، ظاهرة عفوية نتيجة لاختلاف الارتفاعات، أم كانت ظاهرة مقصودة لتصريف مياه الأمطار من فوقها بسهولة .

وبنى المعبد الثالث المكتشف من عهود المكربين فى بلدة صرواح أرحب (أو حجر أرحب) ، من أجل عبادة « عثتر » الذى اعتبره العرب الجنوبيون ربا لنجم الشعرى وولدا لرب القمر وربة الشمس . وكان شأنهم فى هذا التعدد هو شأن أغلب أصحاب الديانات الوضعية القديمة ، ونعنى بها الديانات التى وضعها البشر ولم تكن مما أوحى به من السماء إلى الرسل والأنبياء ، وكانوا يتخيلون لكل ظاهرة طبيعية ربا يختص بها ، ويتخيلون لمعبوداتهم حياة تماثلها حياة البشر يتزاوجون فيها وينجبون . ويتآلفون فيها ويختصمون . وظل العـرب القدماء هكذا حتى ظهر الإسـلام فخلصهم من تعـدد المعبودات ووجههم إلى ديانة التوحيد وعبادة رب العالمين دون سواه . وبنى المعبد بتخطيط بسيط ولكنه لا يخلو من خصائص مميزة تمثلت فى تعدد المشكاوات وإدخال عنصر الزخرف على أجزائه المعمارية ولا سيما الأعمدة . فقد أقيم سور المعبد على هيئة مستطيل ينحرف قليلا عن الجهات الأصلية الأربعة . وقامت فى مؤخرة فنائه الداخلى المقصورة الرئيسية للعبادة ، وبنى أمامها حوض مربع متسع ، لعله كان يستخدم لماء التطهير .

وظهرت عناصر التجديد فى عمارة المعبد فى أنه تصدرت واجهته الخارجية مشكاة عليا تطل على الطريق . وتصدرت جداره الخلفى مشكاة عليا أيضاً تطل على فنائه . كما تصدرت الجدار الداخلى لمقصورة العبادة مشكاة ثالثة كبيرة تطل على المتعبدين فيها . ويبدو أنه كان يوضع فى كل مشكاة من هذه المشكاوات تمثال لصاحب المعبد . ثم تجديد زخرفى آخر . تمثل فى إقامة تسعة أعمدة مثمنة الأضلاع على الجوانب الخارجية لحوض ماءالتطهير الكبير . وإقامة تسعة أعمدة أخرى كل عمود منها ذو ١٦ ضلعاً داخل مقصورة العبادة الرئيسية . وكان لكل عمود منها تاج زخرفى فى أعلاه يضيق من أعلى إلى أسفل بما يشبه بعض العمائم اليمنية . وقد تهدمت الأعمدة ولم يتبق غير قواعدها وأجزاء من تيجانها .

وتكرر اسم المكرب يدع إيل ذريح ، الذى أولى اهتماماً خاصا للمعابد ضمن نصوص معبد ضخم آخر يقع إلى جنوب شرقى مأرب الحالية بنحوأربعة كيلو مترات . وهو معبد أطلق السبأيون عليه اسم بيت أوام أى معبدها على اعتبار أنه يعتبر بيتاً مقدساً للمعبود الأكبرفى البلد الذى يعبد فيه ، وخصصوه لإلمقه بعل أوام أى سيدها . وكانت منطقة أوام هذه ذات صلة بعشيرة مرثد السبأية التى انتسب إليها كثير من حكام سبأ . وأطلق المسلمون على المعبد تجاوزاً أو خطأ اسم محرم بلقيس تأثراً بما نشرته القصص عن هذهالسيدة . ويظهر السور الكبير للمعبد على هيئة بيضاوية تقريباً . ولا يزال داخله لم يكتشف بعضه . بينما اكتشفت بعثة أمريكية آثارية أجزاءه القريبة من مدخله فاظهرت بضعة عناصر معمارية راقية بنيت فى أغلب الظن بعد عهودالمكربين ولهذا نؤجل الحديث عنها إلى حين نبحث منشآت عصور الملكية فى سبأ .

ويكفى هنا مايستنتج من اتساع النشاط المعمارى فى عهود المكربين فى أكثر من مكان . وإذا لم يكن لدينا حتى الآن ما نقدمه من صور هذا النشاط غير المعابد . فإن المعابد لم تكن تقام فى مناطق مقفرة وإنما لابد أنه صحب قيامها نشاط أكبر فى توفير العمران السكانى والاقتصادى بقربها . وإذا كان مكرب واحد مثل يدع إيل ذريح قد أسعد الحظ ذكراه

بأن أبقى على نصوصه فى ثلاثة معابد على أقل تقدير لتكون شاهداً على اهتماماته الدينية والعمرانية والتنظيمية والحربية كما أسلفنا ، فالمرجح أن مكربين آخرين سبقوه وخلفوه كان لهم مثل نشاطه . وتحدثت بعض نصوصهم الباقية فعلا عما عملوا على تشييده فى عهودهم من معابد ، وإن لم يعثر على آثار معظمها حتى الآن . وأخيراً فقد كان اتجاه النشاط الإنشائى والدينى إلى قرب مدينة مأرب مبشرا بقرب انتقال الأهمية السياسية إليها واستغلال ماحولها . وقد أقيم فيها بالفعل أكبر مشروع بدأه السبأيون فى عهود المكربين وهو :

مشروع سد مأرب :

قامت مأرب عند ملتقى طرق تجارة القوافل القديمة الواردة من بيحان وحضرموت وموانى البحر العربى والبحر الأحمر الجنوبية ، فضمنت لنفسها موارد اقتصادية كبيرة من مكوس التجارة . وقامت فى الوقت نفسه عند النهاية الشمالية الشرقية لتل يمتد نحو نصف كيلو متر وبعرض يبلغ نحو ٣٥٠ مترا كفل لها بعض الحماية الطبيعية . كما أشرفت ، وهذا هو الأهم ، على وادى أذنة الكبير الذى عمل السبأيون على استغلاله فى الزراعة على نطاق واسع .

وغالباً ما كانت الأمطار الغزيرة تسقط على مرتفعات اليمن فى بعض مواسمها السنوية وتجرى على هيئة السيول العنيفة فى عدة وديان ينتهى بعضها إلى فتحة طبيعية كبيرة توسطت بين جانبى جبل بركانى مرتفع سمى جبل البلق ، وهو جبل يفصل بين الصحراء وبين مرتفعات اليمن فى منطقة مأرب ويسمى جانباه عند هذه الفتحة باسم جبل البلق الأوسط وجبل البلق الشمالى . ويبدو أن تسمية « البلق » كانت تعنى الحجر كما تعنى الفتحة أيضاً . وإن سميت هذه الفتحة الآن باسم « الضيقة » . ويتراوح اتساعها فى بعض أجزائها بين ٥٠٠ متر وبين ١٩٠ مترا ، بمتوسط للاتساع يبلغ ٢٣٠ مترا . وكانت السيول بعد أن تعبر هذه الفتحة تندفع إلى وادى أذنة (أو ذنة) الكبير فتتفرق فيه ، ولا تلبث حتى يضيع أغلبها فى التربة بغير فائدة .

واستهدف السبأيون (أو السبئيون) من إنشاء السد ثلاثة أغراص، وهي أن يقللوا من اندفاع السيول إلى وادى أذنة وما يمكن أن تؤدى إليه من بوار الزرع وتدمير القرى فى مواسم الأمطار العنيفة . وأن يحولوا دون ضياع أغلب مياه السيول فى جوف الأرض حين تتجاوزه . وأن يرفعوا مستوى مياه الرى عدة أمتار تسمح لها بأن تصل إلى المدرجات المرتفعة القابلة للزراعة على جانبى الوادى ، ثم توزيعها عن طريق فتحات جانبية يسهل التحكم فيها . وهكذا يميل المهندس ريتشارد بوين من دراساته لمشروعات السدود الجنوبية إلى تعديل الفكرة القديمة عن الغرض من السد وهى فكرة تخزين المياه خلفه فى بحيرة صناعية كبيرة أو نحوها وذلك لوجوده فى بيئة يمكن أن تتشرب أرضها المياه بسهولة .

وطبق بوين هذه الفكرة ، والعهدة عليه فيها بحكم تخصصه ، على سدود بيحان وغيرها من المناطق الجنوبية الأخرى . وكرر أن العرب الجنوبيين لم يعملوا قط على خزن المياه وراء السدود ولكنهم بنوها لكسر حدة السيول وتوزيعها على أكبر مساحة ممكنة . كما أشار إلى أن سدود الجنوب بنيت فى وديان جافة وليست عبر أنهار ، مع عدم توافر الخبرة لبنائها تحت الماء .

وأقدم من سجل اسمه من حكام سبأ على صخور سد مأرب مكرب يدعى سمهو عالى ينوف (حرفياً : سمه على ينف) . وهو مكرب يرد فلبى عهده إلى منتصف القرن السابع ق . م ، ويرده ألبرايت إلى القرن الخامس ق.م. (ويعتقد فيسمان بوجود مكربين اثنين حملا نفس الاسم وحكما فى هذين التاريخين) . وتخير المسئولون عن بناء السد منطقة تلى فم وادى أذنة وبمعنى آخر تلى مدخل فتحة جبل البلق نظراً لتحديدها النسبى . ولإمكان التحكم فيها ، وسهولة الاعتماد على جوانبها الحجرية البركانية الصلدة .

وبدأوا بتشييد جسر ضخم من الرديم تختلف الآراء فى تحديد امتداده الأصلى ، وكسوا واجهته بالأحجار فى مواجهة تيار الماء ، ثم أعيد بناؤه كله بعد ذلك بأحجار جيدة فى عهود تالية . وامتد هذا الجسر فى الجانب الأيمن

من اتساع الفتحة،وجعلوا له بوابة متسعة اعتمد أحد كتفيها عليه ، أى على الجسر أو الجدار من ناحية ، واعتمد كتفها الآخر على الجبل نفسه من ناحية أخرى . ووجه المشرفون على المشروع المياه بعد هذه البوابة إلى مجرى واسع ينتهى إلى حوض ضخم حددوا جوانبه بالحجر للحيلولة دون سرعة تهدمها أو تسرب المياه منها . وتركوا فى نهاية الجانب الأيمن منه فتحات مناسبة يسهل التحكم فيها لتصريف المقادير الضرورية من المياه لرى الجانب الأيمن من وادى أذنة عن طريق ترع تختلف أطوالها واتساعاتها واتجاهاتها . وأطلقت النصوص القديمة على مشروع عهد سمهو عالى ينوف اسم رحب ، أو رحاب ، أو رحابوم ، كما يقترح بعض اللغويين قراءته ، وهو اسم قد يعنى السد بمعناه الواسع . بينما أطلق اليمنيون المسلمون على بوابته اسم مربط الدم (أى مربط القط تأثرا بأسطورة عربية قديمة مستحيلة التصديق) .

وعدل مشروع السد وأكمل فى عهد المكرب « يثع أمر بيين » ابن حفيد سمهو عالى ينوف (الذى تسمى بمثل اسمه) منذ حوالى ٤٦٠ ق . م . وعمل رجاله على توفير مياه الرى للناحيةاليسرى من وادى أذنة كما توفرت للناحية اليمنى منه من قبل . فمدوا الجسر أو جدار السد فى عرض فتحة الجبل حتى نهايتها ناحية اليسار ، وأطلقوا على مشروعهم الجديد اسم (وادى) حبابض وتركوا فى نهايته بوابة ضخمة أخرى ذات فتحتين — وأجروا خلفها مثل ما تم خلف بوابة الجانب الأيمن ، فمدوا وراءها مجرى طويلا دعمت جوانبه بالحجر ، وانتهى إلى حوض واسع ذى فتحات تؤدى إلى عدة ترع للمياه تتوزع فى الناحية اليسرى المتسعة من وادى ذنة .

هذه صورة عامة لفكرة سد مأرب وبداية أجزائه — أما أبعاده الحالية فيفهم من وصف من اهتموا بدراسة مقاساته التفصيلية أن الارتفاع الحالى للجزء الباقى من جدار السد يبلغ ١١ مترا ، ويبلغ امتداده العرضى ١٢,٤٠ من الأمتار . ويبلغ عرض البوابة اليمنى ٤,٥٥ من الأمتار ، وامتداد ضلع الحوض الواقع خلفها ٧٨,٨٠ من الأمتار .

أما فى الناحية اليسرى وهى الأكبر فيمتد المجرى المائى الأساسى فيها

نحو ١١٦٠ مترا ، وتتفرع من الحوض الذى ينتهى إليه ١٤ ترعة يبلغ عرض الواحدة منها نحو ثلاثة أمتار . وقد فتحت فى أعلى الجانب الأيسر لسد حبابض أربع فتحات تساعد على تصريف المياه الزائدة عن المنسوب المطلوب ، وتؤدى إلى تخفيف ضغط المياه على جدار السد نفسه . وقد اتبعت فكرة الأهوسة فى الفتحات أو البوابات خلال مراحل التقدم المعمارى التالية . فشق فى الكتفين الجانبيين لكل بوابة تجويفان رأسيان يمتدان بارتفاعها لتنزلق فيهما كتل الأخشاب الصلبة حين يراد قفل البوابة . وترفع فيهما إلى أعلى حين فتحها . ولا تقل طرق البناء المتمثلة فيما بقى سليما من السد دلالة على براعة المعماريين ، فقد شيد فى عصور اكتماله من أحجار ضخمة قطعت من جبل البلق وثبتت فى مداميكها بمونة صلبة . وربط أحيانا بين بعض أحجارها وبعض آخر بقضبان من النحاس المنصهر والرصاص المنصهر رغبة فى زيادة ترابطها وتماسكها . (وقد يقارن لهذا استخدام ذى القرنين لمصهور الحديد والنحاس فى بناء سد دفاعى كبير — أنظر سورة الكهف ... آية ٩٦) .

والمرجح أن جانبى وادى أذنة اللذين انتفعا بمشروع سد مأرب هما اللذان عناهما القرآن الكريم بقوله : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . .) . ولا تزال آثار القرى التى انتفعت بالمجرى الأيمن لسد مأرب تدل على عمرانها القديم وإن تخربت الآن إلى حد كبير . ومنها مدينة النحاس وخرابة مروث ومحرم بلقيس والعمايد . وكانت مأرب أكثر انتفاعا بالمجرى الأيسر . وقد أطلقت النصوص على منطقته اسم يسرن .

والواقع أن روعة وضخامة سد مأرب بأجزائه كما سبق وصفها تدعوان إلى الشك فيما إذا كان قد بدأ هكذا منذ عهد منشئه سمهو عالى ينوف وعهد حفيده اليعيد يثع أمر بين ، أم أن شقى المشروع بدءا متواضعين فى عهديهما ثم زاد اتساعهما وارتفاعهما وتقويتهما فى عهود من تبعوهما من المكربين والملوك ، ولعل هذا الرأى الأخير هو الأرجح . فقد أصلحت جدران السد أكثر من مرة بعد أن تعرضت للتهدم نتيجة لتراكم الإرساب خلفها حينا ، وبتأثير عامل الزمن فى مبانيها حينا ، وشدة السيول حينا آخر . وسجل عدد من

الحكام السبأيين أخبار مرات الإصلاح التى تمت فى عهودهم . وكان من ذلك على سبيل المثال أن أعيد بناء الهويس الشمالى فى عهد الملكين ذمر عالى يهأبر وثأران بعد القرن الميلادى الأول . واتخذت الفتحات الشمالية للسد صورتها النهائية فى عهد الملك شمر يهرعش فى حوالى عام ٣٢٥ م . ثم جدد المبنى كله أو دعم فى عهد الملك شرحبيل يعفور فى عام ٤٤٩ م . كما أعيد إصلاح صدع فيه فى العام التالى أى عام ٤٥٠ م .

وتمت آخر إصلاحات السد فى عهد أبرهة ملك سبأ حوالى عام ٥٤٢ م وبذلت فيه حينذاك جهود ضخمة . بحيث ذكرت نصوص أبرهة أن رجاله قضوا فى ترميم السد أحد عشر شهرا . واستهلكوا ٥٠.٨٠٦ غراره من الدقيق . و ٢٦.٠٠٠ حمل من التمر . و ٣٠٠٠ بعير وثور . و ٢٠٧.٠٠٠ رأس من الغنم . وعلى الرغم من قيام ثورة ضده حينذاك فى منطقة مأرب وتفشى الوباء فيها . إلا أنه أقام حفلا كبيرا بمناسبة انتهاء العمل فى إصلاح السد . حضره وفد من الحبشة . ووفد من فارس ، ووفد من بيزنطة . ووفدان من الحيرة وغسان .

وعلى أية حال فقد استطاع السبأيون على امتداد عصور اهتمامهم بسد مأرب أن يتموا مشروعا كبيرا حق لهم أن يفخروا به بين المشاريع المائية الأخرى فى العالم القديم . وهى مشاريع كان من أقدم ما يمكن ترجيحه منها حتى الآن مشروع سد اللاهون فى مصر الذى شيد فى أوائل القرن الثامن عشر ق . م . لتوجيه جانب من فيضانات النيل إلى منخفض الفيوم لرفع مستوى المساء فيه حتى تنتفع به أكبر مساحة ممكنة من أراضى المدرجات الخصبة التى تحيط به . ثم الانتفاع ببعض مياهه لرى الأراضى القريبة منها فى غير أوقات الفيضان . وربما سبق مشروع هذا السد سد آخر فى منطقة الجيزة بمصر أيضاً أقيم حوالى القرن السادس والعشرين ق .م . ولكن استخدامه لم يعمر .

وظل سد مأرب يؤدى أغراضه حتى نهاية عهد أبرهة فى عام ٥٧١ م أى بعد عهد بداية إنشائه بأكثر من أحد عشر قرنا . ثم انهار أغلبه عام ٥٧٥ م بما وصفه القرآن الكريم ووصف نتائجه فى قوله : (فأعرضوا فأرسلنا

عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) — سورة سبأ — الآيات ١٥ — ١٨ .

وأقام السبأيون سدودا أخرى محلية فى عهود متفرقة فى المناطق التى تصلها مياه السيول بعيدا عن منطقة مأرب . ومنها سد يعرف باسم مبنى الحشرج لتنظيم مياه وادى السيلة ، ويتكون من ثلاثة جدران ضخمة يقال إن كلا منها يمتد ما بين ١٥٠ — ١٨٠ مترا ؛ وتوجد فتحات كثيرة طويلة بينها ؛ وعثر جلاسر على عشرة نقوش على صخورها .

ولم تغن السدود السبأيين عن دعوات الاستسقاء وطلب رحمة السماء من حين إلى حين . وتخلف من نصوصهم القديمة التى وجهوها إلى معبوداتهم نص من عصر المكربين لرجل قدم هداياه وأضاحيه إلى معبوده عثتر ذبيان ، وقال فى نهايته : « وسقى خرف ودثا سبأ وجوم شبعم » ، أى وسقى (الرب) خريفا وربيعا سبأ وجوما (سقاية) مشبعة .

واختلف اللغويون فى تفسير كلمة « جوم » فى هذا النص ؛ ففسرها بعضهم بمعنى الشعب أو بمعنى الحلف . وفسرها بعض آخر بمعنى النهر أو معنى السهل ، وفسرها بعض ثالث بأنها تعنى الأراضى المنخفضة من تهامة اليمن .

***

التوسع الحربى :

غالباً ما تترتب على المشروعات الداخلية الكبيرة فى الدول الفتية الناشئة مطالب ونتائج متنوعة يعبر الحكام عنها ويتولون رسم سياستها باسم شعبهم . فهى من ناحية تستدعى توفير الأمن لتنفيذها، وتستدعى العمل على تغطية نفقاتها سواء من موارد داخلية أو خارجية ، كما تستدعى فى الوقت نفسه العمل على حمايتها من الأخطار المتوقعة الداخلية منها أو الخارجية أيضاً . فإذا

تم تنفيذ هذه المشروعات وآتت ثمارها وزاد الدخل القومى منها غالبا مايرتفع شأن أصحابها فى نظر أنفسهم ونظر شعبهم ، وهنا إما أن تشجعهم شهرتهم على أن يستزيدوا من الرفاهة لأنفسهم ويخلدوا إلى النعيم . وإما أن تشجعهم على أن يستزيدوا من قوتهم العسكرية والسياسية ليزيدوا لأنفسهم عن طريقها ما يعتقدون أنهم يستحقونه من المجد والشهرة .

ومرت دولة سبأ بأمثال هذه الملابسات والظروف حين مهدت لمشروعات الرى الكبرى فيها وحين أتمتها . فقبيل البدء فى مشروع سد مأرب عملت دولة سبأ على الاستزادة من موارد اقتصادية جديدة ولو على حساب جيرانها ، كما أخذت تؤمن نفسها منهم . وكان أقرب هؤلاء الجيران إليها : دولة معين فى شمالها ودولة أوسان فى جنوبها الغربى . وكانت الأولى تنافسها فيما تأتى به تجارة البر ، وكانت الثانية تنافسها فيما تأتى به تجارة البحر . وبدأت دولة سبأ منذ عهد المكرب يدع إيل بين الذى يؤرخ أصحاب التاريخ المختصر عهده ببداية القرن السادس ق . م . تقص أطراف دولة معين القريبة منها . ويفهم من نصوصه أنه عمل على تسوير مدن الحدود وتقوية أبراجها ليتخذها جيشه مراكز دفاعية أو هجومية فى الوقت المناسب . ويحتمل من نفس النصوص أن مدنا حدودية معينية الأصل دخلت فعلا فى حوزة دولته مثل نشق ودابر (فى جنوب منطقة الجوف) ، ثم أعاد رجاله تحصينها لنفس الأغراض الدفاعية والهجومية السابقة .

وجرى خلفاء هذا المكرب على سياسته وعملوا على توسيع المدن الحدودية ومنها المدن المعينية التى دخلت فى طاعة دولتهم . وأسكنوا فيها جماعات من السبأيين لينتفعوا بها ، ويكونوا رقباء على أهلها ، وسندا لدولتهم فيها . وكان من ذلك أن زيد اتساع مدينة نشق ٦٠ شوحطا فى عهد المكرب كرب إيل بين (فى حوالى عام ٥٦٠ ق .م .) — ثم زاد اتساعها مرة أخرى وأصلح ماحولها وأوقفت على مصلحة السبأيين فى عهد ولده ذمر على وتر (منذ حوالى عام ٥٣٥ ق .م .) .

وانتفعت الدولة بحالة الأمن والرخاء التى وفرتها هذه الإنجازات وأمثالها ومضت فى تنفيذ مشروع سد مأرب الكبير . وما أن تم تنفيذ مراحله

فى عهد يثع أمر بيين حتى التفتت إلى توسيع الحدود وإرهاب الجيران مرة أخرى . فقد واصل هذا المكرب العمل على تسوير المدن وتجديد الحصون وروت نصوص عهده أنه هاجم (والأصح أن جيشه هاجم) مدن معين حتى منطقة نجران . ودمر بعضها وأحرق قراها وقتل منها الألوف وسبى الألوف . وروت نفس النصوص أنه (أو جيشه) انذار على دولة قتبان التى تجاور دولته من الجنوب وأنزل بمدنها دمارا مماثلا . ويلاحظ هنا أننا وإن سلمنا باتجاه النشاط الحربى لدولة سبأ إلى هذه الاتجاهات إلا أننا حرصنا على أن نقول وروت نصوص الملك السبأى كذا أو ادعت كذا للاشارة إلى أننا غير ملزمين بالضرورة بأن نسلم بحرفية ماورد فيها عن ألوف القتلى وألوف الأسرى وتوالى الانتصارات دائما لصالح أصحابها . ذلك ان المبالغات فى تقارير الحروب أمر مألوف فى العصور القديمة بل والعصور الحديثة أيضاً . وهو ما سنضعه دائما فى الحسبان فى مناسبات أخرى تالية .

وبعد جيلين أو نحوهما نشطت سبأ إلى حرب توسعية اخرى فى عهد آخر مكربيها كرب إيل وتر (الثانى) . وكان داهية فى الحرب والسياسة . ويفهم من نصوص عهده أنه هادن دولة قتبان ودولة حضرموت ليتفرغ لحربه مع دولة معين . وضمن حيادهما مرة أخرى ليحمى ظهره فى حربه مع دولة أوسان . وبدأ فاتجه بأطماعه إلى دولة معين ليستغل ما أنزلته الجيوش السبأية من قبل فى نفوس اهل مدنها من الرعب وما صاروا إليه على أيامه من تفرق الكلمة وما لجا إليه بعض أمرائهم من إعلان استقلالهم الذاتى عن جسم دولتهم ، وهاجمها ببعض جيوشه . وعندما اتجه إلى دولة أوسان استمال إليه بعض حلفائها وأتباعها ليضعفها ويحرمها من معونتهم . ثم انحط عليها بقواته . وهكذا أخذت الجيوش السبأية تضرب هنا وهناك وتخرب وتحرق المدن والقرى بضراوة ثم اتجهت شمالا لتكمل سيطرتها على منطقة الجوف ومنطقة نجران . وهنا ادعت نصوص كرب إيل وتر سيطرته على الألوف من الأسرى وقضاءه على الألوف من الجنود مما سنعود إلى ذكره حين نعالج تاريخ كل من الدولتين معين وأوسان فى تفصيل . وتكفى الإشارة هنا إلى ماعقبت به نصوص ذلك

المكرب المنتصر من أنه أعاد توزيع الأقاليم التي خضعت له . فاحتجز بعضها لنفسه : وخصص بعضها لمعبوده الأكبر «إلمقه» . وأقطع بعضها للقبائل الموالية له ولاسيما قبيلته التي كانت تسمى فيشان أو بيشان . كما تنازل عن بعضها لدولتي قتبان وحضرموت مكافأة لهما على حيادهما خلال حروبه الطويلة مع خصومه ؛ وتعويضا لهما عن سبق اعتداء أوسان على حدودهما .

وعندما اطمأن كرب إيل وتر إلى سلامة مركزه شجعته انتصاراته على أن يصبغ حكمه بالصبغة المدنية علانية إلى جانب قداسته الروحية . فأعلن نفسه ملكا . وادعى في نصوصه أن ربه إلمقه هو الذي تخيره ملكا أو صيره ملكا وأيده في مشروعاته . وسجل أخبار انتصاراته (عن طريق كتبته) في نص كبير في المعبد الأكبر بالعاصمة القديمة صرواح . ومن تصاريف الأقدار أن نص النصر الكبير هذا قد آل مصيره إلى التلف والمهانة في بداية العصر الحاضر بعد أن أطل وجه الحجر الذي نقش عليه على حظيرة للماشية وأطل وجهه الآخر على طريق السابلة ليعبث الصغار فيه ما شاءت لهم رغبة العبث .

وكما كان كرب إيل وتر خاتمة لعهود المكربين أصبح بداية لعهود جديدة في تاريخ دولته وهي عهود الملكية السبأية التي يبدؤها أصحاب التاريخ المختصر بحوالى عام ٤١٠ ق . م . (بينما كان أصحاب التاريخ المطول يبدأونها بحوالى عام ٦٣٠ ق . م .) .

وقبل أن ندع عهود الكربين نود الإشارة إلى نظرية جديدة خرج بها الباحث A. G. Loundine منذ عام ١٩٥٦ . ولم تستقر صحتها تماما حتى الآن . ومفادها أن السبأيين وإن لم يؤرخوا نصوصهم بسنوات حكم المكربين ولم يدرجوا أسماء أولئك المكربين في قوائم متصلة . مما أدى إلى الاختلاف الواسع في تأريخ عهودهم كما أسلفنا من قبل ؛ إلا أن التنظيمات السبأية جعلت إلى جانب المكرب موظفا كبيرا بلقب « رشو » ربما بمعنى الكاهن النائب ، ليؤرخ الناس باسمه في فترة نيابته التي تسمى « رشوة » أو رشاوة ، وكان يلي

الكهانة لمعبود قومه «عثتر» بالوراثة ولداً عن والد فى أكبر عشيرة فى الدولة بعد عشيرة الملك (وهى عشيرة حزفر من قبيلة خليل) — ويشرف إلى جانب كهانته على مشروعات الرى والزراعة بخاصة . وربما لم تكن لنيابته فترة محدودة فى عهود المكربين ولكنها أصبحت محددة بست أو سبع سنوات فى عهود الملكية كما سنعود إلى ذلك فيما بعد ، وقد يحمل مع لقبه الخاص لقب « مود » أى صديق إشارة إلى الصلة أو المودة بينه وبين مكرب دولته .

***

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم — القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٥٩ — ١٨٥ .

جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام — بيروت ١٩٦٨ — ج ٢ — مادة سبأ .

نيلسن ، وهومل ، ورودوكاناكيس ، وجروهمان : المرجع السابق — ص ٧٥ — ٨٧ ، ٢٨٩ — ٢٩٢ .

Bowen, R. Jr.. Albright, W. F. and Others, Archaeological Discoveries in South Arabia. I, Baltimore. 1958, 70—75.

Philby, H.J.B.. The Background of Islam, Alexandria. 1947; 32—41.

Phillips, W., Qataban and Sheba. New York 1955.

Shahid. I. Pre-Islamic Arabia. C H I. Cambridge 1970.

الفصل الخامس

دولة قتبـــان

أ ـ التكوين السياسى :

قامت دولة قتبان (ق ت ب ن) إلى الجنوب من دولة سبأ وتضمنت وادى بيحان ووادى حريب وما يشغل جزءاً من اليمن وجزءاً من عدن الحاليين . وعاصر كيانها السياسى فى بعض عهوده بقية الدول العربية الجنوبية ، سبأ وحضرموت ومعين وأوسان . وتراوحت آراء الباحثين فى تعيين بداية هذا الكيان القتبانى السياسى بما بين منتصف القرن التاسع ق . م . وبين القرن السابع ق .م ولكن الوجود الاجتماعى والنشاط الاقتصادى لجماعات القتبانيين قد رجحنا (فى ص ٤١ ـ ٤٣) إرجاعه إلى ما قبل ذلك بعدة قرون ، حينما دللنا على قيام التبادل التجارى بين الجنبتين القتبانيين وبين مصر القديمة فى عهد الملك تحوتمس الثالث خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد . ووجد هذا الدليل المصرى القديم أدلة أخرى تقاربه فى نتائج أبحاث بعثة أثرية أمريكية حديثا فى قتبان . فقد عثر الباحثان ألبرت جام وفرانك ألبرايت A. Jamme and F. P. Albright على مخربشات قتبانية (أى نصوص قصيرة غير متقنة) فى هجر بن حميد ووادى فرع اتجهت بعض سطورها من اليسار إلى اليمين مما يعنى فى رأيهما قدم عهدها ، كما تعرفا فيها على أشكال حروف هجائية أرجعا أسلوب كتابتها إلى حوالى القرن العاشر ق . م . واعتبارها من حيث الشكل بقية من مرحلة التحول من الخط الكنعانى القديم الذى يحتمل أن نقله بعض العرب عن جنوب الشام إلى خط آخر تميزت به النصوص الجنوبية وهو الخط المسند . وأضاف جام عن بدائية أشكال هذه الحروف أن رسمها لم يلتزم باتجاه ثابت ، فبعضها يميل يميناً وبعضها يميل يساراً ، وبعضها مقلوب وبعضها رسم على جانبه ، وكان تعدد الاتجاهات فى رسم الحروف من مظاهر المرحلة الأولية فى الأبجدية الكنعانية فى الشام حتى

القرن الثانى عشر ق . م . وزكى فان بيك وآخرون هذا الوجود القتبانى القديم من ناحية أخرى بدراسة تتابع الفخار فى مستويات العمران فى هجر بن حميد، حيث أرجعوا أنواع الفخار فى أقدم مستويات هذه البلدة إلى مايدور حول القرن الحادى عشر والقرن العاشر ق . م . وزاد وندل فيليبس على هذا فافترض من ملاحظة مستويات أطلال المبانى فى المدن القتبانية احتمال بناء بعضها فى أواسط الألف الثانى ق . م .

ومع هذا القدم النسبى للكيان القتبانى — ونعنى بالنسبية هنا ما يتعلق بالجنوب العربى : وهو أحدث بطبيعة الحال فى تكويناته السياسية كثيرا عن دول الهلال الخصيب الكبيرة القديمة — فقد لاحظ بعض اللغويين أن اللهجة القتبانية وإن بدت أقرب إلى لهجات حضرموت ومعين منها إلى اللهجة السبأية ، إلا أن أسلوب الكتابة القتبانية الرسمية وأسلوب تركيب أسماء وألقاب الحكام الكبار فيها ظلا أقرب إلى أمثالهما فى دولة سبأ. ومن التفسيرات المحتملة هاتين الظاهرتين أن أقواما من الحضارمة والمعينيين كانوا يشاركون القتبانيين أصلهم القبلى . أو كانوا يشاركونهم أرضهم فى عصور قديمة . ولكن هذه الأرض خضعت فى فترة ما لنفوذ سبأى سياسى وانتقل إليها ماكان شائعا فى سبأ من أسلوب الكتابة الرسمية وطريقة تركيب أسماء (أو ألقاب) الحكام. وإذا صح الشطر الأول من هذا التفسير كان فيه ما يزكى ما سبقت الإشارة إليه من أن الجماعات العربية القديمة فى الجنوب وفى الشمال كذلك ظلت لفترات قديمة طويلة لاتلتزم بحدود إقليمية أو قومية قاطعة فيما بينها من قبل أن تقوم فيها الدول السياسية واضحة المعالم والحدود .

وبدأ الحكم فى دولة قتبان بنفس الصبغة الثيوقراطية أو الدينية التى بدأ بها فى بقية الدول العربية الجنوبية . فتلقب أوائل حكامها الكبار منذ القرن السابع ق . م . (فى عرف أصحاب التاريخ المختصر) بلقب «مكرب» وهو لقب تناولنا مدلولات مثيله من قبل فى سياق الحديث عن حكام سبأ . ومنذ نهاية القرن الخامس ق . م . أو بداية القرن الرابع ق . م . فيما يرى ألبرايت غلب الحكام القتبانيون الصبغة المدنية والسياسية فى حكمهم وتلقبوا بألقاب

الملوك . وليس من المستبعد أن ذلك التحول قد ارتبط فى حينه بنصر سياسى أو حربى رفع من شأن الحاكم القتبانى فى نظر نفسه ونظر شعبه وجعله يعتبر نفسه لايقل مكانة عن ملوك سبأ الذين سبقوا فى التحول إلى نظام الملكية ، لاسيا بعد أن خف الضغط الذى فرضته هذه الدولة على جيرانها فى عهد ملكها الداهية كرب إيل وتر .

ويبدو أن قتبان قد استفادت من وضع كانت قد سمحت لها به دولة سبأ المعتزة بقوتها . ثم استغلته هى لمصلحتها. فقد مر بنا أن كرب إيل وتر منشىء نظام الملكية فى سبأ أقطع قتبان بعض الأراضى التى استولت جيوشه عليها من دولة أوسان مكافأة لها على التزامها بموقف الحياد خلال حروبه ، وهو مطمئن إلى بقائها موالية له . وكانت هذه الأراضى الأوسانية الأصل تطل على ساحل البحر الأحمر وتنتفع من موارده التجارية ؛ ولهذا عملت قتبان على تدعيم سلطانها عليها وتوسيع رقعتها لمصلحتها .

ومع منطقية هذين السببين السياسى منهما والتوسعى للتحول إلى الملكية فى قتبان ، لابأس من تقدير عوامل أخرى داخلية غالبا ماتتماثل نتائجها فى نظم الحكم الثيوقراطية الأصل . ذلك أن تجارب التاريخ أوضحت أن الصبغة الثيوقراطية فى الحكم أشبه بسلاح ذى حدين : فهى وإن ضمنت القداسة للحاكم الأعلى وكفلت له الولاء الروحى من شعبه . إلا أنها كانت تخلق أمامه على مر الزمن منافسين من كبار رجال الكهنوت الذين يشاركونه السلطة باسم الدين ؛ وحينذاك يرى من مصلحته أن يرتفع عن مستوى رياسة الكهنوت إلى مستوى الملكية ذات السلطات الشاملة .

وعلى أية حال . فإن التحول نحو الملكية فى قتبان لم يمنع بعض ملوكها من العودة إلى التلقب بلقب المكرب بين حين وآخر تأكيدا لصفتهم الدينية ولا سيا فى أوقات الأزمات (وقد تلقب به الملك يدع أب ذبيان فى القرن الثانى ق . م . ؛ وكذا الملك شهر يجل يهرجب) ؛ ولم يقلل من استمساكهم بالألقاب التى أكدت صلتهم المباشرة بمعبوداتهم والتى كان منها ما يعتبر الملك ولد (المعبود) عم . والابن البكر (لكل من) أنباى وحوكم .

واستمر الحكم الأعلى وراثيا فى الأسر المالكة فى قتبان يتولى العرش فيه الابن بعد أبيه ، أو الأخ بعد أخيه إن لم يكن له ولد يخلفه . وربما اشترك ولى العهد مع الملك الحاكم بعد أن تتقدم به السن كى يأخذ عنه خبرته ويمارسها بصورة عملية ، ويؤيد حقه الوراثى عن طريق هذا الاشتراك ويضمن عدم منافسة إخوته له فيه بعد موت أبيه ، وحينذاك تصدر المراسيم باسمى الحاكمين الشريكين معا . ولم يكن الوطن القتبانى أقل منزلة عند أهله من مقدساتهم الدينية ، فإلى جانب القسم الرسمى بأسماء المعبودات لاسيما عم وأنباى ، وباسم الملك الحاكم ، كان يقسم كذلك باسم قتبان .

وفى ظل الملكية قام فى قتبان مجلس للأعيان من شيوخ القبائل وكبار الموظفين أطلق عليه اسم (م س د) أو «مسود» ، ووجد له شبيه بنفس الاسم فى دولة معين ، ولاندرى أيهما سبق الآخر . وجرت العادة على أن يجتمع هذا المجلس فى العاصمة « تمنع » بدعوة من الملك ، ربما لمرتين على الأقل فى كل عام ، للنظر فيما يعرض عليه من شئون الضرائب والمنشآت العامة ، وللمداولة فى أمور الحرب والسلم . وإصدار العفو الكلى أو العفو الجزئى فى القضايا الكبيرة . ويتعرف الملك على نتائج قرارات المجلس فإن أقرها صيغت على هيئة مراسيم وأعلنها باسمه . أو وقعها معه رئيس مجلس المسود . وربما وقعها كذلك فى بعض الأحوال كبار رجال المجلس بأسمائهم مشفوعة بأسماء عشائرهم أو قبائلهم . وهكذا توافرت لمجلس المسود القتبانى صفات متعددة : فهو مجلس ملكى يجتمع بأمر الملك وينفض بأمره ، وهو مجلس استشارى يحق للملك أن يقبل اقتراحاته أو يرفضها ، ثم هو فى الوقت نفسه مجلس للدولة يضم كبار أعيان قبائلها وأقاليمها ويبحث فى مصالحها . كما أنه مجلس تشريعى يصوغ القوانين والملك عليها بعد موافقة ثم يوقع رئيسه عليها وربما وقع أعضاؤه الكبار عليها كذلك بعد توقيع الملك عليها .

وعلى الرغم من صدور المراسيم باسم الملك القتبانى الحاكم إلا أنها لم تكن تؤرخ بسنوات حكمه ، وإنما تؤرخ بعام رياسة رئيس مجلس المسود . ويبدو أن هذه كانت رياسة دورية يتعاقب عليها كبار أعضاء المجلس لفترات

محدودة قد تقتصر على عام أو عامين لكل منهم ، وقد تزيد عن العامين في أحوال استثنائية يتجدد فيها اختيار الرئيس أكثر من مرة لسبب أو لآخر

وكانت الأوامر أو المراسيم الملكية تنقش على مدخل العاصمة « تمنع » أحيانا ، وتنقش على نصب تقام في السوق الرئيسية وفي المعابد . وتخدم بذلك أغراضاً شتى منها توفير العلنية للمراسيم ،وتخليدها لذكرى الملك الحاكم الذى صدرت باسمه ، ولتظل مرجعاً لما يعقبها من عهود وقوانين . ويضاف إلى هذه الأغراض فيما يختص بنقشها على نصب المعابد أن من المعابد ما كان لها موضعها المتوسط داخل المدن ، ويتردد عليها كثير ممن يعرفون القراءة ، فضلا عما توحي به من وضع الأوامر الملكية تحت رعاية أربابها ، وإشعار الناس أن هؤلاء الأرباب شركاء فيها ، لا سيما إذا تناولت حقوقاً مفروضة للمعابد ومنشآتها وكهنتها . وليس ما يمنع بعد هذا من افتراض وجود منادين يعلنون مضمون هذه الأوامر والمراسيم شفاهة في الأحياء والأقاليم والقبائل باسم الملك الحاكم .

ومن أهم ما تضمنته نقوش البوابة الجنوبية للعاصمة تمنع . والتي يحتمل تسميتها بوابة « ذو سدان » . بقايا نص لتشريع صدر في عهد الملك يدع أب ذبيان بن شهر في بداية القرن الثاني ق . م . وفيه ما يقضي على القاتل القتباني بالحرمان (من الحقوق المدنية أو الدينية) بحكم خروجه على القانون ، فإن تجاهل مقتضيات هذا الحكم . وأصر على البقاء في قتبان أباح الملك دمه ، دون أن تترتب على قاتله عقوبة أو ملامة .

ب — في الحياة الاقتصادية :

اعتمدت اقتصاديات قتبان وسلطة حكامها على ما اعتمدت عليه أغلب الدول العربية الجنوبية . من التجارة الداخلية والتجارة الخارجية ، وتنمية الثروة الزراعية والصناعية . وربما الثروة الرعوية أيضاً . ثم الاستفادة في الوقت نفسه من تحصيل المكوس والضرائب على هذه وتلك . ووجدت مسلة حجرية صغيرة داخل العاصمة تمنع نقشت عليها بعض تنظيمات التجارة الداخلية والضرائب في عهد الملك شهر هلال بن يدع أب ، وهدفت إلى ضمان حقوق

الدولة فى ضرائب التجارة ، وحماية مصالح المواطنين التجار والمستهلكين ، وتركيز تجارة العاصمة فى سوق شمر ، وإلزام التجار الأغراب بتبليغ الدولة عن شئون تجارتهم سواء للإذن بممارستها أو لتقدير الضرائب عليها .

وجاء فى هذا المرسوم على سبيل المثال أنه « أيما تاجر فى تمنع أوفى برم ، مهما كانت تجارته . يجب أن يدفع ضريبة فى تمنع ليكون له دكانه فى (سوق) شمر . وهذا حق (وواجب) لكل تاجر أياما كانت قبيلته . فإذا أسس دكانه أصبح له الحق فى أن يتاجر وحده أو يشارك غيره ، دون اعتراض من مدير شمر . وإذا سمح مدير شمر للتجار القتبانيين بأن يتجولوا بين القبائل للتجارة وأعلن ذلك أصبح حقاً لهم .

فإذا أخطروه بأن أجنبياً نافسهم فى هذه التجارة أو خدع أحدهم ، غرم هذا الأجنبى خمسين وزنة ذهبية .

ومن أدى ضريبة سوق تمنع ليتاجر فيها ، فتاجر مع قبيلة أخرى ، فقد حقه فى ممارسة هذه التجارة ، وذلك حفاظاً على حق القتبانيين الذى خصصه الملك .

وإذا أجر مواطن داره أو مختنا (؟) لتاجر أصبح ملزماً بأداء ضريبة السوق فى تمنع إلى الملك : من تجارة (المستأجر) وما تغله : فإن لم تكف دفعها مما يملكه ومن كسبه الخاص .

وإذا باع شخص تجارة جملة ، وكان ينبغى أن تباع فى سوق شمر ، وجب أن يجرى بيعها بالتجزئة عن طريق وسطاء قتبانيين .

وإذا دخل تاجر سوق شمر بتجارة يود أن يبيعها ليلا ، وجب على الناس أن ينفضوا من حوله حتى يطلع النهار .

وانتهى المرسوم بالنص على أن للملك حق السيادة على كل معاملة وكل تجارة تجرى فى منطقته — وهذا أمر ينبغى على كل ملك (تال) أن يؤيده » .

ويبدو أن ما يستخرج حتى الآن من كميات الملح من نهاية وادى بيحان ، وعلى أعماق مختلفة فيه ، ثم يصدر بعضه إلى مناطق أخرى من الجنوب العربى ، كان يمثل موردا اقتصاديا له اعتباره كذلك فى العصور القديمة .

ومن أجل خدمة وتشجيع قوافل التجارة الخارجية أو تجارة المرور (الترانسيت) لا سيما فيما يختص بالبخور بأنواعه ومشتقاته . ومن أجل إحكام الإشراف عليها فى الوقت نفسه . مد القتبانيون الطرق البرية ومهدوها . ومن أهمها طريق ممر مباقة (العقبة) الذى بذل فيه مجهود بارع بالنسبة لعصره وبيئته ليصل عبر الجبال بين وادى بيحان ووادى حريب . وتعبره القوافل المتجهة من عدن إلى نواحى مأرب فى سبأ . عبر الأراضى القتبانية . وقد مهدت أرضيته بالأحجار باتساع يتراوح بين أربعة وخمسة أمتار . وامتد نحو ثلاثة أميال بين ارتفاع وانخفاض بانحناءات كثيرة فى أجزاء شقتها الطبيعة وأجزاء أخرى مهدتها يد الإنسان على مدرجات جبلية تحمى جوانبها جدران منحوتة أو مبنية . وأقيم على كل من طرفى هذا الطريق الطويل حوض للماء لخدمة القوافل وسقاية الإبل . ووردت ثلاثة نصوص من عهد الملك يدع أب ذبيان بن شهر تحدثت عن تعبيده فى أيامه . ولوحظ أن هذا المجهود كان يمكن توفيره باستخدام طريق سهلى آخر يمتد من غرب العاصمة تمنع رأساً إلى وادى حريب . لولا حرص القتبانيين على التحكم فى التجارة التى تمر فى منطقتهم ورغبتهم فى إطالة مسالكها داخل أرضهم ليحصلوا أكبر نسبة من المكوس عليها . ونظراً للأهمية الاقتصادية لهذا الطريق نشأت بعض البلدان حوله . ومنها ذوغيلان (حصن الخضيرى) عند مدخله . وبجوارها هجر بن حميد على جانبه الشرقى . وحنو الزرير على جانبه الغربى . ولعلها قامت فى بداية أمرها كمحطات للقوافل ومراكز لتحصيل المكوس ثم اتسع عمرانها .

ومهد القتبانيون طريقاً آخر فى ممر نجد مرقد على الحافة الصحراوية بين وادى بيحان ووادى حريب أيضاً . ورصفوه . وتمر القوافل خلاله بين جدارين يبلغ سمك الواحد منهما نحو المتر — وقام فيه مركز لتحصيل المكوس من قوافل التجارة المتجهة إلى حريب التى تبعد عنه بنحو خمسة أميال . أو الخارجة منها فى اتجاهها إلى بيحان والعاصمة تمنع .

وتوفر للاستثمار الزراعى دور كبير آخر فى اقتصاديات قتبان ؛ ولا سيما فى سهلى بيحان وحريب . وبدأت مشروعات الرى فى وادى بيحان منذ

القرن الخامس ق . م . وهو واد كبير ينحدر من المرتفعات الجنوبية ناحية الشمال التقريبي ويبلغ متوسط اتساعه بين ثلاثة وأربعة كيلو مترات ، وإن زاد عن ذلك كثيراً أو قل عنه في بعض أجزائه . وفي انحداره تتعاقب على جانبيه تكوينات بركانية من الشست والكوارتز . ثم لا تلبث هذه التكوينات حتى تختفي تحت رملة السبعتين الصحراوية الضخمة . وقامت على البداية الشمالية للوادي مدينة تمنع عاصمة قتبان . كما قامت على بدايته الجنوبية حاضرة أخرى تعرف الآن باسم بيحان القصاب ولا زالت أغلب آثارها لم تكتشف بعد .

وعادة ما كانت مياه الأمطار الموسمية تصل إلى وادي بيحان على هيئة السيول فتملأ مجراه الذي يمتد نحو ٦٥ كيلو متر بعد أن يترك الجبال . وباتساع يتراوح بين مائة ومائتي متر عرضا . وقد تنقطع هذه السيول لعدة سنوات ، وتتشرب الأرض الرملية جانباً منها — ولكن مواسمها وسيولها القديمة أرسبت على مدرجات الوادي مع توالي الأزمنة طبقات كثيفة من الطمي تراوح عمقها في بعض مواضعها بين ١٥ وبين ١٨ مترا .

ولا ندري هل استفاد القتبانيون خبرة ما من نتائج مشروعات الري في أراضي جارتهم سبأ وقلدوها أم لا . ولكن الدلائل تشير إلى أنهم أحسنوا استغلال أوضاع واديهم فأنشأوا فيه شبكة مائية ضخمة . يفهم من وصف المتخصصين لها أن مجاري المياه الرئيسية منها ، والتي تتلقى معينها من سيول الأمطار الموسمية . امتدت كيلو مترات طويلة وبلغ اتساع بعضها نحو ٤٠ مترا وارتفعت عن مستوى الأراضي الزراعية بنحو أربعة أمتار ولهذا بنيت فيها أهوسة ساعدت على نقل مياه الري من المجاري المرتفعة إلى أهوسة أخرى فرعية منخفضة في مستوى الحقول . حيث تتوزع منها على قنوات كثيرة صغيرة . وكانت سرعة توزيع المياه على هذه الفروع الصغيرة مما يضمن الاستفادة بها . وعادة ما كسيت منحنيات الترع بمداميك حجرية تتراجع مع جوانب المجرى إلى الخلف تمنع تآكلها .

وقامت منشآت ري أخرى وشقت ترع في وادي حريب الذي يقع إلى

الغرب من وادى بيحان ويصل بينهما وادى مبلقة عبر الجبال . ووادى حريب أعرض من وادى بيحان ولكنه أقصر . وامتدت الترع والمنشآت المائية إلى وديان فرعية تتصل به (مثل وادى العين ووادى مقبل ووادى مبلقة ووادى وهبة) . ولا تزال بعض أطلال مبانى هذه المشروعات المائية ظاهرة بينما غطت الأكوام على بعضها الآخر ، وتآكلت بقيتها نتيجة لارتفاع المجارى المائية عن الحقول المنزرعة كما أسلفنا مما جعل عوامل التعرية تعمل عملها فيها . ولا تزال تتناثر فى الوديان نتيجة لهذه المشروعات بعض حفر وجذور ما كان ينمو فيها من نخيل التمر والدوم وأشجار المر الذى أشار الرحالة استرابون فى القرن الأول ق . م . إلى شهرة قتبان بالاتجار فيه وإنتاج بعض أنواعه .

ومارس القتبانيون إنشاء السدود ضمن مشروعات الرى . على نطاق ضيق . ومنها سد فرعى فى منطقة الحضرة يحتمل إرجاعه إلى القرن الرابع ق . م . لصد مياه وادى حماد . وشيد بأسلوب بسيط فبنى بأكوام من الردم والطين الجاف دعمت واجهتها المواجهة لتيار الماء بالأحجار كما دعمت أعاليها بالأحجار أيضاً . وثمة بقايا سد آخر بجوار بيحان القصب .

ومن المشروعات المائية القتبانية أيضاً حفر الصهاريج . ولا تزال تتوزع على قمة جبل ريدان وسفوحه آثار صهاريج قتبانية كان البعض منها يتسع لآلاف الجالونات . ويبدو أنها وزعت على مستويات مختلفة بحيث إذا فاض الماء من أحدها نزل الفائض منه إلى ما يليه . وحفرت هذه الصهاريج فى الأرض وكسيت من الداخل بلياسة من أسفلها حتى الارتفاع المحتمل لما تختزنه من الماء . واختلف الرأى فى توقيت إنشائها بين ما يعاصر العصر الفارسى فى القرن الخامس ق . م . وبين القرن الميلادى الأول .

ولم تغن كل هذه المشروعات القتبانيين عن حفر الآبار العادية فى المناطق التى تحتاجها ، ويحتمل أنه كانت تتسرب إليها المياه الزائدة فى المزارع فتختزن طبيعيا فيها حتى يحين وقت الحاجة إليها ويتيسر رفعها .

وحول نبع طبيعى فى وادى فرع أفى بيحان ظاهرة طريفة ؛ حيث مهد الطريق إليه بممرات ضيقة مرصوفة ، وليتيسر وصول الرعاة ورجال القوافل

إليه حفرت علامات على الصخور قبل الوصول إليه بنحو كيلو متر ، ومنها ما يمثل شخصا يشير بإصبعه إلى مكان الماء . ولهذه العلامات ما يماثلها فى مناطق متفرقة من صخور بيحان وفى مناطق قريبة من الربع الخالى حيث تشتد الحاجة إلى معرفة أماكن المياه .

ومع هذه التيسيرات لتوفير مياه الرى والشرب : لوحظ فى آثار المدن والقرى (فى هجر بن حميد والحرجة وجبل الحضرة والنقب) أنه كان يوضع أمام كل دار حوض قليل العمق مليس من الداخل . لملئه بالماء .

وظلت مشروعات المياه تؤدى أغراضها حتى القرن الثالث الميلادى . لا سيما فى وادى بيحان . غير أن استمرار الاستفادة منها كان يتطلب استمرار العناية بها . فقد كان ارتفاع المجارى الرئيسية عن مستوى الأراضى المزروعة يعرضها لعوامل التعرية كما ذكرنا . كما أن ارتفاع الإرساب نتيجة لنظام الصرف المستعمل وتوزيع المياه فى الحقول . كان يتطلب الارتفاع بالقنوات الفرعية والارتفاع بمداخلها إلى مستوى الحقول .

واستفادت الدولة من ضرائب الزراعة كما استفادت من ضرائب التجارة . ويفهم من دراسات الباحث رودوكاناكيس Rhodokanakis للنظم القتبانية أن الضرائب فى قتبان وفى غيرها من الدول العربية الجنوبية كانت تعادل العشر أو ما يقرب منه ، وتؤدى عينية عادة أى من نفس محصول الأرض والمصانع والمتاجر . ويتولى الإشراف على تحصيلها ولاة الأقاليم وشيوخ القبائل أحياناً . كما كانت الدولة تأخذ بنظام الالتزام فى تحصيل ضرائبها أحياناًأخرى ، فتسمح لبعض كبار أهل القرى والأقاليم والمعابد بأن يتولوا جباية ضرائب معينة وتخصص لهم جعلا منها .

وامتد تحصيل الضرائب إلى ما هو أكثر من هذا ، فورد فى أمر أصدره ملك قتبانى إلى كبير إحدى القبائل بأن يؤدى إلى خزائنه من ضرائب قبيلته ما ترجمه رودوكاناكيس : « عشر كل ربح صاف وكل ربح يرد عن طريق الالتزام وكل ربح يجبى من بيع ومن إرث » . وقد تدل العبارة الأخيرة على

تحصيل رسوم على عقود البيع وعقود التوريث على نحو ما تجرى عليه قوانين الضرائب فى أغلب المجتمعات المعاصرة .

جـ — من آثار العمران والفنون :

قدر الاتساع القديم لمدينة تمنع (هجر كحلان الحالية) عاصمة قتبان بنحو ٥٢ فدانا — وخلد الرحالة بليني أهميتها حينما روى أنها كانت تتضمن ٦٥ معبدا . ومع ما فى رواية بليني من مبالغة واضحة فإن الآثار الباقية فى تمنع تشهد بروعتها النسبية القديمة فعلا رغم عوامل التخريب التى لحقت بها قديماً وحديثاً . وقد أنشئت هذه العاصمة فوق ربوة مرتفعة بعض الشيء عند النهاية الشمالية لوادى بيحان ، وكان يحيطها سور يحميها وإن تداخلت بعض المساكن فى أجزائه نتيجة لازدياد العمران . وتضمن السور أربع بوابات كشف عن اثنتين منها فى ناحيتى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى للمدينة . وكانت أولى البوابتين وتعرف عادة باسم البوابة الجنوبية ، هى الأقدم ، وترتب على بنائها بأحجار صلبة كبيرة أن بقى للآن جزء من بنيانها يرتفع أكثر من ثلاثة أمتار ، وأجزاء من الصرحين أو البرجين اللذين كانا يحيطان بها . ويبدو أنه كان لمدخلها باب خشبى ضخم ينزل من أعلى إلى أسفل حين غلقه ويدعمه من الخلف عارض خشبى أفقى متين . واحتفظت جدران البوابة ، وهذا هو الأهم ، بنصوص عديدة سجلت بأسماء بعض ملوك قتبان ، وكان من أقدمهم يدع أب ذبيان — كما تضمن أحدها تشريعاً للدولة أشرنا من قبل إلى فقرة منه .

وقام فى داخل المدينة مبنى متسع فخم ، اعتبره فان بيك معبداً رئيسياً ، واعتبره جام قصراً ملكيا للاحتفالات العامة . وقد شيدت الأجزاء الأقدم منه على مرحلتين خلال عهود المكربين بين القرن السابع والقرن السادس ق . م . ثم جددت أجزاؤه وأضيفت إليها إضافات مرتين أيضاً على الأقل فى عصور الملكية فى أواخر القرن الرابع ق . م . ثم فى القرن الأول ق . م . وتشابهت بعض هذه الإضافات مع أساليب العمارة الشائعة فى الحضارات الخارجية التى اتصل القتبانيون بها ، فشيدت جدران المبنى خلال مرحلة البناء الثانية بمشكاوات

رأسية (أو دخلات رأسية) متسعة تعاقبت على مسافات متساوية . وكان هذا الأسلوب المعمارى شائعاً من قبل فى أقطار شرقية قديمة مثل نواحى العراق ومصر وفارس وغيرها . وعندما تمت المرحلة الأخيرة لتجديد المبنى فى عهد الملك شهر يجل يهرجب فى بداية القرن الأول ق . م . أخذت عناصره ببعض خصائص فن العمارة الهيلنستية الشائعة فى عصره . وقد بدأ فى صورته العامة عند اكتماله تؤدى إلى بابه درجات متسعة يحف بها جداران جانبيان . ويؤدى مدخله إلى فناء كبير مرصوف كانت تحيط به من ثلاثة جوانب أعمدة مربعة ، بينما يتوسط ضلعه الشرقى (المقابل للمدخل) خمس درجات حجرية متسعة أخرى يزيد عرضها عن ستة أمتار ، وتؤدى إلى بهو كبير مرتفع تحتمل تكسية أرضيته وأسافل جدرانه الداخلية ببلاطات من الألباستر القرمزى رقمت بحروف تساعد على وضع كل صف منها فى موضعه المناسب . وتوسط هذا البهو ممر للمواكب قامت على جانبيه أربعة صفوف من المبانى الصغيرة لم يتضح الغرض منها حتى الآن . ولعل الارتفاع التدريجى من باب الدخول إلى الفناء ومن الفناء إلى البهو كان مقصوداً لذاته .

وكشفت البعثة الأمريكية للآثار التى أظهرت تفاصيل هذا المبنى الفخم منذ عام ١٩٥٠ — ١٩٥١ عن مساحة واسعة أيضاً حول البوابة الجنوبية لمدينة تمنع تضمنت مزيداً من الجدران المتصلة بها ومدخل فنائها وشارعين وعدة مبان . كما كشف الأهلون بعد ذلك بطريق المصادفة عن مبان أخرى . وتعددت الفروض بشأن الأغراض التى خدمتها هذه العناصر المكتشفة . وكانت منها دور تضمنت نصوصاً تحدد أسماءها وأسماء أصحابها أحياناً (مثل : دار يفش ، ودار يافع ، ودار هدث ، ودار شبعان ، ودار عثمان . . . إلخ) .

وظهرت مبان أخرى افترض مكتشفوها أنها خدمت أغراضاً عامة . ففى داخل بوابة المدينة وجدت على سبيل المثال ساحة رصفت بالحجر وقامت على جانبيها دكات حجرية مما احتمل معه أنها كانت ساحة سوق أو ساحة إجتماعات (بما يشبه ساحة أو دارا للندوة) . ومبنى آخر شيد على دكة مرتفعة ويؤدى إليه درجان (أحدهما من ناحية الجنوب والآخر من ناحية

الشرق) . وتضمن فى مدخله صفوفاً من المناضد الحجرية ، مما دفع بمكتشفه إلى أن يفترض أنه كان يمثل دار محكمة مركزاً للشرطة أو نحوه .

ومن أهم الدور الخاصة التى أشرنا إلى الكشف عنها قرب بوابة المدينة مبنيان متصلان سمى أقدمهما بيت يفش . وسمى آخر بيت يافع (أو يفعم) ؛ واتصل به بطريق يؤدى إلى فناء . وكنموذج للمبانى الثرية فى تمنع لا بأس من تقديم وصف مفصل لبيت يفش . فقد تألف من طابقين : طابق أرضى ذى صفات أوبواكى مسقوفة . وعدة غرف تقوم بدور مصانع خاصة صغيرة . ثم طابق علوى تضمن شرفات ومقصورة مباخر ومخزنين للبخور . ويستنتج من ستة نصوص تعلقت به أنه شيد فى أواخر القرن الثانى ق . م . (كما يعتقد ألبرايت) . ثم اشتراه وجدده رجل من أثرياء العاصمة يدعى هوفعم بن ثوب فى بداية القرن الأول ق . م . ووقفه بإسمه (وربما بإسمه مع إثنين من أسرته مرة أخرى ؟) على كبار معبودات قتبان : أنباى ، وإيل تعلاى ، وعثتر ، وعم ، وذات سنتم ، وذات ظهران ، وورفو . وبقيت بين أطلال هذا المبنى ثلاث غرف فى حال طيبة بحيث عثر فى داخلها على صناديق للبخور ومرايا برونزية وما شابهها .

وأمتع ما عثر عليه بجوار جداره الجنوبى المواجه لبوابة العاصمة : تمثالان من البرونز (ارتفاع كل منهما ٦١ سم ,وطوله ٧٠ سم) ولا يعرف إن كانا فى الأصل متجاورين أو متقابلين . ويمثل كل منهما لبوءة بكفل أسد ترفع إحدى ساقيها الأماميتين . ويعتليها غلام عار يمسك قوساً بيمناه ويقبض بيسراه على حلقة لسلسلة كانت تنتهى بطوق يحيط بعنق اللبوءة ، ولعله كان يمسك أيضاً بسوط أو نحوه . والغلامان توأمان مع اختلاف يسير بينهما فى الملامح ؛ ويعتبر التمثالان من أروع القطع الفنية التى احتفظت بها مناطق الجنوب العربى حتى الآن والتى تزكى ما رواه استرابون فى القرن الأول ق . م عن مهارة العرب الجنوبيين فى الصناعات المعدنية . وسجل على قاعدة أحد التمثالين إسما الفنانين ثويب وولده عقرب (حرفيا : ثويبم وعقربم) . اللذين قاما بزخرفة الدار وقلدا بالتمثالين نموذجا من الفن الهيلينستى السكندرى فنجحا فى عملية

التقليد إلى حد ملحوظ وإن ظل تشكيلها أقل اتقاناً من الأصول الهيلينستية المماثلة لها والتي وجد بعضها فى منف فى مصر . وإلى جانب الهدف الزخرفى فى هذه المجموعة الفنية افترض بعض الباحثين أنها رمزت إلى معنى ميثولوجى (أى دينى أسطورى) . وفى تحديد هذا المعنى آراء شتى . ومنها ما يرى أن اللبؤتين ترمزان إلى شمس الشتاء وشمس الصيف ، وأن راكبيهما التوأمين يمثلان عثتر نجم الشعرى ابن القمر ، كما يقومان بدور سدنة عم المعبود الأكبر لدولة قتبان وقد أخضعا له الشمس وروضاها . وليس ما يمنع من افتراض أن المجموعة كلها كانت تخدم كذلك غرض الحماية الرمزية لبيت يفشان ، أو غرض الحماية الرمزية لما يدخل من بوابة المدينة المجاورة له من قوافل التجارة . ولكل من هذه الفروض والآراء ما يبرره من عقائد العرب الجنوبيين ومن العقائد الهيلينستية المنقولة لا سيما من مدينة الاسكندرية التى روى بعض المؤرخين الكلاسيكيين أن وفوداً من التجار العرب الجنوبيين كانوا يشتركون فى مواكبها وأسواقها ويتبادلون الأفكار مع أهلها ، فضلا عمن كان يقصد بلاد العرب نفسها من رحالة العصر الهيلنستى ، وما يصلها عن طريق التجارة من القطع الفنية ذات الدلالات أو الأغراض العقائدية والتى تغرى الفنانين بتقليدها .

ولم تخل دار من الدور الباقية الأخرى من آثار تدل على ثراء أهلها وتدل على أهمية ما يمكن أن يظهر من آثار بقية المدينة حين يتم الكشف عنها ، وهو ما ندع التفصيل فيه الآن .

وكانت لقتبان فنونها المحلية فى النحت والنقش وصناعة الحلى وقطع الزينة وهذه نتجاوزعنها أيضاًمؤقتامراعاة للإيجاز . ومن نماذج النحت فى الحجر التى تأثرت بالفن الهيلينستى ودلت على اتساع صلات قتبان بالخارج ، رأس مرمرية توضع فى مستوى تمثالى اللبؤتين والغلامين البرونزيين ، وهى لأنثى أطلق عمال الحفائر الأثرية عليها اسم مريم أو مريام فاشتهرت به . وعثر عليها فى إحدى مقابر حايد بن عقيل جبانة العاصمة ، ويحتمل إرجاع صناعتها إلى ما بين القرن الأول وبين القرن الثانى ق . م . وقد انعقدت خصل شعرها خلف رأسها من نفس مادة الحجر بما يشبه الطريقة المصرية القديمة ، واحتفظ

محجرا عينيها بآثار التطعيم باللازورد على عادة كثير من تماثيل الجنوب وعادة التماثيل المصرية أيضاً . وعنقها طويل كانت تحيط به قلادة ، وأذناها مثقوبتان ليتدلى منهما قرطان . ومع ما أخذت به هذه الرأس من الأسلوب الهيلينستى ، حز فنانها على صدغيها تقليداً لوشم أو تشريط قد يعبر عن عادة محلية أو قبلية ، إن لم يكن تقليداً لأثر حجامة أجريت لصاحبة الرأس ابتغاء الشفاء من مرض ما .

د — علاقات قتبان بجيرانها :

شهدت دولة قتبان أطواراً مختلفة من التوسع ومن الانكماش فى تاريخها الطويل . وكيفت سياستها نحو جيرانها الأقربين . صداقة أو عداء أو حياداً . بما يتمشى مع قدراتها وإمكاناتهم . فقد مر بنا فى تتبع العلاقة بينها وبين جارتها القوية سبأ ، كيف أنها لزمت الحياد والشماتة أيام حروب كرب إيل وتر السبأى ضد معين وأوسان (قبل عام ٤٣٠ ق . م) ؛ وكيف أمنت بهذا على أرضها من أطماعه بل وحصلت منه على بعض أراضى أوسان القريبة من البحر الأحمر مكافأة لها على مسلكها إزاءه . غير أن تلاصق الحدود بين الدولتين الطموحتين سبأ وقتبان كان من شأنه أن يهيئ استمرار فرص التنافس والاحتكاك ثم الاشتعال بينهما . وقد ورد فى نصين ذكر حربين بينهما صعب توقيتهما إن كانتا سابقتين على أيام الحياد فى عهد كرب إيل وتر السبأى أم تاليتين لها . وصعب كذلك ترتيب أسبقية إحداهما على الأخرى . وعن إحدى هاتين الحربين تحدث قائد سبأى (يدعى تبع كرب) عن حرب بين الدولتين استمرت خمسة أعوام . وكانت قتبان فيما يبدو هى البادئة بها . وانتهت إلى ما يشبه الصلح أو الهدنة . الأمر الذى دعاه إلى أن يخصص أوقافاً كثيرة لمعابد أرباب سبأ الكبار . وذلك مما يعنى من ناحية أنه اعتبر الصلح كسباً ينبغى شكر أربابه عليه . ويعنى من ناحية أخرى أن الحرب بين الدولتين لم تنته إلى نتيجة فاصلة وأن أياً منهما لم تستطع القضاء على الأخرى .

وتحدث قائد قتبانى يدعى يذمر ملك عن الحرب الأخرى وروى عن مرحلة منها أنه هزم عدة قبائل وعشائر واستولى على مدنها ونخيلها وأرضها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم أعلن تقديمها إلى المعبود عم وإلى أنباى وإلى ملكه يدع أب يجل بن ذمر عالى ملك قتبان . وذلك مما يعنى أنه مع فخره بمجهوده فى الحرب قد رد الفضل فى النصر والحق فى تملك الأرض المكتسبة ونتائج النصر إلى معبودى دولته الكبيرين وإلى ملكه الذى كان يعتبر نفسه ولداً لهما وممثلا لهما على وجه الأرض . وزاد ذلك القائد عبارة فى نصه تحدث فيها عن مرحلة حرب واسعة شنتها سبأ وإمارة رعنان وقبائلها التى ساءها أن تملك القتبانيون جزءاً من أرضها ، ضد قتبان . ولكى يضخم السائد القتبانى من كثرة الأعداء وضراوة الحرب ألمح إلى أنه تجمع فيها حقد عهود المكربين وعهود الملوك السبأيين ضد ملكه يدع أب يجل بن ذمر عالى ملك قتبان وضد قتبان نفسها وضد أولاد عم جميعا .

وبعد هذه الحرب التى لا يعرف شئ مؤكد عن نتائجها ، والتى يفترض ألبرايت أن الملك القتبانى الذى ذكر فى سياق نصها وهو « يدع أب يجل » قد حكم فى منتصف القرن الرابع ق . م — شقت قتبان طريقها وظلت تسيطر على أجزاء من المناطق الساحلية التى كانت تشغلها من قبل دولة أوسان والتى عاشت فى بعض أجزائها قبائل حمير ذات الصلة والقرابة بالقبائل السبأية . وقد تلونت هذه القبائل الحميرية حينذاك بالولاء القتبانى واعتبرت نفسها من « ولد (المعبود) عم » معبود القتبانيين . وأطلقت على حصنها الرئيسى اسم ريدان ، وهو اسم يراه الباحث فون فيسمان قتبانى الأصل كان يطلق من قبل على حصن رئيسى للعاصمة القتبانية تمنع وقام على ملتقى الوديان إلى الجنوب منها . وقد ذكر فى نص إنشائى (قبيل بداية القرن الرابع ق . م) أنه فى اتجاه حدن ؛ ولا زال حصن حدن (أو حادى) هذا قائماً أسفل الجبل حيث توجد أطلال ريدان .

على أنه لم يكن من المنتظر أن تسير الأمور فى مصلحة قتبان دائماً . فبعد عام ٢٨٥ ق . م استطاعت جيوش الملك السبأى يثع أمر بين أن تسترد بعض الأراضى التى اكتسبتها قتبان من أسلافه خلال القرن الرابع ق . م ، وذكر نصه من المدن التى استردتها جيوشه حينذاك مدن نعمان وصنعاء وذبحان ذو حمرور .

وشهدت قتبان فترة ازدهار أخيرة فى عصر أسرة حاكمة ثالثة أو رابعة بلغت شأوها فى عهد « شهر يجل يهرجب » الذى يؤرخ ألبرايت وفون فيسمان عهده ببداية القرن الأول ق . م . وقد تطلعت قتبان فى عهده إلى دولة معين الواقعة إلى الشمال منها فاجتزأت جانباً من أرضها وعقدت معها حلفا احتفظت لنفسها فيه بالمكانة الأسمى ، ولعلها استهدفت من وراء هذا الحلف أن تضيق به على دولة سبأ فتضغط هى عليها من الجنوب وتضغط حليفتها معين عليها من الشمال . ويرجع إلى أيام هذا التحالف نص من عهد ملك معين « وقه إيل يثع » أرخه كاتبه المعينى باسم ملكه واسم ولى عهده وشريكه فى الحكم « إيل يفع يشور » الثانى ، كما أرخه فى الوقت نفسه باسم الملك القتبانى « شهر يجل يهرجب » ؛ وذلك مما يدل على اعترافه الضمنى بنفوذ قتبان على بلده . وعندما انفرد ولى العهد المعينى إيل يفع يشور بالحكم بعد أبيه حضر حفل توليته فى عاصمته كاهنان قتبانيان نيابة عن ملكهما . ولعل هذه الفترة من الازدهار القتبانى هى التى روى عنها الرحالة الرومانى بلينى أن إنتاج الكندر كان يأخذ طريقه من حضرموت وعاصمتها شبوة إلى حيث تتسلمه قتبان وعاصمتها تمنع على طريق البخور الممتد حتى ساحل البحر المتوسط ، وروى عنها كذلك ما سبق أن استشهدنا به من أن الجبانيتاى (أو القتبانيين) لهم مدن كثيرة أكبرها نجاو وتمنع ، وأنه كان فى هذه الأخيرة ٦٥ معبداً مما يشير إلى ثرائها.

ولكن يبدو أن بلوغ القمة قد يعقبه الانحدار أحياناً . فقبيل عهد شهر يجل يهرجب اهتز أحد الموارد الاقتصادية للدولة بعد نجاح السفن المصرية فى عصر البطالمة فى اجتياز مضيق باب المندب حوالى عام ١٢٠ أو ١١٧ ق . م للاتجاه إلى الهند والاتجار معها رأساً دون وساطة عرب السواحل الجنوبية ومنهم القتبانيون . وليس من المستبعد أن هذا الوضع كان من أسباب تحول أطماع قتبان إلى دولة معين لكى تعوض من مكاسب تجارتها البرية ما أوشكت أن تخسره من مكاسب تجارة الساحل .

ولكن ترتب على تخفيف قبضة قتبان الاضطرارى على المناطق الساحلية للبحر الأحمر أن تألبت عليها قبائل حمير المنتشرة فيها ؛ ويبدو أنها كانت قد

نجحت فى تجميع كلمتها من قبل بداية القرن الأول ق . م ، وبيتت النية على الاستقلال عن قتبان . وليس ما يعرف حتى الآن عن تفاصيل هذه المحاولة إلا أنها حققت هدفها فى النصف الأخير من القرن الأول ق . م . فقاتلت قتبان وأخذت منها ما كان باقياً لها من سواحلها .

وتوفرت بهذا فرصة ذهبية لسبأ التى سكتت على الازدهار القتبانى المجاور لها على مضض ، وعانت من تضييق قتبان عليها من الجنوب وتضييق حليفتها أو تابعتها معين عليها من الشمال . فاستغلت فرصتها وبدأت بأضعف الفريقين وهى معين فهاجمت عاصمتها واستولت على مناطق واسعة من أراضيها قبيل الربع الثالث من القرن الأول ق . م .

وانكمشت قتبان على خارطة الجنوب بعد أن خسرت أرض حمير وخسرت حليفتها معين ، ولكنها جاهدت فى سبيل البقاء وساعدها على الاستمرار أن غريمتها دولة سبأ كانت تعانى هى الأخرى من مشاكل متعددة تتعرض لها فى حينها ، فلم تستطع إحداهما أن تقضى على الأخرى ، وإن اتصلت المناوشات بينهما .

وفى هذه المرحلة المضطربة من تاريخ قتبان توالى ملوك لا يذكر لعهودهم من الأعمال الإنشائية إلا أن أول عملة ذهبية قتبانية سكت فى عهد أحدهم وهو « ورواو إيل غيلان » فى الحصن الملكى القتبانى « حريب » . وكانوا فى مجموعهم ضعاف الحيلة إزاء اضطراب موازين القوى فى الجنوب ، وكان ازدياد ضعفهم مشجعاً أو مترتباً على هجوم جديد غير متوقع من جارتهم الشرقية دولة حضرموت التى بسطت نفوذها على الأجزاء الشرقية من قتبان ، بحيث عثر على ثلاثة نقوش فى وادى بيحان القتبانى تمجد ثلاثة ملوك حضرميين ، وقد روى أحدها أن ملكه الحضرمى عمل على تسوير مدينة غيلان بعد أن تغلب أبوه على قتبان (أو على جزء منها) . وروى آخر أنه تم فى عهد ملك حضرمى مشروع للرى فى منطقة وعلان (القتبانية) .

وكان فى العاصمة تمنع ملك قتبانى لا يزال يحسن الظن بسلطته وهو « شهر هلال بن ذرأكرب » . إذ وجد له نص مرسوم يطلب فيه إلى كبير

العاصمة (أى المدير المحافظ أو من يؤرخ باسمه) بتحصيل الضرائب ممن يسكنون ويزرعون الأراضى فى سدو (قرب العاصمة) ، وأمر المزارعين بأن يلتزموا بمرسومه ابتداء من أول ذى فرعم إلى السادس من ذى فقحو يومابيوم وشهراً بشهر . واستنتج الباحث رودوكاناكيس من العبارة الأخيرة أن ذا فرعم يمثل أول شهور السنة الزراعية عند القتبانيين وأن ذا فقحو يمثل آخرها . ولو أنه ما من بأس فيما يبدو أن يكون ذو فرعم أول الحصاد ، وذو فقحو آخره . فمواسم الحصاد هى التى يستطيع المزارعون أن يوفوا فيها بالتزاماتهم تجاه الدولة ، وليست مواسم الزراعة كلها . وربما دل اللفظان فى سبأ على العشرتين الأوليين من الشهر .

وفى عهد الملك شهر هلال أيضـــا حوالى [٣] عام ١٠٠ أو ١٠٦ م دمرت تمنع عاصمة قتبان تدميراً عنيفاً لا زالت آثاره باقية فى معالمها القديمة التى اكتسى بعضها بطبقة كثيفة من الرماد دلت على حريق متعمد، لا تعرف حتى الآن حقيقة المتسببين فيه .

وعلى الرغم مما لحق بها ، جاهدت قتبان فى سبيل البقاء لفترة أربعين عاماً أخرى أو نحوها ، فاكتفت بمناطقها الغربية ، ونقلت عاصمتها إلى حريب التى أشرنا إلى سك أول عملة ذهبية قتبانية فيها ، ووجدت بها بالفعل عملات أخرى ضربت بها ، ونقشت على بعضها صورة البومة وتحتها خنجر . وكانت صورة البومة من رموز بعض العملات الإغريقية السكندرية . ويبدو أن قتبان قد اضطرت نتيجة لضعف حيلتها أن تنضم إلى حضرموت فى مشاكلها ضد دولة سبأ بعد أن أصبحت هاتان الدولتان هما مركز الثقل فى الجنوب العربي فحاربت فى صف حضرموت ، ثم تهاوت حوالى عام ١٤٠ م (أو ١٤٦ م) بعد أن استهلكت قوتها ، وانحسر كيانها السياسى ، وهجرت مناطقها الزراعية بعد أن قلت رعاية مشاريع المياه فيها ، وغطت الرمال عليها . وآلت أرضها فيما بعد إلى حوزة دولة سبأ وذوريدان منذ أوائل القرن الرابع الميلادى .

ملحوظة :

أسهبنا بعض الشيء فى الفصول السابقة فى مناقشة تاريخ دولة سبأ وتاريخ دولة قتبان ، من حيث مشكلات النشأة ، وتطور الحياة السياسية ، ومشاريع العمران وفروع الفنون ، وتأثير العوامل الداخلية والخارجية فى كيان كل دولة منهما — لكى نجعل من هذه المناقشات نموذجاً للتوسع فيما يعالج به تاريخ بقية الدول العربية القديمة الأخرى التى سنحاول الاكتفاء بخطوطها الرئيسية فيما يلى ، مراعاة للتخفيف مؤقتا . وندع التفصيل فيها للجزء الثانى من كتاب الشرق الأدنى القديم حين يصدر فى وقت لاحق قريب بإذن الله .

* * *

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

جواد على : المرجع السابق — جـ ٢ — مادة قتبان .

نيلسن وآخرون : المرجع السابق — ص ١٣٢ — ١٣٦ ، ٢٧٩ — ٢٨٩ .

Abdel-Aziz Saleh, op. cit.

Bowen, R. Jr., Albright, W.F., and Others, op., cit., 43—68, 155—163.

Philby, op, cit., 59—63.

Phillips, op. cit., 51 f.

Pirenne, J., Le Royaume Sud-Arabe des Qataban et sa Datation, Louvain 1961.

Rhodokanakis, N., Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, I-II, Vienne 1919, 1922.

الفصل السادس

دولة معين

كانت دولة معين أقرب الدول الجنوبية اتصالا بالمناطق الشمالية فى شبه الجزيرة العربية . ونشأت فى الجوف الجنوبى فيما يمتد بين حدود حضرموت وبين المنطقة الحدودية الحالية الفاصلة بين المملكة العربية السعودية وبين جمهورية اليمن الشمالية، عند نجران. وانتفعت معين بسهل متسع يغذيه بالخصوبة ومياه الرى نهر خارد وفروعه .

واختلفت تقديرات المستشرقين فى تعيين البداية السياسية لدولة معين فيما بين القرن الثالث عشر ق . م . والقرن الحادى عشر ق . م . وبداية القرن السادس ق . م . وبداية القرن الرابع ق . م . ويبدو أن أكثر هذه التقديرات احتمالا هو بداية القرن السادس ق . م .

واتخذت الدولة عاصمتها فى مدينة « قرناو » فى شرق الجوف الجنوبى، وبنيت مستطيلة فى مساحة صغيرة نسبياً تبلغ نحو مائة ألف متر مربع ، وسورت بسور ضخم ذى مدخلين تحميهما الأبراج الحجرية ، وبقى جزء من البرجين اللذين يحفان بمدخلها الشرقى . وقام إلى جانب العاصمة معبد كبير رددت النصوص المعينية اسمه وهو معبد « رصف » ولا زالت بقية من أعمدته ونقوشه وزخارفه قائمة تشهد بكفاية أصحابها وإن تجاوزنا عن وصفه مراعاة للإيجاز واكتفاء بما وصفنا به أمثاله فى سبأ وقتبان .

وتناولت البحوث الأثرية من مواطن العمران الأخرى فى معين مدن : يثل (خربة براقش) ، وكمنهو (خربة كمنة) ، ونشان (خربة السودا) ، ونشق (خربة البيضا) ، ورجمة (فى أخدود نجران) . . . . وغيرها .

تعاقبت على حكم معين خمس أسرات حاكمة لم تحتفظ النصوص الباقية بألقاب حكامها الأوائل ، ولكن يرجح أن سلطتهم بدأت بنفس الصبغة

الدينية التي ظهرت عند جيرانهم، فتلقب كل منهم بلقب « مزود » ربما بمعنى من يزود المعبودات أو المعابد بقرابينها، أو من يزود دولته بخيراتها. واعتمد هذا الترجيح على بقاء هذا اللقب « مزود » ضمن ألقاب حكام معين المتأخرين حتى بعد أن تلقبوا بألقاب الملوك .

وعملت معين على استثمار أراضيها الصالحة للزراعة بإقامة بعض مشروعات الري الصغيرة للاستفادة من الأمطار والسيول ومياه نهر خارد وفروعه ، وذلك مما جعل الرحالة الروماني بليني يصف أراضيهم بأنها أرض خصبة تكثر فيها الأشجار والنخيل والأعناب ولهم فيها قطعان كثيرة . غير أن معين اعتمدت في حياتها الاقتصادية أكثر ما اعتمدت على الاشتراك بنصيب كبير في تصدير منتجات الجنوب إلى أسواق التجارة الخارجية ، ولا سيما منتجات اللادن والكندر والمر التي كانت ترحب بها معابد الهلال الخصيب ودول البحر المتوسط ترحيبا كبيرا ، وذلك مما جعل نفس الرحالة بليني يعقب بقوله « والمعينيون منطقتهم يمر فيها ترانسيت الكندر عبر طريق ضيق . وهم الذين بدأوا التجارة وأهم من مارسوها . واتخذ (نوع من) البخور اسمه من اسمهم وهو البخور المعيني "Minaean" .

ويبدو أن مكاسب هذه التجارة التي سبقت عهد بليني بقرون طويلة هي التي حركت أطماع دولة سبأ منذ عهود المكربين ضد دولة معين . وقد مر بنا كيف تكررت الحروب بينهما في عهود المكربين الأواخر : وكيف أسرفت جيوش كرب إيل وتر (الثاني) السبأي في تدمير مدن معين وتشريد أهلها حتى ما يمتد إلى نجران . وإذا كنا قد تشككنا في صحة الأعداد الضخمة التي ذكرتها نصوصه عن قتلى المعينيين وأسراهم (راجع الفصل الخامس) . فإن نفس هذه الأعداد تعبر ضمنا عن اتساع عمران معين القديم .

وعندما استردت معين كيانها بدأت بها عصور الملكية في أوائل القرن الرابع ق . م . واعتاد ملوكها على أن يتلقبوا بكنيات شخصية معبرة حاول هومل وغيره تفسيرها ، مثل : صدق بمعنى الصادق أو العادل ، ويشور بمعنى المستقيم ، وريام بمعنى المتعالي . . . إلخ .

وعلى الرغم من غلبة نظام الحكم الملكي فى معين ظل لمشايخ القبائل وأعيان العاصمة مجلس « مسود » (بنفس الإسم الذى عرف به مثيله فى قتبان ويراجع له الفصل السادس). وقد وصف بأنه « مسد منعن » أى المجلس المنيع أو شيء من هذا القبيل . وكانوا يجتمعون فيه بدعوة من الملك للبحث فى أمور الضرائب والمنشآت العامة والمداولة فى أمور الحرب إن وجدت ، والتصديق على العقود التى تبرمها الدولة مع كبار الأفراد وتعهد إليهم بمقتضاها بتنفيذ بعض مشروعاتها الدينية أو المدنية وتتفق معهم فيها على الموارد التى ينفقون منها على هذه المشروعات .

ويغلب على الظن أنه قامت إلى جانب هذا المجلس الرئيسى فى العاصمة مجالس أخرى فرعية فى المدن الكبيرة والأقاليم كانت تشكيلاتها واختصاصاتها تشبه المجالس البلدية أو القروية الحالية .

وتولى رياسة حكم الأقاليم والمدن الكبيرة فى معين موظفون تلقب كل منهم بلقب « كبر » أى كبير ، أو وال ، وتولى كل منهم رعاية شئون إقليمه باسم ملكه فى شئون القضاء وفى جباية الضرائب وفى إقامة المشروعات الإقليمية .

غير أن الكبراء أو الولاة لم يكونوا المشرفين وحدهم على جباية الضرائب وإنما أخذت دولتهم فى نفس الوقت بنظام الالتزام فى تحصيل بعض ضرائبها ، وهو نظام سبق أن أشرنا إلى تطبيق مثله فى قتبان وغيرها (فى الفصل السادس). وكان معدل الضرائب يدور حول العشر أو ما يقرب منه ويؤدى عينيا عادة .

وبحكم موقعها الشمالى ظلت معين أكثر اتصالا بطرق التجارة الشمالية الرئيسية التى تخرج من عاصمتها « قرناو » ومن تابعتها « نجران » ، إلى نجد وما وراءها وإلى الحجاز وما وراءه . ولرعاية قوافل المتاجر التى تسلك الطريق التجارى البرى الكبير على طول الحجاز والممتد إلى العقبة وما يتفرع منها إلى سيناء المصرية ، وإلى غزة ومعان فى جنوب الشام ، زودت معين هذا الطريق بحاميات وجاليات معينية كان استقرارها فى مدن الحجاز من عوامل التزاوج والاختلاط السلمى بين عرب الشمال وبين عرب الجنوب كما كان من أسباب

ما تناقله النسابون عن تناثر بطون جنوبية أو قحطانية بين العرب الشماليين (فى مثل مدينة يثرب فى عصور تالية) .

وأقامت أكبر الجاليات أو الحاميات المعينية فى واحة العلا شمالى يثرب وكانت فى بعض عصورها مقراً لدولة ددان ودولة لحيان مما سنتناوله فيما بعد بتفصيل. وعندما زاد النفوذ الاقتصادى لهذه الجالية زاد بالتالى نفوذها السياسى حتى غدت منطقتها حليفة لدولة معين يتولاها كبير أو كبيران على صلة بالملك المعينى الجنوبى . وربما حدث هذا التطور فى أواخر القرن الثالث ق . م . وأصبحت المنطقة تذكر معه فى النصوص إلى جانب أسمائها القديمة باسم حـ الجنوبية أى « معن » أو معين ، مع تخصيصها بكلمة « مصرن » .

وتعامل تجار معين ووسطاؤها من « معن » مع العواصم المصرية واستقر بعضهم فيها . ومنهم رجل يدعى « زيد إيل بن زيد » دفن فى مصر ووجد له تابوت فى منطقة منف كتب عليه بحروف المسند ما يفهم منه أنه عمل فى خدمة معبد مصرى لعله سيرابيوم منف ، وتولى توريد بعض المنتجات العربية إليه مثل المر والذريرة (قصب الطيب) وغيرهما على سفينة بحرية فى مقابل ما كان يصدره إلى بلده من المنسوجات المصرية . وليعبر زيد إيل بن زيد عن استغراقه فى الحياة المصرية تلقب بلقب « وعب » وهو لقب دينى مصرى قديم يعنى الكاهن المطهر. وأرخ هذا النص بالعام ٢٢ للملك « توليما يوث برتولومايوس» وقد يقابل عام ٢٦٣ ق . م . خلال عهد بطلميوس الثانى ، أو بعده .

ووصل تجار معينيون بتجارتهم إلى جزيرة ديلوس فى بحر إيجة فى النصف الأخير من القرن الثانى ق . م . حيث وجدت فيها آثار صغيرة نقشت بنصوص عربية تدعو لأصحابها آلهة معين (وآلهة سبأ) .

واستمرت معين فى سبيلها السياسى وسبيلها الاقتصادى حتى دب الوهن فى نظامها الحاكم واشتد بأس جيرانها ، وتجرأت عليها دولة قتبان ودولة سبأ . وبدأت قتبان فاقتطعت جانباً من أرضها، وأجبرتها (كما مر بنا فى الفصل السادس) على عقد حلف معها احتفظت لنفسها فيه بالمكانة العليا لا سيما فى أيام ملكى معين « وقه إيل يثع» وولده « إيل يثع يتمنو » الثانى . وحاولت

قتبان أن تستغل معين فى التضييق على دولة سبأ من الشمال ، ولكن هذا زاد من حقد سبأ عليها فما لبثت هذه الأخيرة حتى استغلت انشغال قتبان بمشكلاتها الداخلية مع قبائل حمير وانفردت بمعين فدمرت عاصمتها قرناو واستولت على أجزاء متسعة من أراضيها قبيل الربع الثالث من القرن الأول ق . م . بحيث لم يذكرها استرابون فى عام ٢٤ ق . م . حينما صحب حملة القائد الرومانى آيليوس جاللوس ضد الدول العربية الجنوبية ، مما يعنى أنها كانت قد فقدت استقلالها على أيامه .

ولكن الانكماش السياسى لم يؤد إلى وقف نشاط المعينين فى مجالات التجارة فظلوا يقومون بدورهم فيها ويجنون مكاسبها تحت طاعة دولة سبأ القوية ، وبهذه الصورة كتب عنهم بلينى فى القرن الميلادى الأول ما نقلناه عنه من قبل ، كما كتب عنهم الرحالة الجغرافى بطلميوس فى القرن الميلادى الثانى :

***

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

جواد على : المرجع السابق ، ج ٢ — مادة « معين » .

خليل نامى : نقوش خربة معين — القاهرة ١٩٥٢ ، نقوش خربة براقش — القاهرة ١٩٥٧ .

محمد توفيق : آثار معين فى جوف اليمن — القاهرة ١٩٥١ ، نقوش خربة معين — القاهرة ١٩٥٢ .

نيلسن وآخرون : المرجع السابق — ص ٦٤ — ٧٥ ، ٢٦٧ — ٢٧٣ .

Philby, op. cit., 42—58.

Ryckmans, J.,L. 'Institution monarchique en Arabie Méridionale avant l'Islam (Maein et Saba), Louvain 1951.

Winnett, F.V., The Place of the Minaeans in the History of Pre–islamic Arabia, BASOR, 73, 1939, 3—9.

الفصل السابع

دولة حضرموت

شغلت حضرموت منطقة واسعة من جنوب شبه الجزيرة العربية، وجمعت في أرضها الواسعة بين الجبال العالية وبين الوديان العميقة. ويبدو أن واديها الكبير وادي حضرموت كان مجرى مائياً ضخماً خلال الدهور المطيرة القديمة، ويمتد جزؤه الخصب نحو ٦٠ ميلا وتجرى فيه بضعة أنهار صغيرة منها نهر ميفع وهو نهر يحتمل أن يكون لإسمه صلة قديمة باسم مدينة « ميفعة » التي كانت من أقدم العواصم المعروفة لحضرموت .

وانتفعت حضرموت بساحل طويل على بحر العرب (أو المحيط الهندى) قامت عليه ميناء رئيسية أسمتها النصوص القديمة « قنأ »، وأطلق العبرانيون القدماء عليها اسم كنية ، بينما أطلق الإغريق عليها اسم كانى Cane وتقوم على أطلالها بير على الحالية .

ولا يزال المعروف من تاريخ المراحل الأولى لحضرموت قليلا — ولا زال الخلاف بين تقديرات الباحثين لبداية تكوينها السياسي واسعاً ، فبينما أخذ فلبي برأى هومل ببداية عصور الملكية فيها بأواخر القرن الحادى عشر ق . م . أرخها ألبرايت بأواخر القرن الخامس ق . م . على أساس أنه بعد أن اختفت شخصية كرب إيل وتر السبأى القوية من الجنوب قامت الملكية فى حضرموت وربما بدأت بما يشبه التبعية لدولة معين بحيث حكمها معاً ملك واحد يدعى صدق إيل . وإذا صح هذا فقد يعنى ترابط الجارتين معين وحضرموت فى مجالات التجارة وتحالفها للوقوف فى وجه دولة سبأ ذات المطامع الواسعة . وبعد جيلين أو ثلاثة انفرد بحكم حضرموت أمير من أصل معينى يدعى « معدكرب » أسس بها أسرة حكم مستقلة ، مع بقاء العلاقات الودية بين البيتين الحاكمين قائمة بحيث كان الكتبة فى كل منهما يسجلون أحياناً اسم ملك الدولة الثانية إلى جانب اسم ملكهم فى النصوص التى تتناول ذكر المنشآت

الجديدة والاحتفالات الكبيرة . وامتد هذا الوضع الذى لا زال الشك يحيط بتفاصيله فترة صعب تحديد أمدها ؛ ثم غابت أسماء ملوك حضرموت . وعلل بعض المؤرخين هذه الظاهرة باحتمال خضوع حضرموت مرة أخرى خضوعاً مباشراً لدولة معين ؛ بينما عللها بعضهم الآخر بخضوعها لدولة أخرى من الدول الجنوبية مثل سبأ . وكان الملك السبئى شعر أوتر قد زوج أخته لملك حلك من الملك الحضرمى العزيلط ثم خاصمه وهاجم عاصمته .

وبعد هذه الفجوة ازدهرت الملكية الحضرمية من جديد وبدأها ملك يسمى يدع إيل بين . ومرة أخرى ليس ما يعرف يقيناً عن الظروف التى بدأ بها ملكه ولكن تخلفت بضعة قرائن يمكن الاستفادة منها فى تصوير هذه الظروف . ومنها أن يدع إيل بين هذا ذكر فى نصوصه أن أباه رب شمس كان من أحرار بهأر ، وذلك مما قد يعنى أنه لم يكن من بيت مالك قديم وأنه بلغ العرش بمسعاه الشخصى . وقد يزكى هذا الاستنتاج أن عدداً من رعاياه تفاخروا فى نصوصهم بأنهم ساعدوه . دون أن يبينوا نوع هذه المساعدة . وليس من المستبعد أنها كانت مساعدته على بلوغ العرش . وقد بدت العلاقات بين مملكته الجديدة وبين دولة سبأ التى أصبحت أكبر الدول الجنوبية فى ذلك الحين علاقات طيبة . وذلك مما نحتمل معه أن سبأ عاونته على إعلان ملكه أو أنها على الأقل رضيت بما قام به فى سبيل إعلان ملكه .

وزادت منذ عهد يدع إيل بين شهرة العاصمة الحضرمية « شبوة » التى ذكرت نصوصه أنه عمرها بعد خرابها وأعاد تشييد حصن ومعبد رئيسى فيها . وتناقل المؤرخون والرحالة الكلاسيكيون اسم هذه العاصمة بمترادفات متقاربة تحرفت بعض الشىء عن إسمها الحقيقى . ومن هذه المترادفات :

Sabbatha. Sabatha. Sabata .

وتعاقب بعد عهد يدع إيل بين عدد من ملوك حضرموت . استطاعت دولتهم فى فترة ما من القرن الأول الميلادى أن تسيطر على الأجزاء الشرقية من دولة قتبان بعد أن ضعف شأن هذه الدولة الأخيرة . فسيطرت على جزء من وادى بيحان وعثر فيه على ثلاثة نصوص تمجد أسماء ثلاثة ملوك حضرميين

كما أسلفنا من قبل (فى سياق الفصل السادس). غير أن تدخل حضرموت فى شئون الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة جر عليها مشكلات كثيرة مع القبائل الحميرية حتى أصبحت الحدود بينهما بين مد وجذر لإحديهما على حساب مصلحة الأخرى. وجر عليها مشكلات أخرى مع دولة سبأ نتحدث عنها خلال العصر الملكى السبأى . ثم أعقبت ذلك عهود سلام ظهر فيها الملك الحضرمى « إيــل عزيليط » أو « إلعزيلط » الثــانى . وأثبت فى نص من نصوصه أنه إيل عزيليط ملك حضرموت ابن عم ذخر .و أنه سار إلى حصن أنود ليتلقب (بلقب الملك) . وأشار عدد من أتباعه إلى أنهم صاحبوه فى هذه الرحلة . كما سجل رجلان من أشراف حمير أن ملك سبأ وذوريدان « ثأران يعوب » أوفدهما لحضور حفله . وتنم هذه المصادر مجتمعة عن أن حصن أنود هذا الذى لا زالت بعض أطلاله باقية تشرف على واد ينتهى إلى العاصمة شبوة قد توفرت له ذكريات خاصة فى عهود الملكيه الحضرميه ، وأن حفل التولية كان حفلا ضخماً يلائم المناسبة التى أقيم من أجلها . وأن العلاقات بين حضرموت وبين دولة سبأ التى دخلت فى طور جديد من أطوار الملكية جمعت فيه بين سبأ وحمير ، أو سبأ وريدان ، قد غدت علاقات طيبة . وورد فى نص ملك حضرمى آخر أنه حين احتفل بيوم توليته العرش فى حصن أنود ضحى بقرابين كثيرة تضمنت ٣٥ ثورا و ٨٢ كبشا و ٢٥ غزالا وثمانية فهود (؟) .

ويذهب الظن إلى أن إيل عزيليط الثانى ابن عم ذخر هو الملك الذى ورد ذكره باسم إليازوس Eleazus فى مصدرين إغريقيين ، عرف أحــدهما باسم كتاب الطواف حول البحر الإريترى ، ومن الآراء الحديثة فى شأنه ما يحتمل تأليفه فى حوالى الربع الأول من القرن الثالث الميلادى ، وقد وصف فيه إليازوس بأنه ملك بلاد البخور والطيب وأنه أقام فى عاصمته Sabatha وامتد سلطانه إلى قنأ . وذكر عن هذه الميناء قنأ أنها كانت « سوقاً لكل اللادن الذى ينمو فى البلاد ويؤتى به إليها على ظهور الجمال وفى الأرماث المحلية المصنوعة من الجلد ، وفى القوارب ، ولها تجارة أخرى مع مدن الساحل البعيد ، ومع بيريجازا وسكيثيا (فى وادى السند) وعمانة وفارس المجاورة

لها » . وفى هذا الوصف ما يشير إلى ثراء حضرموت من تجارتها البرية والبحرية فى أيامه .

وعبر الحضرميون عن معبودهم الأكبر الذى تخيلوه يهيمن على القمر باسم « سين » وهو الذى عبر عنه جيرانهم من الجنوبيين بأسماء « عم » ، و « ود » ، و « إلمقه » . وإذا كان هناك ما يضاف إلى هذه المقارنة فهو أن اسم « سين » سبق أن أطلقه الأكديون والبابليون كذلك فى العراق على معبودهم الذى تخيلوه معنياً بالقمر أيضاً . مما يعنى أنه كان اسما ساميا قديماً واسع الانتشار . وربما كانت له صلته أيضاً بتسمية سيناء المصرية وإن وجدت آراء أخرى لتفسير هذه التسمية .

وانتشرت معابد سين هذا فى العاصمة شبوة وفى الحواضر الحضرمية الكبيرة وعرفت فى كل منها بصفة مميزة . وكان منها معبد كشفت عن آثاره بعثة جرترود كيتون طومسون فى بلدة حضرمية عرفت قديماً باسم « مذاب » وتعرف الآن باسم « الحريضة » . وكشفت هذه البعثة حول المعبد عن عدد من المقابر القديمة تضمنت إلى جانب جثث أصحابها أعداداً كثيرة من أدوات الحياة اليومية كالأوانى من الفخار والخزف ، والقلائد وما إليها ، مما يعنى أن المعبد كان محوراً لعمران واسع من حوله ضم مساكن الأحياء وقبور الموتى .

وإذا كانت حضرموت قد أقامت أغلب بنيانها الاقتصادى على امتداد نشاطها إلى منطقة ظفار المنطقة الرئيسية لإنتاج أفضل أنواع اللادن والكندر . ثم تصديرها شرقاً وغرباً ، فهى قد اهتمت كذلك بتنمية ثروتها الزراعية التى كشفت البحوث الحديثة عن عدد من مشروعات الرى التى خدمتها . والتى نتجاوز عن التفصيل فيها مؤقتا اكتفاء بما ذكرناه عن أمثالها فى سبأ وقتبان .

واستمرت حضرموت فى سبلها الاقتصادى والسياسى حتى اشتدت المنافسة بينها وبين صديقتيها القديمة سبأ وذوريدان ، وتطورت هذه المنافسة إلى حروب عنيفة حملت حضرموت معها على زيادة حصونها وأسوارها لمقاومة السبأيين . وبقيت من هذه الأسوار أطلال سور كبير كان يحمى منطقة ميفعة .

ولكن الحروب انتهت بانتصار السبأيين فى عهد ملكهم « شمر يهرعش » الثالث فى أواخر القرن الثالث الميلادى . وبلغ من أهمية انتصاره عليها أن شجعه على أن يبدأ عهداً جديداً للملكية السبأية تلقب فيه هو ومن تلاه من الملوك بلقب « ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنت » . ويذهب رأى حديث إلى اعتبار « يمنت » هذه او يمانة تمثل الجزء الجنوبى من حضرموت والمطل على ساحل البحر العربى (أو المحيط الهندى) . وربما حاولت حضرموت النهوض بعد ذلك بقليل ولكن الحملات السبأية الحميرية تكررت عليها وأخضعتها لنفوذها المباشر منذ أواسط القرن الميلادى الرابع .

* * *

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

Bowen, Albright, and Others, op. cit., 77—81, 139—142.

Brown, W. L., and Beeston, A.F.L., JRAS, 1954, 43-62.

Caton Thompson, G. The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadhramaut). Oxford, 1944.

Philby, op. cit., 77-81.

Phillips, op. cit., 431

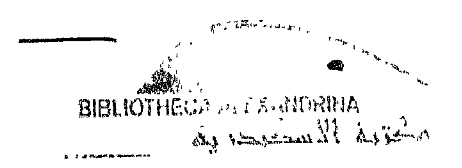
Pirenne, J., Première mission archéologique francaise au Hadramout. C.R. de AIEL. 1975: Deuxiéme mission..., ibid. 1976.

Stark, R.F., in GJ, 93, 1939, 1-17; JRAS, 1939, 480-498.

Van der Muelen and Wissmann, H. von, Hadramaut, Some of its Mysteries unveiled, Leiden 1932.

جواد على : المرجع السابق ، ج ٢ – مادة « حضرموت » .

ملس وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٢٧٤ – ٢٧٩ .



الفصل الثامن

دولة أوسان

شهد جنوب شبه الجزيرة العربية من دوله الصغرى الثرية قصيرة الأجل دولة سميت باسم أوسن أو أوسان. نشأت إلى الجنوب من قتبان وامتدت فى عصور مجدها حتى حدود حضرموت . وبقى اسمها حيا فى ألقاب بعض مواطنيها إلى ما بعد ظهور الإسلام .

ويبدو أن أوسان لم تكن فى بداية أمرها غير منطقة رئيسية من دولة قتبان قرب مدخل البحر الأحمر وأشرفت على جزء من الساحل العربى الجنوبى ، ثم انفصلت عنها فى ظروف غير معروفة بعد أن جمعت الأحلاف حولها من أقاليم وقبائل مسورا ويافع ولحج ودثينة وأبيان . ووفرت لنفسها وحلفائها كيانا مستقلا جنبا إلى جنب مع قتبان وسبأ .

ومضت أوسان تشق طريقها الحضارى مستعينة فيه بنشاطها التجارى الذى انتفعت فيه بخليج عدن . حتى اتسع طموح السبأيين فى أواخر عهود المكربين وتحولت أطماعهم إليها . وحينذاك تداولت المناوشات بينهم وبينها ، وحالفهم النصر عليها أحيانا وحالفها النصر عليهم أحيانا أخرى وذلك مما سمح للملوك الأوسانيين أن يسجلوا أخبار انتصاراتهم فى معابد أربابهم . وسمح لهم كذلك بأن يأسروا جماعات من السبأيين ويحتفظوا بهم رهائن فى أرضهم .

ومالت كفة النصر إلى جانب السبأيين فى عهد المكرب الأخير كرب إيل وتر الثانى الذى دلت الشواهد على أنه تمتع إلى جانب مهارته فى إدارة دفة الحرب بمهارة أخرى فى شئون السياسة . فاستطاع أن يضمن حياد قتبان وحضرموت فى حربه ضد أوسان كما ضمن حيادهما فى حربه ضد معين على نحو ما سبق ذكره من قبل . وإذا صح أن أوسان كانت قبل استقلالها جزءا من قتبان فعلا كان فى ذلك تفسير لرضى هذه الأخيرة بمهاجمة

السبأيين لها . وعدم دفاعها عنها . وراد كرب إيل وتر على ذلك فاستمال حلفاء أوسان وأتباعها للتخلي عنها والانضمام إليه فاستجاب له بعضهم . ومن هؤلاء أمير كان يتولى أمر إقليم دهس وقبائل يافع . وهو واحد من أكبر أقاليم أوسان وحلفائها .

وانحط كرب إيل وتر بجيوشه على أوسان فى عهد ملكها مرتوم (أومرتو أو مرتاوا) وادعى فيما روت نصوص انتصاراته التى سجلت بأمره فى معبد عاصمته صرواح أنه (أى جيشه) قتل من الأوسانيين آلافا كثيرة دل على مبالغته بشأنها أن تراوح عددهم فى سياق عباراته بين ١٦ ألفا وبين ما هو أكثر من العشرين ألفا ، وأنه أسر منهم آلافا كثيرة تراوح عددهم أيضاً فى سياق عباراته بين ٤٠ ألفا وبين ٥٦ ألفا . وافتخر بأنه حرر الأسرى السبأيين الذين احتجزهم الأوسانيون من انتصاراتهم القديمة ، واستعبد عوضا عنهم أعضاء مجلس المسود الأوسانى أنفسهم وجعلهم رقيقا للمعبودة السبأية « سمهت » إمعانا فى إذلالهم . وأمر بمحو وتهشيم النصوص التى كان ملوك أوسان قد تفاخروا فيها بانتصاراتهم القديمة على نصب معابدهم . ثم عامل حلفاء أوسان بنفس القسوة فدمر جيشه مدنهم وأحرقها . واستعبد هومدنا أخرى لصالحه الخاص على نحو ماذكر فى نص له أنه « اقتنى كل إقليم كحد بأحراره وعبيده » — وتعمد أن يقتطع أجزاء أخرى من جسم الدولة المهزومة ورد بعضها إلى قتبان ، كما كافأ حضرموت ببعضها الآخر ، جزاء لهما على حيادهما فى حروبه مع أعدائه ، وربما تعويضا لهما عن سبق اعتداء أوسان على أراضيهما .

وانطوت أوسان فى ظل الخضوع والنسيان لفترة طويلة . ثم استردت كيانها السياسى فى ظروف غير معروفة . واعتلى عرشها من جديد ملوك وطنيون فى أواخر القرن الثالث ق . م . فيما يظن فلبى . وباعتبارهم محررين توافرت لهم قداسة واسعة بين رعاياهم دعتهم إلى التقرب إليهم بالهدايا والقرابين ربما ليحتفظوا بها فى قصورهم ثم فى قبورهم . أو ليضعوها بأسمائهم فى معابد دولتهم . وأشهر من احتفظت الآثار بذكراه من هؤلاء الملوك ملك يدعى « يصدق إيل فرعم شرح عت » . وقد سجل أحد رعاياه على أثر له مايفيد أنه

« الفاضل مصدان الذى قدم (الأثر) إلى سيده يصدق إيل فرعم شرح عت ملك أوسان ابن ود » . وكان « ود » فيما أسلفنا اسما أو صفة لمعبود تخيله المعينيون من قبل يهيمن على القمر وامتد تقديسه إلى بعض قبائل وإمارات العرب الشماليين أيضا . وكان فى انتساب ملوك أوسان إليه واعتبارهم ولدا له ، كما كان القتبانيون يعتبرون أنفسهم «ولد عم» ضمانا لإحاطة حكمهم بالقداسة الدينية بين رعاياهم . ولعلهم تعمدوا اتخاذ ود اسما لإلههم مخالفة لتسمية قتبان لإلهها الأكبر باسم عم .

وازدهرت أوسان فى عصر هذه الملكية الأخيرة وامتد نفوذها من باب المندب على الساحل إلى الأحور ، كما امتد فى الداخل إلى حدود قتبان . واشتهرت من مناطقها الأثرية مسوره ومرخا ونعمان وحلة والسقية وأم ناب ، فضلا عن خليج عدن Arabia Eudaimon . وكان فى امتدادها الساحلى الطويل ماسمح لها بتجارة واسعة مع شاطىء شرق أفريقيا المواجه لها حتى زنزبار بحيث سمى جزء من هذا الشاطىء حينا باسم الساحل الأوسانى . وانعكست موارد هذه التجارة على ثراء مقابر ملوك أوسان وآثارهم التى نقل بعضها إلى متحف عدن .

ومن أهمها بضعة تماثيل من الألباستر مثلت عددا منهم فى هيئاتهم العربية وملابسهم القومية ، على الرغم من أن فنانيها قلدوا فى نحتها أسلوبا فنيا يشبه أسلوب الفن الهيلينستى الذى انتشر فى الشرق منذ القرن الثالث ق . م . وكانت الاسكندرية من مراكزه الرئيسية . وأظهرت بعض هذه التماثيل أصحابها يمدون أيديهم إلى الأمام كما لو كانوا يقدمونها قرابين وهدايا إلى معبوداتهم . ونوعت بين هيئاتهم فأظهرت بعضهم بشعور قصيرة ، وبعضا آخر بشعور طويلة تنسدل إلى ما تحت الأذنين أو تسترسل على هيئة الجدائل على الكتفين . ومثلتهم حليقى اللحى ، وجعلت لبعضهم شوارب خفيفة . وبينما أظهرت بعضهم بثياب طويلة كاسية تزخرفها أحيانا زركشة لطيفة فى وسطها وعند أطرافها وعند دمالج الذراعين ، أظهرت بعضا آخر بنقبة (أو فوطة) طويلة .

ولاتبرأ هذه التماثيل من قلة التناسق بين أعضائها . حيث تبدو قاماتها قصيرة أحيانا إلى حد ملحوظ . وسيقانها غليظة . وأكفها عريضة بالنسبة إلى بقية جسومها . ولكنها على الرغم من ذلك بلغت صناعتها مستوى لابأس به بالنسبة لإمكانات بيئتها . كما أصبحت بتنوع هيئاتها مصدرا مهما للتعرف على سمات أهلها وأزيائهم .

وكجزء من مشكلات التاريخ فى دول الجنوب العربى . افترض فلبى أن النهاية السياسية لدولة أوسان حدثت فى أواخر القرن الثانى ق . م . بينما افترضت جاكلين بيرن بقاءها إلى قبيل ميلاد المسيح . والمرجح على أية حال هو أن أراضيها انطوت بعد ذلك تحت سيطرة حمير ثم دولة سبأ وذوريدان . ودخلت معها تحت إشراف هذه الدولة الأخيرة المناطق التى امتدت تجارتها أو ولايتها إليها على الساحل الأفريقى المواجه لها .

* * *

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

Conti Rossini, C., Dalle Rovine di Ausan, Dedalo, 1927, 727–754.
Hamilton, R., GJ, 101, 1943
Philby, op. cit., 82–86.
جواد على : المرجع السابق — جـ ٢ — مادة « أوسان » .
نيلسن وآخرون : المرجع السابق — ص ٨٢ — ٨٤ ، ٩١ ، ٢٩٨ — ٢٩٩ .

الفصل التاسع

عودة إلى دولة سبأ
فى عصر المملكة السبأية

بدأت عهود الملكية فى سبأ باتخاذ كرب إيل وتر الثانى لقب الملك عوضاً عن لقب المكرب . أو إلى جانبه . فى حوالى عام ٤١٠ ق . م . كما يعتقد أصحاب التأريخ المختصر (ومنهم آلبرايت وفون فيسمان) بعد أن أحرز لدولته توسعاً كبيراً على حساب جيرانها . ويبدو أن الرجل قد انصرف بعد انتصاراته إلى توطيد الأمن فى أرجاء دولته الجديدة الواسعة عن طريق إعادة تعمير المدن المعينية والأوسانية الخاضعة له وإسكان جماعات من السبأيين فيها ، وإعادة تحصينها بعد أن اطمأن إلى موالاتها له . ثم عن طريق مواصلة سياسة أسلافه العمرانية والاقتصادية فى الاهتمام بمشروعات الرى وما إليها .

ولما كان الرجل قد ادعى أو اقتنع بأن معبود دولته الأكبر « إلمقه » هو الذى أيده فى مشروعاته وتخيره ملكاً أو صيره ملكاً كما أسلفنا من قبل، فقد ترتب على هذا آن ازداد شأن إلمقه بازدياد شأن ممثله على الأرض كرب إيل وتر ، وزادت معابده فى حواضر الدولة كما انتشرت عبادته فى البلاد التابعة لها . وزادت الأوقاف المرصودة عليها من أهلها وأتباعها على حد سواء ، ومعها ضمنيا بقية معبودات سبأ الأخرى .

وتوسعت سبأ فى عصرها الملكى فيما كانت قد بدأت به من نظم فى عهود المكربين . كما تقبلت بعض عناصر الحضارة وبعض التسميات التى أخذت بها الدول الجنوبية الأخرى ، الصديقة منها والمنافسة والخاضعة فى آن واحد .

وأشرنا فى نهاية الفصل الخامس إلى نظرية جديدة تفترض أن بعض النصوص السبأية أخذت تؤرخ أحداثها منذ عهود أواخر المكربين بنيابة عظيم

ذى صفة دينية يتلقب بلقب « رشو » ويجمع إلى كهانته للمعبود عثتر شيئاً من الإشراف على شئون الرى والزراعة . ويرى صاحب هذه النظرية أن النيابة قد انتظم أمرها فى عهود الملكية وأصبحت تحتسب لكبار أفراد ثلاث أسر كبيرة وهى أسرة حرور كبير خليل ، وأسرة حذمة . وأسرة فضحم . وكان هؤلاء يتعاقبون ولدا عن والد بعد كل دورة ثلاثية من الأسر الثلاث . وتستمر نيابة كل منهم ست سنوات أو سبعاً ، باستثناء مرة واحدة استمرت لتسع سنوات .

وتلقب الولاة بلقب « كبر » (وهو لقب كان له مايشبهه فى معين وقتبان) . وتسمى مجالسهم باسم « مشد » (وهو مسد أو مسود فى معين وقتبان أيضاً) . وتلقب ولاة سبأيون آخرون بلقب « قين » . وإذا زادت منزلة أحدهم لقب بلقب « أكبر أقينم » أو « أكبر أقين » بمعنى أكبر الأقيان أو الأقيال . وإلى جانب لقب « مود » بمعنى صديق أو نديم (للملك) فى البلاط السبأى — ظهر أيضاً لقب « حرج » ويبدو أنه كان يخص المشرف على المنشآت الحكومية .

ويمكن أن يرد إلى العصر الملكى فى سبأ إنشاء بعض العناصر المعمارية الراقية فى معبد أوام إلى الجنوب الشرقى من مأرب والذى أشرنا من قبل إلى بداية إنشائه فى عهود المكربين . وهو معبد ذو محيط بيضاوى امتد قطره الطويل نحو مائة متر وامتد قطره القصير مابين ٧١ إلى ٧٥ مترا . وبلغ الارتفاع الحالى لبعض جدرانه الباقية نحو تسعة أمتار ، وبلغ سمك بعض أجزاء جداره الحلفى نحو أربعة أمتار وإن امتلأ داخله بالرديم وكسر الأحجار .

ولم يتميز هذا البناء بضخامته فقط وإنما تميز كذلك بفخامته ، ولهذا فما من بأس فى استعراض بعض أجزائه كنموذج لفن العمارة السبأية فى أيامه .

تقدمت هذا المعبد صفة أو سقيفة تحمل سقفها صف من ثمانية أعمدة حجرية ، كل منها حجر واحد قائم يبلغ ارتفاعه نحو ٧,٦٥ م . ويتلوها مدخل ذو صرحين مرتفعين يؤدى إلى بهو ضخم حفت بصفاته الداخلية وحملت سقوفها أعمدة حجرية كبيرة بقيت بعض أجزائها ، وكانت تبلغ ٣٢

عموداً وشكلت فى الجدران الداخلة لهذا البهو ٦٤ نافذة حجرية وهمية متتابعة قلد بناؤها فى أحجارها هيئة النوافذ الخشبية الشبكية فى إتقان بارع .

ويفترض مكتشفو المعبد أن واجهة المدخل المؤدى إلى هذا البهو وأخشاب بابه بل وأرضيته ودرجات سلمه الرئيسى كانت مكسوة فى بعض مواضعها بصفائح عريضة من البرونز تعبيرا عن الثراء . ويعتقد أحدهم (جام) أن الدرج المؤدى إليه كانت تتوسطه نافورة تصب ماءها فى حوض برونزى كبير يواجه المدخل . بينما يفترض غيره (آلبرايت) وجودخزان لماء فوق صرحى المدخل كان يملأ من بئر فى داخل المعبد ثم تجرى مياهه فى مجار تمر خلال أرضية المعبد لتصب فى الحوض البرونزى الكبير ثم يعاد توزيعها مرة أخرى فى الأغراض التى خصصت من أجلها .

وعثر فى المعبد . وعلى جوانب مدخل البهو خاصة على عدد كبير من النصب الحجريه المنقوشة وعدد كبير آخر من التماثيل البرونزية الصغيرة والكبيرة مثلت أصحابها الأثرياء . ونقشت على هذه وتلك عبارات التعبد والإهداء إلى « إلمقه » صاحب معبد أوام . وقلدت بعض النماذج الطيبة منها أساليب الفن الفينيقى والفن الهيلينستى .

وما من شك فى أن الصورة الإجمالية التى صورها مكتشفو مدخل هذا المعبد . والتى قدمنا جزءاً منها . تدل على ما كانت عليه بقيته التى لم تكتشف حتى الآن من روعة وفخامة . وتدل بالتالى على ثراء العهود التى بنى فيها وهى عهود أسلفنا أن أقدمها يرجع إلى عهود المكربين وأن أوسطها يرجع إلى العصر الملكى السبأى منذ بداية القـــرن الرابع ق.م. . بينما يرجع أحدثها إلى القرن الأول الميلادى . وتخرب المعبد فى أواخر العصور السبأية وقام مصنع فى صفته الغربية . كما استخدم سورا لمنطقته حين قل سكانها بعد أن تخرب سد مأرب . وتناثرت حوله المقابر والمساكن ، ثم تحول إلى حصن فى العصور الإسلامية .

وتوفر لبقية معابد سبأ ما توفر فى غيرها من طقوس وثروات وممتلكات بما يتناسب مع قدرات منشئيها ومدى أهمية المناطق التى نشأت فيها . وانتفع

أغلبها باعتقاد أتباعها فى التابؤات (وهى رجم بالغيب) عن طريق وسطاء من الكهنة . وهو ماكانوا يسمونه باسم « مسأل » . وإلى جانب ماتتلقاه هذه المعابد من النذور والقرابين والأضاحى من الدولة . كان بعض أثرياء مريديها يسجلون على أنفسهم حججاً أو أوقافاً مع الكهنة يلتزمون فيها بأداء قرابين معينة ويتوقعون . أو يتوقع لهم الكهنة بمعنى أصح . سوء المصير إن هم تخلفوا عن أدائها .

وتقبلت سبأ من عقائد جيرانها فى عصرها الملكى تسمية « ذ سموى» أو ذوسماوى بمعنى سيد السماء أو رب السماء . وقد ورد اسمه أصلاضمن نصوص عشيرة معينية قديمة خضعت للسبأيين وهى عشيرة الحنكانيين الذين نسبت إليهم مدينة حنان . وعلى الرغم من أنهم أدخلوا ذسموى هذا ضمن عقائد التعدد الفاشية بينهم إلا أن من الباحثين من يرى فيه تطوراً فى تفكيرهم . وذلك على اعتبار أنه إلى جانب اعتقادهم بوجود معبود لكل كوكب كبير فى السماء . جعلوا من ذ سموى هذا معبودا للسماء كلها كوحدة واحـــدة .

وإذا كانت هذه بعض نواحى الازدهار العمرانى والإدارى فى سبأ فى عصرها الملكى . فقد مرت فى أواخر هذا العصر بمشكلات خارجية وداخلية عدة كان عليها أن تواجهها بما يناسبها .

وترتبت أهم المشكلات الخارجية على رغبة قادة الإغريق وتجارهم فى مشاركة العرب فى الانتفاع بتجارة البخور والتوابل عن طريق البحر الأحمر وما يتصل به من تجارة المحيط الهندى أو احتكارها وحرمانهم منها . وأطلت هذه الرغبة برأسها منذ عهد الاسكندر الأكبر المقدونى الذى تطلع بعد أن دانت له دولة بابل حتى الخليج العربى . إلى السيطرة على تجارة بحار العرب واحتكار تجارة الهند . فأرسل فى عامه الأخير ثلاث بعثات بحرية كبيرة تجوب البحار وتتعرف على مواطن الضعف ومواطن الاستغلال فى السواحل التى تحيط بشبه الجزيرة العربية . وبدأت هذه البعثات الملاحية رحلتها من الخليج العربى ولكنها لم تتقدم كثيراً إذ بلغت أكثرها نجاحاً(بقيادة Hieron) رأس الخيمة Maket . وقيل إن الاسكندر أمر كذلك بخروج بعثة بحرية

من مصر عن طريق البحر الأحمر . ولكنها تعثرت هى الأخرى وربما بلغت باب المندب أو لم تبلغه .

وعندما تقاسم قادة الاسكندر المقدونى حكم أقطار الشرق القديم بعد وفاته ، وحينما استقر البطالمة فى مصر فى أواخر القرن الرابع ق. م . كان من سياستهم أن يستغلوا السواحل الطويلة المطلة على البحر الأحمر إلى أقصى الحدود . وأن يحققوا آمال الاسكندر لمصلحتهم بخطوات متئدة عملية لم يكن تأثر عرب الجنوب بنتائجها محسوساً على درجة واحدة دائماً . ويمكن إيجاز مراحلها الأولى فيما يلى :

(أ) أرسل أحد البطالمة الأوائل ، ولعله بطلميوس الأول أو الثانى قائداً من قادة البحر يدعى Ariston فى بعثة بحرية استطلاعية ليتعرف على سواحل بلاد العرب وطبيعة الملاحة فى بحارها . فطاف بجزء كبير منها . ولما عاد إلى الاسكندرية قدم إلى دولته تقريراً مفصلا عما شاهده ولاحظه فى رحلته من الموانىء الشمالية والجنوبية .

(ب) جددت فى عصر البطالمة بعض الموانىء المصرية المطلة على البحر الأحمر وأنشىء بعض آخر ، حتى تستعد لاستقبال المزيد من متاجر هذا البحر وتصديرها . (ومنها ميناء أرسينوى فى نهاية خليج السويس ، وميناء ميوس هرميس قرب ميناء القصير الحالية ، وميناء برينيكى إلى الشرق من أسوان) .

(جـ) العمل على تأمين السيطرة على خليج العقبة باعتباره مخرج تجارة البحر الأحمر المتجهة (براً) إلى جنوب بلاد الشام .

(د) زيادة الأساطيل البطلمية المقاتلة فى البحر الأحمر لتأمين السفن والمصالح التجارية فيه . وتشجيع الوسطاء على التعامل معها . وصرفهم عن الاعتماد على نقل المتاجر بالطرق البرية التى أشرف عليها العرب الشماليون والجنوبيون فى شبه الجزيرة .

(هـ) تشجيع الجاليات الإغريقية التجارية على استيطان موانىء البحر

الأحمر وجزره .. وقد تحدث عنها وعن بعض المواطن التى نزلت بها على الشاطىء العربى الرحالة Agatharchides فى منتصف القـــرن الثانى ق.م. ووصلت بعض هذه الجاليات حتى جزيرة سوقطرى فى البحر العربى . وشاركوا العرب والهنود فى سكناها . كما شاركوهم فى نقل تجارة الهند وسواحل شرق أفريقيا .

وأدت هذه الخطوات المتتابعة إلى نتيجتين مختلفتين على المدى البعيد بالنسبة لدول شبه الجزيرة العربية . فانتفع بها أهل السواحل وازدهرت تجارة موانيهم الجنوبية والجنوبية الغربية . مثل ميناء قنأ فى حضرموت . وميناء عدن . وميناء موزا فى المنطقة التى تقاسمتها كل من قتبان وأوسان وحمير (ثم ورثها سبأ) . بينما تأثرت بعض التىء اقتصاديات الدول العربية الداخلية التى اعتمدت على استغلال قوافل الطرق البرية ولا سيما الطريق الرئيسى الممتد من جنوب شبه الجزيره عبر الحجاز حتى العقبة وما وراءها فى سيناء أو فى جنوب الشام . وإن ظل تأثرها حتى المرحلة التى وقفنا عندها . محـــدودا .

وكان من أكثر المستغلين لنتائج هذه التطورات قبائل حمير التى أطلت على سواحل البحر الأحمر الجنوبية الغربية . واستفادت من نشاط التجارة البحرية فى موانيها لاسيما عدن وموزا (موشج) وميناء أخرى ذكرها رحالة الإغريق باسم أوكيليس .

ويبدو أن حمير كانت تمثل الفئة الحاكمة لحلف قبلى تداخل مع بعضه بدوافع المصلحة المشتركة ورابطة الدم والموقع . وقد صورتها المصادر العربية تنقسم إلى قبائل صغيرة تعيش حول خليج بناحية ظفار ورداع (أى تجاور أوسان) وتمتد شرقاً فى سرو حمير ونجد حمير . وقد أسلفنا أن هذه القبائل اعترفت بسيادة دولة قتبان منذ القرن الرابع ق.م. بحيث أطلقت بعض النصوص على أهلها لقب « ولد عم » مثل القتبانيين . وبحيث أصبح حصنهم الرئيسى يسمى « ريدان » تقليدا لاسم حصن ريدان القتبانى . ولكن الأمور تطورت إلى مصلحة حمير بعد ازدياد النشاط البحرى على سواحلها ؛ فأخذت تعمل لصالحها .

ونشأت ظاهرة جديرة بالاعتبار ربط بعض الباحثين بينها وبين نهضة حمير . وهي أن المصادر العربية القديمة لم تنسب أحداثها إلى تاريخ ثابت (كالتاريخ الميلادى أو التاريخ الهجرى الحاليين) إلا فى نحو سبعة نصوص متباعدة عرفت حتى الآن . وأدت الدراسات المقارنة إلى تعيين عام البداية للتاريخ الثابت الذى ردت هذه النصوص السبعة أحداثها إليه بعام ١١٥ ق.م. (أو عام ١٠٩ ق.م.) . ولكن تعددت النظريات فى تعيين المناسبة الهامة التى ارتبطت بها هذه البداية ، ومالت أحدث هذه النظريات إلى ربطها باتحاد حمير فى كيان واحد ، وحلت بذلك محل نظرية أخرى سبقتها كانت تربط بينها وبين نشأة مملكة سبأ ودوريدان ، الأمر الذى دعا إلى اعادة ترتيب أحداث الجنوب على أساس جديد وهو ماسوف نأخذ به فيما يلى .

وقد مر بنا كيف اتجهت حمير بقبائلها المتحدة إلى الانقلاب على دولة قتبان واستقلت عنها فى القرن الأول ق . م . وكانت سبباً فى إضعافها ، وكيف دخلت فى بعض الحروب ضد دولة حضرموت ، ثم أخذت تتحين الفرص لإثبات كيانها إزاء جارتها العجوز مملكة سبأ .

وكانت سبأ تشق طريقها فى جهد ، وعانت بعض الوقت من تضييق جارتها قتبان ومعين ، ولكنها قاومت وبدأت بمعين فقضت على استقلالها كما أسلفنا ، وأسكنت مجموعات من السبأيين فى بعض مدنها . ولكنها لم تنتفع طويلا بنصرها . إذ هددها خطر خارجى ربما لم تكن تحسب حسابه .

ونعود إلى العوامل الخارجية أو المنافسات الخارجية لنجد أن خطوتها الفاصلة بدأت منذ امتد اهتمام البطالمة الأواخر من رغبة الإشراف على البحر الأحمر وتجارته إلى رغبة الإشراف على تجارة المحيط الهندى الذى كانوا يدركون أن كثيرا مما يأتيهم به التجار العرب من متاجر إنما يأتى عن طريقهم من الهند ، فودوا أن يوجهوا سفنهم إليها دون وساطة . وسجل المؤرخون خبر واحدة من أولى الرحلات التى نجحت فى تحقيق هذه الرغبة ، وقد تراسها ملاح يدعى يودوكسوس الكيزيكى Eudoxus of Cyzicus وبلغ بها الهند حوالى عام ١١٧ ق م . وتعددت بعدها رحلات تجارية

الإغريق والبطالمة وساعد على نجاحها اهتـــداء اليونانى هيبالوس Hippalus إلى إمكان استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية خلال الصيف (من يونيو إلى أكتوبر) فى تقصير أمد الرحلة من البحر الأحمر إلى سواحل الهند فى عرض المحيط مباشرة دون ضرورة إلى التزام خطوط سواحله الطويلة .

وأعقب البطالمة منافس أشد خطراً منهم وتمثل فى النفوذ الرومانى فى عهد الامبراطور أوجسطوس (أوكتافيوس) الذى أصبح يسيطر على أغلب مناطق العالم القديم دون منازع منذ أواخر القرن الأول ق . م . ولم يكتف أوجسطوس بالنشاط العادى الذى يقوم به أعوانه من الإغريق والرومان فى تجارة الهند والبحر الأحمر . وأراد أن يقصى العرب عن هذه التجارة جملة أو يجعلهم يعملون لصالحه فيها . أو يسيطر على أرضهم جيوشه .

وكانت الصورة البراقة المسرفة التى أشاعها الرحالة والمؤرخون الإغريق والرومان فى عالمهم الغربى عن ثراء بلاد العرب مما شجع على هذه الرغبة فقد كتب الرحالة الجغرافى استرابون مايقول إن السبأيين والجرهائيين فى عصره كانوا من أكثر القبائل ثراء نتيجة لتجارتهم فى الموادالعطرية . ولهذا توفرت لديهم كميات كبيرة من مصنوعات الذهب والفضة كالأسرة والموائد الصغيرة والأوانى والكؤوس . فضلا عن قصورهم الرائعة التى كانت ابوابها وجدرانها وسقوفها مختلفة الألوان . يرصعون بعضها بالعاج والذهب والفضة والأحجار الكريمة . . . إلخ .

وليس من ضرورة بطبيعة الحال إلى تصديق هذا التصوير بحذافيره ، ولكنه كان كافياً لإثارة أطماع ساسة الرومان الطموحين إلى السيطرة والاستغلال . ولم يعدم أولئك الساسة والتجار تقديم المبررات لأطماعهم ، وصور استرابون بعضها فادعى أن أهل العربية السعيدة كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارتهم مع الأغراب والرومان فلا يتركون لهم ولا للبلاد التى ينقلون تجارتهم إليها مجالا للكسب أو الثراء .

وهكذا صدر أمر الامبراطور أوجسطوس إلى نائبه الرومانى على مصر آيليوس جاللوس (Aelius Gallus) بمهمـــة إرهاب العـــرب أو

احتلال أرضهم . وترأس جيشاً كثيفاً وانضم إليه عدد كبير من اليهود ومن الأنباط حلفاء الرومان . وخرج الجيش فى عام ٢٤ق.م. على متن أسطول كبير (قيل إنه تألف من ١٣٠ سفينة) من خليج السويس واتجه فى البحر الأحمر حتى Leuke Kome ولعلهـــا هى ميناء الحوراء أو أملج الحالية التى استغلها قوم مدين فى عصورهم القديمة ثم خضعت لنفوذ الأنباط . وسلكت جيوش جاللوس بعدها سبيل البر خلال ساحل الحجاز وتهامة اليمن وخربت فى طريقها مدناً كثيرة . وعندما وصلت إلى الجنوب بدأت بتخريب مدن دولة معين القديمة التى أصبحت سبأ مسئولة عنها . وروى استرابون أن ملك نجران فر حين اقتراب قوات الرومان ، وفتحت يثل أبوابها ودمر الغزاة مدن نشق ونشان وكمنة ولبة وحريب وحاصروا مأرب . ولكن حملتهم باءت فى نهاية أمرها بالفشل ولم تتعد مأرب ، وفقدت كثيراً من سفنها ومن رجالها . وكان قد صحبها رجلان اهتم التاريخ بهما . استرابون الجغرافى الرحالة الذى روى أحداثها (من وجهة نظره) وكان صديقاً شخصياً للقائد جاللوس ، ثم رجل آخر اختلف الحكم عليه ، وهو رجل من الأنباط ترأس قومه الذين رافقوا الحملة واعتبره الرومان دليلا لهم على أساس خبرته بالطرق البرية فى شبه الجزيرة وخبرته بطرق العرب فى القتال ، وقد ذكره أسترابون باسم سلياوُوس وهو اسم قد يكون محرفاً عن اسم صالح أو سلى أو سلاء (يراجع عنه بعده) .

ورجعت أسباب فشل حملة جاللوس إلى عدة عوامل ذكر استرابون بعضها . ومنها عدم كفاية جاللوس فى قيادة البحر وتنظيم الأسطول بحيث فقد كثيراً من سفنه قبل أن يصل بها إلى ميناء الحوراء . وإنفاقه أغلب جهده فى إعداد سفن مقاتلة لم تكن لها ضرورة ملحة فى حملته لأنه لم يكن من المنتظر أن يقاتله العرب فى البحر . ولعله عدل لهذا الى طريق البر وسار بجيشه فى طرق صحراوية وجبلية طويلة وعرة تمتد نحو ١٢٠٠ ميل من الحوراء أو أملج إلى داخل اليمن ، وكان يستطيع أن يتابع طريقه فى البحر مادام قد بدأه حتى ساحل اليمن . وقلة الماء خلال حصار مأرب ، وتفشى الجوع والأوبئة حولها ، فضلا عن عدم إخلاص الدليل النبطى فى النصيحة للرومان .

وإذا زدنا شيئاً على تحليل استرابون فهو وضع مقاومة العرب لجيوش الرومان موضع الاعتبار فى عدة معارك كانت إحداها عند نهر ذكره استرابون وقد يكون هو غيل خارد ، وشدة تحصن السبأيين فى عاصمتهم مأرب ومقاومتهم للحصار الرومانى . وأخيراً تفسير عدم إخلاص الدليل النبطى للرومان برغبته فى الوفاء لبنى عمومته العرب مما خيب آمال السادة الرومان.

ويبدو أن تجار الرومان قد وجدوا سبيلهم بعد ذلك إلى موانىء بلاد العرب الجنوبية عن طرق أخرى غير طرق الحرب ، فتحالفوا كما يفهم من بعض الروايات المتأخرة مع أمير ظفار الحميرى على أن يقدم لهم بعض الامتيازات الإقليمية ، وربما نجحوا فى أن يتركوا بميناء عدن جالية أو حامية رومانية تساعد سفنهم ضد أخطار القرصنة فى البحر وتشرف على مصالحهم التجارية .

واستردت دولة سبأ كيانها بعد فشل الحملة الرومانية ، وانفسح السبيل أمامها فى الداخل بعد أن انكمش نشاط دولة قتبان وخسرت كيانها السياسى شيئاً فشيئاً تحت تأثير ضربات السبأيين والحضرميين والحميريين خلال القرن الأول الميلادى وبعده بقليل ، كما مر بنا من قبل .

ولكن سبأ لم تنتفع بهدوئها طويلا ، وأخذت المشكلات الحدودية والداخلية تعمل عملها السيء فيها ، الأمر الذى قلل من هيبتها أمام القوتين الباقيتين فى ميدان المنافسة أمامها فى جنوب شبه الجزيرة وهما قوة حمير وقوة حضرموت ، ثم مهد لعصر جديد من عصورها المتميزة وهو عصر ملوك سبأ وذوريدان موضوع البحث التالى .

* * *

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

Bowen, Albright and Others, op. cit.

Jamme, A., Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis, Baltimore, 1961.

Philby, op. cit., 64–76.

Phillips, op. cit., 279f.

Ryckmans, J., op. cit.,

جواد علي : المرجع السابق ، مادة مملكة سبأ .

نيلسن وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٨٧ — ٨٨ ، ٢٩١ — ٢٩٣ .

الفصل العاشر

دولة سبأ وذو ريدان
وسيطرة حمير

اختلفت نشأة هذه الدولة عن نشأة غيرها من الدول في أنها لم تبدأ ببداية زاهرة ، وإنما قامت خلال ظروف مضطربة استمرت أكثر من قرن ونصف القرن بين عام ٩٠ م وعام ٢٦٥ م . وهي ظروف لازالت تفاصيلها خافية ونصوصها متضاربة .

وكانت قد ظهرت بين القبائل العربية الجنوبية والوسطى خلال القرن الأول الميلادي روح من التنافس الشديد ورغبة الانتشار وأطماع الرياسة والسيادة . لأسباب غير محددة ؛ قد تكون منها تلك المحنة التي هزت كيان دولة سبأ خلال الحملة الرومانية عليها . ورؤية دول الجنوب تنهار واحدة بعد واحدة لسبب أو لآخر ، وزيادة ثراء بعض المناطق مع افتقار مناطق أخرى نتيجة للمنافسة بين التجارة البحرية والتجارة البرية . وقد يكون منها كذلك ماجد من انتشار الخيول والقوات الراكبة بين رجال القبائل وما أدى إليه هذا من سرعة الحركة والكر والفر والشعور بالزهو . وهلم جرا .

وكانت أكثر القبائل السبأية شهرة خارج مأرب هي قبائل مرثد وجرت التي ارتبطت بأسرة ملوك سبأ بروابط الأصل والنسب . ولهذا طلت صلات المودة عالية بينها وبينهم . ولكن هذا لم يمنع بعض حكامها الكبار الذين كانوا يتلقبون من قبل بألقاب الأقيان أو الأقيال من أن يتلقبوا بلقب «ملك» بين حين وآخر ، بل ولقب « ملك سبأ » أيضاً . الأمر الذي تقبله الملك السبأي الشرعي في مأرب ، في بعض الحالات . على مضض حتى يبقوا مساندين له.

وفى الوقت نفسه ظلت أكثر القبائل القريبة من مأرب ، عدداً وبأساً ، هى قبائل سمعى التى ضمت أثلاث : سخيم ، وبتع ، وهمدان (والأخيرة هى التى انتسب إليها فيما بعد الرحالة أبو محمد الحسن الهمدانى أشهر من كتب فى العصور الإسلامية عن جغرافية شبه الجزيرة العربية وتاريخها) .

وكيفت هذه القبائل مسلكها إزاء سبأ بما يتفق مع مصالحها والظروف التى عاشت فيها ، فظلت موالية للدولة فى عهود قوتها ، واستمرت كذلك حتى رأت الأطماع تحيط بها ، فبدأت تتحين الفرصة لإثبات كيانها الذاتى تحت زعامة بيت حكم كبير فيها انتسب إلى جد أكبر يدعى « أعين » . وجد أصغر يدعى « أوسلات رفشان » .

وفى حمأة هذه الأطماع والملابسات الداخلية التى مهدت لتمزق الكيان السبأى ، كانت قبائل حمير قد شقت طريقها حتى حدود سبأ ، واتخذت عاصمتها فى مدينة ظفار التى نشأت فى منطقة خصبة قرب مدينة يريم الحالية ، وحمتها عدة حصون قامت على التلال التى تحيط بها . وكان حصن ريدان أكبرها ، فأصبح حصنها الملكى . وانتسب إليه ملوكها فى لقبهم الذى اشتهروا به وهو « ذوريدان » .

وفجأة ظهر فى نصوص هذا العصر المضطرب مايدل على أنه قامت فى كل من مأرب وظفار أسرة حاكمة ادعى ملوكها لأنفسهم لقب « ملك سبأ وذوريدان » كل على حدة . وفى تفسير هذه الظاهرة افترض الباحث فون فيسمان أن مأرب عاصمة سبأ تعرضت لهجوم من قبل ملك ريدان الحميرى فى نهاية القرن الميلادى الأول ، وحينما انتصر عليها أضاف اسمها إلى لقبه ، ولكن تقديره لمكانة سبأ التاريخية والدينية جعله يقدم اسمها فى مقدمة هذا اللقب . وإن لم يطل حكمه . وعز على القبائل المحيطة بمأرب ماصارت إليه فعملوا على إجلاء الملك الحميرى عنها وأعادوا إليها الملك السبأى المنهزم أو رجلا من أسرته اتخذ هو الآخر لقب « ملك سبأ وذوريدان » فى الوقت الذى لم يتنازل فيه الملك الحميرى فى ظفار عن لقبه المزدوج .

ومع التجاوز عن الأسماء العديدة التى أتت النصوص بها ، مراعاة

للتخفيف موقتاً . تكفى الإشارة إلى أنه كان من أصحاب الفضل فى إعادة الملكية الشرعية إلى مأرب زعيم قبائل بتع ، وزعيمان لقبيلتى مرثد وجرت ، وقد عمل كل منهم من ناحيته . ولم يكن عمله بغير ثمن ، فقد تلقب كل من الثلاثة بمثل لقب ملك مأرب العائد ، أى « ملك سبأ » .

وعمل الهمدانيون على أن يكون لهم بدورهم نصيب فى ألقاب العصر وزعامته . وكان قد ترأسهم بعد أوسلات رفشان ولداه « يرم أيمن » و« بارج يهرحب » ، وقد مثلا ملك سبأ فى عقد صلح أنهى حروباً متقطعة قامت بينه وبين دولة حضرموت والحميريين والقتبانيين (الذين كانت دولتهم تلفظ أنفاسها الأخيرة) . وكان الجزاء على عقد الصلح أن تلقب أكبر الأخوين يرم أيمن بلقب ملك وأورثه لولده .

وهكذا شهد العصر (فى منتصف القرن الثانى الميلادى) أربع أسر إقليمية أو قبلية ادعى كل رئيس فيها لقب « ملك سبأ » ، وذلك إلى جانب ملك مأرب الشرعى صاحب لقب « ملك سبأ وذوريدان » ، فى دولة كانت تسيطر عليها من قبل مملكة واحدة .

وإلى جانب هؤلاء الملوك الخمسة كانت هناك ملكية حمير التى تمسكت هى الأخرى بلقب « ملك سبأ وذوريدان » وحاولت أن تحققه على حساب هذه الأطراف جميعاً .

وهنا تصدى زعيم همدان « علهان نهفان » الذى شارك أباه يرم أيمن فى رئاسة قومه وفى لقب الملك ، لمواجهة الأزمة . وتلمس الحلفاء حوله ، ووجد بعضهم فى خصوم الأمس . فتحالف مع دولة حضرموت ، ومع جماعات حبشية ذكرتها النصوص تحت زعامة « جدرت ملك حبشت » أو جدورة ملك الحبشة أو الحبش . واختلفت آراء الباحثين فى تحديد أصل هذه الجماعات . فذهب رأى إلى اعتبارهم فرعاً من سكان جنوب اليمن أو تهامة الأصليين نزح بعضهم إلى الساحل الأفريقى المواجه لهم وكان لهم أثر فى تكوين جماعات الجعزيين الأحرار الذين نشروا اللغة السامية فى الحبشة ، وقد عرفوا عند العرب حينذاك بتسمية الحبش على جانبى البحر

الأحمر . وذهب رأى ثان إلى اعتبارهم مولدين من مهاجرين أحباش إلى سواحل تهامة تكاثروا عليها ثم عملوا لمصلحتهم فى فترات التمزق الداخلى بالانحياز إلى فريق ضد فريق . وذهب رأى ثالث إلى اعتبارهم غزاة من الحبشة استغلوا فترات التفكك التى عمت المناطق اليمنية فاحتلوا مناطق ساحلية واسعة من شمال جيزان وعسير وجزء من ساحل الحجاز ، رداً على التوغل الاقتصادى والبشرى العربى على الساحل الأفريقى ، وللسيطرة الكاملة على التجارة الأفريقية المنقولة بالوساطة إلى الساحل العربى بعد أن فشلت الحملة الرومانية فى السيطرة عليها . وأيا ماكان من هذه التفسيرات فإنها لا تخفى حقيقة واقعة وهى أن تمزق أهل الدولة الواحدة وتضارب مطامع زعمائها وتغليب المصالح القبلية أو الإقليمية فيها على حساب الصالح العام ، كل دلك كان سبيلا إلى تدخل الأغراب فى أمورها .

وجدير بالذكر أن النصوص الجنوبية أخذت تشير فى هذه الفترة إلى دور الأعراب أهل البادية باسم « أعرب » وإلى انضمامهم إلى هذا الفريق أو ذاك . ويبدو أنه أصبح لهم دور كبير فى فرق الخيالة أو الفرق الراكبة فى الحروب .

ولم يتحقق أمل علهان نهفان فى إعادة هيبة دولة سبأ وريدان ، إلا فى عهد ولده « شعر أوتر » الذى أضاف إلى هذا الأمل هدفاً آخر وهو تحرير الأراضى التى سيطر الحبش عليها ولو استدعى الأمر أن يقاتل معهم من كانوا يحالفونهم من القبائل العربية الأصيلة . وقد نجح فى تنفيذ أغلب هدفيه وبسط سلطانه على أغلب اليمن وشماله ، فى أواخر القرن الثانى الميلادى .

ولكن نجاح شعر أوتر كان رهيناً بشخصه ، وبعد وفاته عادت الحروب بين السبأيين وبين الحميريين لسنوات طويلة . وتحالف الحميريون فيها مع الأحباش أو الأكسوميين الأفريقيين فى عهد ملكهم عذبه أو عذابا . ويبدو أن هؤلاء الأحباش خططوا للعمل لمصالحهم الخاصة ووجدوا عوناً أو تحريضاً من الرومان الذين تلاقت مصالحهم معهم فى استغلال تجارة البحر

الأحمر وتقليل نصيب العرب منها . ولم ينقذ الجنوب منهم إلا وفاة عاهله الأكسومى أو الحبشى وقيام الاضطرابات فى بلده بعد وفاته .

تلك كانت مجرد نماذج من فترات التشتت والصراع والمد والجذر التى شهدتها دولة سبأ وجيرانها ، وقد تكررت أمثالها وتغيرت مواقع الأطراف فيها بين تحالف وتخاصم عدة مرات خلال القرون الثلاثة الميلادية الأولى . والغريب، أنه على الرغم من ذلك كله ، وعلى الرغم من منافسة ظفار الحميرية لمأرب السبأية فى شئون التجارة والسياسة ، ومنافسة ذمار (قرب صنعاء) لمأرب أيضاً فى شئون العمران - ظلت أوجه النشاط الإنتاجى والتجارى قائمة إلى حد ما . وظلت تثير اهتمام المؤرخين والرحالة الكلاسيكيين المعاصرين لها

ففى أوائل هذا العصر المضطرب تمت إعادة بناء الهويس الشمالى من سد مأرب (فى الفترة بين عامى ١٠٠ ١٢٠ م) بعد انهياره الأول المعروف. وإلى هذه الفتره نسب الأخباريون العرب تشييد قصر غمدان الذى أسرفوا فى وصفه وتمجيد صاحبه إيل شرح يحضب ملك مرثد — وقد احترق القصر ، ثم تم تدميره فى بداية العصور الإسلامية وأصبح تلا خربا .

ونسب إلى عهد هذا الملك فى نهاية القرن الميلادى الثانى إرسال بعثة إلى ملوك غسان والأزد ونزار ومذحج وهى من أقدم المرات التى ذكرت فيها أسماء هذه القبائل .

وفى أوائل هذا العصر أيضا ، خلال القرن الأول الميلادى ، ذكر الرحالة بلينى فى كتابه عن التاريخ الطبيعى أمرين متقابلين ، ذكر فى أولهما أن السفن التابعة للرومان كانت تخرج من برينيكى (قرب أسوان فى مصر على البحر الأحمر) إلى ميناء أوكيليس على مضيق باب المندب ، أو إلى قنا فى منطقة الكندر دون توقف ، ومن هناك إلى الهند رأساً ودون وساطة العرب . ولكنه أضاف إلى ذلك أمراً آخر وهو أن العرب ظلوا من أغنى الأمم لتدفق الثروة من روما وبارثيا إليهم وتكدسها بين أيديهم. فهم يبيعون ما يحصلون عليه من (تجارة) البحر ومن (إنتاج) غاباتهم

ولا يشترون شيئاً فى مقابله . وذكر أن السبأيين كانوا أعظم القبائل ثراء مما تنتجه غاباتهم من البخور . وما يملكونه من مناجم الذهب ، وما يوجد عندهم من الأراضى الزراعية . وما ينتجونه من الحبوب والكروم والعسل . . الخ .

وفى تصويره لمدى استهلاك العالم الخارجى لمنتجات جنوب شبه الجزيرة . روى بلينى أن جنازة Poppaea فى روما قد استنفدت مايساوى الإنتاج السنوى للعربية السعيدة . وروى أنه ترتب على ازدياد استهلاك البخور والصموغ فى أيامه . أن أصبح الصمغ يجمع مرتين فى العام دون أن يترك التجار الوقت الكافى لسيقانه لكى تنضج .

وهكذا يبدو أن تجار الإغريق والرومان وإن سيطروا على أغلب تجارة الهند فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، فقد ظل العرب ينتفعون ببيعها ويقومون بنقل منتجاتهم الخاصة من البخور والصموغ ومشتقاتها بقوافل الإبل ويعملون على تصريفها ويجنون أرباحها . وهو أمر لم ينتفع به الجنوبيون وحدهم،وإنما انتفع به العرب الشماليون أيضاً لفترات طويلة مما سنعود إلى ذكره فيما بعد .

بل إن السفن الإغريقية والرومانية وإن عرفت الطريق البحرى القصير المباشر إلى الهند، إلا أنها ظلت تلجأ إلى الموانىء العربية من حين إلى آخر للاتجار معها مباشرة ، أو للراحة فيها والتزود منها بالماء والزاد خلال رحلاتها الطويلة إلى سواحل الهند وعودتها منها . بل وظلت تسمح لبعض السفن العربية بالاشتراك معها فى التجارة ، وذلك مما يعنى أنها لم تقاطعها جملة ولم تحرمها من التجارة جملة . وقد كان للحميريين على ساحل البحر الاحمر وساحل البحر العربى أسطول تجارى ضخم لايمكن تجاهله .

وأدت هذه الأوضاع إلى أن ورد فى كتاب الطواف حول البحر الإريترى Periplus Maris Erythraei من حديثه عن جنوب شبه الجزيرة فى حوالى عام ٢٢٠ م . ماسبق أن استشهدنا به منه عن ازدهار ميناء « قنا » الحضرمية ، وتجارتها الواسعة مع عمان وبارثيا والهند . وقد

ذكر نفس الأمر عن ميناء موزا (موشج أو المخا) فقال إنها ميناء عامرة دائماً بأصحاب السفن والملاحين العرب ، وفى شغل شاغل بشئون التجارة ، ويتعامل أهلها مع الساحل البعيد (الأفريقى ؟) ومع بريجازا (فى حوض السند) ويرسلون سفنهم إليهما .

وهكذا احتفظ العرب بنشاطهم على الساحل الأفريقى ، لا سيما فى منطقته المعروفة باسم رأس التوابل ، وفى منطقة الصومال ، وعلى ساحل الحبشة ، وامتد نشاطهم إلى ميناء رهابتا (وقد تكون ربطة العربية) بجوار زنزبار ، وذكر مؤلف كتاب الطواف أن رهابتا هذه ظلت تعترف بالسيادة لأمير معافر الحميرى « بحكم امتياز قديم أخضع ساحلها لنفوذ دولة قديمة فى بلاد العرب (وهى دولة أوسان) وأن طائفة من تجار ميناء موزا الحميرية كانوا يعملون باسم أميرهم فيها ويسيطرون على تجارتها ويتزاوجون مع أهلها » .

وظل للعرب نشاطهم فى جزر البحر العربى (أو المحيط الهندى) القريبة منهم مثل جزيرة سوقطرى (دفيبا سخترا = ديوس كوريديس = الجزيرة السعيدة) . وذكر مؤلف الكتاب السابق أنها كانت تابعة للملك اللبان يعنى بذلك ملك حضرموت ، وأنه كان يسكن على ساحلها الشمالى تجار من العرب والهنود والإغريق .

وليس من شك فى أنه لو توافر للمناطق العربية الجنوبية سلامها القديم عوضاً عن الاضطرابات التى مزقت شملها فى هذه الفترة لاستطاعت أن تحقق أضعاف مااستشهدنا به من روايات المؤرخين والرحالة عنها — ولكن هذا الذى استشهدنا به كاف للدلالة على أنه كان لايزال بها من الإمكانات ما تستطيع أن تستعيد به أمجادها القديمة أو بعضها على أقل تقدير .

وإذا كانت مأرب قد استنفذت جزءاً كبيراً من طاقتها بعد كفاحها الطويل فى سبيل البقاء . فقد بقى على « ظفار » أن تقوم بدورها ، وقد مالت موازين القوى النسبية إليها بالفعل منذ النصف الثانى للقرن الثالث الميلادى . وبجوارها قام حصن ريدان الملكى الذى نافس حصن سلحين السبأى المجاور لمأرب . وقد اعتبر الاخباريون العرب الحصنين قصرين

وأشادوا بما فيهما من فخامة وروعة ما وسعتهم الإشادة . وضموا إلى ذكر قصر ريدان قصراً فخما آخر ذكروه باسم « شوحطان » .

نهضة حمير ومملكة سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنة :

مهدت الفترة السابقة لسيادة أسرة حميرية ريدانية تنسب إلى إيل عز نوفان يهصدق . أو إلى ولده الأوسع شهرة منه « ياسر يهنعم » الثاني الذى حرف بعض الأخباريين إسمه إلى ناشر النعم اليعفرى . وذكر عبيد بن شرية أنه سمى كذلك واشتهر به لأنه استرجع ملك الحميريين وجمع الأمر لهم . ولما كان رأس أسرة جديدة أسرفت روايات هؤلاء الأخباريين (لاسيما ذوى الأصل اليمنى) فى ذكر مناقبه وفتوحه فروت أنه ضرب فى الشرق والغرب والبر والبحر . بتفاصيل نتجاوز عن ذكرها لعدم ثبوت شيء منها .

وشاركه فى الحكم قبيل عام ٢٧٠ م ولده شمر يهرعش (الثالث) . ثم انفرد بالحكم فى حوالى ٢٩١ — ٣١٦ م ، وتوافرت له شهرة أوسع من شهرة أبيه ، واحتفظت له بعض الأساطير العربية بسمعة عريضة ، فاعتبرته أعقل من حكم . وأطلقت عليه لقب تبع الأكبر . واعتبرته فاتحاً عظيما امتد حكمه فى زعمها إلى أرض بابل وفارس وسمرقند وأرمينيا والصين والتبت . . . إلخ . وعلى الرغم من وضوح عنصر التهويل فيما ادعته هذه الأساطير . فإنه يبدو أنها اعتمدت على نصيب متواضع من الواقع وضخمته باسم القومية فى عصر نشطت فيه قوى خارجية من الفرس والروم والحبشة لتوجيه مصائر الأمة العربية .

فقد حاول شمر يهرعش الثالث أن يحقق الوحدة السياسية لجنوب شبه الجزيرة وأن يزيد من إمكاناته ويوسع من حدوده واتصالاته . فاستولت جيوشه على أجزاء متسعة من دولة حضرموت وتوابعها وإن لم يقض تماماً عليها وبقيت تجاهد فى سبيل البقاء لفترة قصيرة . وتغلبت جيوشه على أقاليم من تهامة واتسعت فى وسط شبه الجزيرة وشمالا فى أرض سهرة وعاك . وربما غزت سواحل الحبشة أو على الأقل ضيقت على مصالح الأحباش فى تجارة

البحر الأحمر . وبلغت إتصالاته الدبلوماسية إلى قطوسف و كوك وتحتمل وجودهما قرب المدائن بين العراق وفارس .

وفى نفس العهد الذى حقق فيه عرب الجنوب نهضتهم على يدى شمر يهرعش الثالث ، كان لعرب الشمال نهضة أخرى لا تقل قيمة عنها على يدى امرىء القيس بن عمرو التنوخى المتوفى عام ٣٢٨ م ، وسوف نتناول تفاصيل نص امرىء القيس المشهور هذا فيما بعد . وتكفى الإشارة هنا إلى ماذكره من أنه أحرز نجاحاً فى حصار نجران مدينة شمر (يهرعش) ، أى الخاضعة له . وأنه شتت قبائل مذحج . وكان شمر يهرعش قد احتضن قبائل مذحج هذه ، ومنها كندة ، واستعان بها فى مهاجمة مناطق التنوخيين قوم منافسه امرىء القيس أو أنصاره على الخليج العربى ، كما وجه نشاطه من صعدة إلى أرض مالك بن كعب ملك أزد السراة .

وشجعت هذه الانتصارات المتوالية شمر يهرعش الثالث على أن يزيد فى ألقاب ملكيته ألقابا أخرى ، فاتخذ لقب « ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنة » حول أواخر القرن الثالث الميلادى ، وكانت يمنة (أو يمانة) فيما يحتمل وأشرنا من قبل هى الجزء الجنوبى من دولة حضرموت . وكان الرجل مصلحاً إلى جانب كونه محارباً ، فبقى من أيامه نص ينظم بيع الرقيق والماشية ، ويحدد المدة التى يكون البائع مسئولا فيها عن الحيوان الذى باعه إذا هلك بسبعة أيام . ويبدو أن هذا النص كان جزءاً من تشريع متكامل صدر فى أيامه .

ومرة أخرى ارتبطت هذه النهضة الحميرية الكبيرة بشخصية شمر يهرعش الثالث (ومن قبله بشخصية أبيه) قبل أى شىء آخر ، بحيث أن بعض أقاليم دولته فى حضرموت وفى تهامة ، حاولت الانسلاخ عنها فى أواخر أيامه أى عندما شاخ عهده . وربما ردها إلى طاعته ولكن إلى حين .

وتجددت المشكلات فى عهود خلفائه الأقربين ولم ينجحوا فى غير

إخضاع حضرموت التي استنفذت قواها . أما الأطراف الغربية لدولتهم فاكتنف الغموض مصيرها .

فقد ورد في ألقاب ملك الحبشة « عيزانا » الذى يرى بعض الباحثين أنه عاصر خلفاء شمر يهرعش المباشرين منذ حوالى عام ٣٢٥م — أنه « ملك أكسوم وحمير وريدان وحبشة وسبأ وسلحين وصيامو وبجه وكاسو ملك الملوك . ويبدو أن سيطرته على حمير وسبأ اللتين أوردهما لقبه بعد عاصمته أكسوم . كانت سيطرة مفتعلة أراد أن يمهد بذكرها لمرحلة مقبلة بعد أن أصبحت دولة سبأ وذوريدان فى نظره لقمة سائغة طحنتها مشكلاتها الداخلية . ولا يستغرب مثل هذا الأمل المفتعل إذا ما قورن بما حدث بعد كثير من القرون حين أمر الامبراطور نابليون بسك نوط تذكارى باسمه تمجيدا لفتحه الجزر البريطانية . وهو أمر لم يتم وبقى النوط تذكارا لأمل لم يتحقق .

ولم يقتصر هدف « عيزانا » من هذا اللقب على مجرد الأمل فى السيطرة على بلاد الجنوب العربى وما يصل إليها من متاجر ، بل كانت وراءه ملابسات أخرى ، فقد سمح الامبراطور البيزنطى قسطنطين الأكبر بانتشار المسيحية فى دولته ابتداء من عام ٣١١م ، ثم أصبحت دينا رسميا للامبراطورية فى عام ٣٧٥م . واتجهت بعثات بيزنطة فى عهده إلى الحبشة وما يجاورها للتبشير بالمسيحية واتخاذ الدين مدخلا إلى عقد المحالفات السياسية والاتفاقيات الاقتصادية . ونجحت هذه البعثات من ناحيتها الدينية فى إطلاق حرية العبادة للمسيحيين من التجار الأغراب ومن تنصروا من رجال البلاط وأهل البلاد التى دخلتها المسيحية . ويبدو أن عيزانا ملك الحبشة قد سايرها على الرغم من أن اليهودية كانت قد سبقت المسيحية إلى بلاده منذ قرون ولكنها ظلت محصورة فى نطاقها الضيق وسط الديانة الوضعية الشائعة . ولعله فى مشايعته للمسيحية وفى لقبه الذى ادعى فيه سيطرته على سبأ وحمير كان يعمل على أن تكون له الصدارة فى تمثيل البلاد الواقعة على جانبى السواحل الجنوبية للبحر الأحمر أمام حليفته الدولة البيزنطية القوية حامية المسيحية فى الشرق ووريثة الرومان فى السيطرة على سياسته وتجارته .

على أن الجدير بالذكر هو أنه إذا كان ملك الحبشة هذا أو خلفاؤه قد ودوا أن تكون لهم اليد العليا على المناطق العربية الجنوبية . فقد أسلفنا من قبل أن هجرات عربية جنوبية قديمة كانت قد أثبتت وجودها وتأثيراتها في الحبشة ؛ عن طريق استخدام اللغة العربية الجنوبية في نصوصها إلى جانب اللغة الأفريقية . أو مختلطة بها ، وكتابة هذه النصوص بحروف المسند العربية . وعن طريق النشاط الاقتصادى الذى جعل لطوائفهم التى عرفت باسم « الجعزيين » أى الأحرار منزلة مرموقة ومكانة سياسية كبيرة في الحبشة ، مع امتداد نفوذهم على أجزاء متفرقة من الساحل الأفريقى .

وعلى أية حال فما لبثت دولة أكسوم أن اضطربت أحوالها في أرضها الأفريقية فانشغلت بنفسها .

وبقيت مملكة سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنة العربية قائمة تجاهد في سبيل الاستمرار . ومن أعمال ملوكها إصلاح سد مأرب ثلاث مرات . وفي أولاها أصلح الجزء الأوسط منه عند تهدمه للمرة الثانية المعروفة بعد عام ٣٦٠ م .

وتميز من ملوك العصر « أب كرب أسعد » الذى مارس الحكم نحو ستين عاما منذ أن اشترك مع أبيه طفلا . وعندما استقل بالحكم أشرك معه ولده حسان يهنعم في حوالى عام ٤٠٠ م . وأثرت له جهود لتوطيد الأمن في دولته والسيطرة على طرق القوافل المتجهة إلى الشمال . فكانت له حروب في منطقة معد . ولعلها امتدت أيضاً في نواحى الحجاز من ناحية ، وحتى الربع الخالى في أواسط شبه الجزيرة من ناحية أخرى . وكانت قبيلة كندة من أعوانه . وشجعه نجاحه على أن يزيد في ألقابه الملكية عبارة أكد فيها سلطانه على بدو المرتفعات والبرارى ، فأصبح « ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنت وأعرب طودم وتهمت » أى وأعراب الجبل وتهامة (أو النجد والسهل) . . . ولاتساع أعماله العامة نسبياً أشاد الإخباريون بذكراه وذكروه باسم أسعد تبع ونسبوا إليه فتوحات واسعة كما أشادوا بقصوره أو ... نه فيما بين ظفار وبين صنعاء .

وأصلح سد مأرب ثانية فى عام ٤٤٩ م فى عهد الملك شرحبيل يعفور ، وزيدت قنواته ودعمت جسوره ، ولكن انهار جانب من سد رحب ثانية بعد عملية إصلاحه بعام واحد وأدى ذلك إلى هلع السكان وفرارهم إلى الجبال خوفا من طغيان السيول ، فأصلح مرة أخرى فى عام ٤٥١ م وقيل إنه اشترك فى إصلاحه نحو ٢٠ ألف رجل .

وارتبطت أهم أحداث العصر فى الجنوب العربى الذى سوف نعبر عنه فيما يلى باسم اليمن وهو الاسم الشائع فى المصادر العربية ، بالتطورات الدينية وما ترتب عليها من نتائج حضارية وسياسية :

فقد سلكت اليهودية سبيلها إلى اليمن فى عهود غير معروفة ود بعض الكتاب (ومن اليهود بخاصة) أن يرجعوا بها إلى زمن بعيد فربطوا بينها وبين عهد تخريب الرومان لبيت المقدس فى عهد فسباسيانوس وتيتوس فى عام ٧٠ م ، وتشتيتهم لمن بقى فيها من اليهود الذين هرب بعضهم إلى الصحراء وانزووا فى جاليات صغيرة على الطريق التجارى المتجه إلى الجنوب حتى اليمن . والواقع أنه ليس من سند لإرجاع هجراتهم إلى بلاد العرب إلى مثل هذا الزمن البعيد الذى رددته بعض الكتب التاريخية دون تمحيص حيث لم يظهر لعقيدتهم أثر فى النقوش العربية الجنوبية أو الشمالية إلا منذ القرن الرابع أو الخامس الميلاديين . وليس من المستبعد أن بعضهم تسلل إلى اليمن عن طريق فارس التى احتضنتهم نكاية فى البيزنطيين المسيحيين الذين كانوا يكرهونهم . ولأمر ما ربط بعض الأخباريين (ومن ذوى الأصل العبرى أيضاً) بين الملك أب كرب أسعد وبين يهود يثرب ، مرة بدخولهم إليها فى عهده ، ومرة برحلته إليها وتهوده ، ومرة بامتداد نفوذه إليها وتعيين أحد أولاده عليها حيث قتل بعد رحيله عنها . . . إلخ .

وسلكت المسيحية سبيلها إلى اليمن عن أكثر من طريق ، فسلكته أولا عن طريق البعثات التبشيرية . ويبدو أن الدولة البيزنطية حينما وجدت الحبشة [illegible] انشغلت [illegible] الداخلية [illegible] من نشر المسيحية [illegible]

[illegible] وأسا . وكانت [illegible]

المبشرين الأوائل ثيوفيلوس الهندى فى منتصف القرن الرابع الميلادى . ويروى التاريخ الكنسى أنه نجح فى تنصير الملك الحميرى المعاصر له . ولم يكن تنصير الملك ، إن صح ، هو بيت القصيد . وإنما يبدو أن بيزنطة أرادت أن تضمن لها أنصارا باسم الدين للوقوف فى وجه انطلاق نفوذ الفرس المحتمل فى شبه الجزيرة العربية وما يتصل بها عبر الخليج العربى وعمان. وهكذا اتجهت البعثات التبشيرية البيزنطية إلى جزيرة سوقطرى وميناء هرمز أيضاً .

وسلكت المسيحية طريقها إلى الجنوب العربى كذلك عن طريق تجار الشام المسيحيين الذين تعاملوا مع أهله ، وربما سلكته كذلك عن طريق تجار الحبشة المسيحيين . وبعض أهل الحيرة أيضا على الرغم من اختلاف مذهبهم المسيحى عن المذهب الذى أخذ به نصارى اليمن .

على أنه مهما كان من أمر المسيحية واليهودية فى اليمن . فقد ظل أتباعهما قلة قليلة . وظلت غالبية أهل الجنوب العربى على عقائدهم الوضعية القديمة وان حاولوا أن يوسعوا آفاقهم الدينية من تلقاء أنفسهم تارة ونتيجة لاتصالهم بأصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية تارة أخرى . وهكذا ورد فى نص الملك شرحبيل يعفور عن إصلاح سد مأرب عبارة تقول ما يمكن ترجمته إلى « بنصر وعون الإله سيد السماء والأرض » وذلك مما يعنى تقديس معبود اكبر يشمل سلطانه السماء والأرض ولايقتصر سلطانه على إقليم بعينه أو مظهر معين . ووردت فى نص عبد كلال عبارة تقول « بردا رحمنن » اى بعون الرحمن ، مما يعنى الإيمان برحمة الرب الدائمة وفضله الواسع . وروى أحد مؤرخى التاريخ الكنسى أنه كان بين الحميريين ابراهيميون عارضوا ثيوفيلوس المبشر المسيحى . غير أن أمثال هذه الفلتات القليلة لم تقض على عقائد التعدد القديمة فظلت هى الغالبة

وتنافست الديانات الثلاث . وكان الأكثر تنافسا أنصار الديانتين الجديدتين أى اليهودية والنصرانية . وفى خلال هذا التنافس اشتد أحد الملوك الحميريين الأواخر وهو يوسف أسأر يثأر الملقب « ذو نواس » فى معاملة التجار المسيحيين والأشاعرة حلفاء الأحباش لسبب مايرده البعض

إلى تهوده . ويرده البعض إلى صداقته لليهود وتأثره بتحريضهم ، ويرده البعض الآخر إلى ربطه بين انتشار المسيحيين في بلده وبين احتمال انتشار النفوذ الحبشي المسيحي عن طريقهم لاسيما وأن منهم من كانوا على صلة ببلاط الحبشة فعلا . وترتب على هذه الشدة أن قل تعامل التجار البيزنطيين مع الموانىء العربية والموانىء الأفريقية القريبة منها . واستنصر المسيحيون بعضهم بعضا . وناشدوا امبراطور بيزنطة أن يتدخل لمعاونتهم . ولكن الشقة بين بيزنطة وبين اليمن كانت بعيدة ، فوقع عبء معاونتهم على ملك الحبشة « كاليب أل أصبحا » حليف البيزنطيين . ووجدت دعوة الاستنصار هذه هوى في نفسه لتحقيق أمل أسلافه ولزيادة نفوذه السياسي والتجاري ؛ لاسيما وأن بلاده قد تأثرت إلى حد ما من اضطراب أمور التجارة البيزنطية في جنوب البحر الأحمر .

وقيل إن كاليب كان على رأس الحملة على اليمن أو أشرف على الأقل على إعدادها في ميناء عدولى الذى أبحرت منه عبر باب المندب في فترة ما تقع بين ٥٢٠م و ٥٢٣م . ونجحت الحملة في غرضها . وفر ذو نواس إلى منطقة جبلية ببعض أعوانه . وأعلن الملك الحبشي سيادته على ظفار وعين عليها واليا حبشيا . وعندما توفى هذا الوالى استغل ذو نواس فرصته فأعاد تجميع أنصاره واستعاد ظفار وانتقم ممن فيها من الأحباش وأجلى بقيتهم عن بلاده ثم رد الصاع صاعين . فترك اليهود يفتكون بمن شاءوا من منافسيهم المسيحيين . ووجه انتقامه إلى نجران أكبر مراكز تجمع المسيحيين فراسل زعيمها (الحارث ؟) ليتصل به . ولكن الرجل تخوف غدره فتحصن بمدينته . وشدد ذو نواس حصار نجران وقيل إنه وعد أهلها الأمان إن أستسلموا له . فلما طال المطال عليهم فتحوا له أبواب مدينتهم فكان انتقامه هو وأعوانه منهم على نحو ماذكر القرآن الكريم في سورة البروج (٤—٩) إذ يقول : (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض . والله على كل شىء شهيد) .

وأراد ذو نواس أن يتخذ له سندا لو تأزمت الأمور ضده فكتب إلى ملك الحيرة المنذر الثالث يود أن يحالفه أو يجعل له سبيلا إلى محالفة الفرس . وتصادف أن كان فى مجلس المنذر وقتئذ وفد من قساوسة الروم فأشاعوا أن ذا نواس دعا المنذر فى رسالته إلى أن يفتك بمسيحيي الحيرة كما فتك هو بمسيحيي نجران .

وثارت ثائرة العالم المسيحى ،وأراد الملك الحبشى أن ينتقم لما أصاب رجاله فعاود الحملة على اليمن بجيش كثيف . وانتصر جيشه بعد جهد جهيد . وقتل ذو نواس أو فر وغرق كما روت بعض المصادر العربية .

وصحب الاحتلال الحبشى الأخير لليمن فى عام ٥٢٥م ما يصحب كل احتلال أجنبى من ضروب القتل والتدمير والنهب والأسر التى أفاضت المصادر الإسلامية فى تصوير بشاعتها . ويبدو أن مقاومة الحميريين للغزاة قد استمرت لبعض الوقت . إذ يذكر حمزة الأصفهانى (فى تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء) أنه أعقب ذا نواس ولده ذو جدن ولكنه لقى نفس مصيره . ولعله من جراء هذه المقاومة أن عمل نجاشى الحبشة على أن يوطد احتلاله لبلاد اليمن بما يخدر أهلها فعين على حكمهم تحت طاعته رجلا من سادتهم يدعى « سميفع أشوع » كان من كبار أعوان ذى نواس ، وبعد مقتله تحصن هو بأولاده فى حصنه وجمع حوله بعض حلفائه ، ثم تبين عقم المقاومة أو استجاب لدعوة الأحباش فهادنهم وربما تنصر حينذاك واتخذ اسمه المسيحى الصيغة الذى سبق ذكره . وقدنسب إليه نص عربى تلقب فيه بلقب « ملك سبأ » وذكر إيمانه بالمسيح الذى أورد اسمه بصيغة لاتينية محرفة . مع إثبات تبعيته لنجاشى أكسوم .

وازدادت أعداد الكنائس الكبيرة فى اليمن منذ ذلك الحين . وكانت كبراها كنيسة فى نجران سماها أتباعها كعبة نجران وكعبة اليمن وكان لهاسرادق من أدم . وأخرى فى ظفار أقام فيها كبار قساوسة اليمن ، وكنيسة ثالثة فى عدن . . . . إلخ .

والتفتت الدولتان الكبيرتان دولة الروم ودولة الفرس إلى هذا المجال لصالحهما ، وكانت كل منهما قد فرغت من مشكلاتها التى شغلتها فى أغلب القرن الخامس الميلادى حين تدفقت هجرات الهون على أملاك فارس ، وتدفقت هجرات الجرمان على أملاك بيزنطة .

وبدأ الامبراطور البيزنطى بمحاولة استغلال رؤساء مسيحيي الحبشة واليمن . وقيل إنه طلب من نجاشي الحبشة ومن والى اليمن أن يجعلا قضية المسيحيين قضية واحدة وأن يتعاونا مع دولته فى التضييق على الفرس . وأوصى الحاكم اليمنى على شيخ عربى قصد بلاطه يدعى قيس (أويلى زعامة قبيلة قيس) وأن يجعله رئيسا على قبائل معد وأن يتعاون معه على مهاجمة مصالح الفرس . ولكن يبدو أن أحدا من هؤلاء لم يستجب له .

وسواء مات الوالى سميفع ميتة طبيعية أم قتل : فقد عمل الأحباش على أن يحكموا بلاد اليمن بعده حكما مباشرا بعد أن رضخ أهلها لحكم الواقع . فعينوا عليها حاكما حبشيا لعله كان القائد الأعلى لجيش الاحتلال ، ولكن قائدا من أعوانه مالبث حتى انقلب عليه واغتصب مكانه فى ولاية اليمن ، وهو الوالى الذى ذكرته المصادر العربية باسم أبرهة (أو إل إبرهة) . وحاول النجاشي إقصاءه ففشل ، وعندما خلفه نجاشي آخر أرضاه أبرهة فأقره على ولاية ملك سبأ العريض تحت طاعته . وهنا انتحل أبرهة اللقب السبأى الضخم «ملك سبأوذوريدان وحضرموت وأعرابها فى الجبل وتهامة » مع اعترافه بنيابته أو تبعيته لسيده ملك الجعزيين « رمحس زبيمان ». ويبدو أن رمحس أو رماحس هذه تعنى الشجاع . كما كان زبيمن لقبا من ألقاب الحكام فى الحبشة .

واتخذ أبرهة صنعاء عاصمة . وشيدت فيها خلال عهده كنيسة ضخمة ذكرها الأخباريون باسم « القليس » تحريفا عن كلمة Ecclesiie بمعنى المجمع الكنسى . وشيدت كنيسة ضخمة أخرى فى مأرب . وروت المصادر العربية أن نفائس المعابد القديمة ومجهودات اليمنيين قد سخرت من أجل إخراج هاتين الكنيستين فى فخامة كبيرة .

ويبدو أن عرب الجنوب لم يسلموا بحكم أبرهه بسهولة ، إذ تحدثت بعض

نصوصه عن انقلاب والى كندة يزيد بن كبشة ضده وتعاونه مع أبناء سميفع أشوع الوالى السابق وعدد من بقايا الأسر النبيلة القديمة وبعض قبائلهم ومنها قبيلة يزن التى انتسب إليها فيما بعد سيف بن ذى يزن . وهزم أبرهة بجيشه هؤلاء الأحلاف بعد جهد جهيد . ثم سنحت له فرصته لكى يظهر بمظهر الحاكم المصلح . فقد زاد تصدع سد مأرب بعد فترات الإهمال والاضطراب المتعاقبة . فعمل على إصلاحه فى عامى ٥٤٢ و ٥٤٣ م . وقد أسلفنا فى الفصل الرابع ذكر بعض الجهود الضخمة التى أنفقت فيه حينذاك ، وأنه حضر حفل إعادة افتتاحه مندوبون من دول الحبشة والروم والفرس والغساسنة والمنادرة . مما يعنى أن أبرهة استطاع أن يوفر لنفسه شهرة كبيرة تعدت حدود اليمن . ولعل هذه الشهرة كانت من العوامل التى خدعته عن نفسه وحقيقة قوته ودفعته إلى غزو مكة ومحاولة هدم الكعبة . سواء باسم التعصب الدينى للمسيحية . أم لاستعادة السيطرة على الطريق التجارى الرئيسى الذى كانت مكة قد حققت لنفسها مكانة كبيرة فيه ؛ أم استجابة لدعوة الروم القديمة بإحكام الخناق على المصالح التجاريةالفارسية عن طريق ربط الدولة المسيحية الجديدة فى اليمن بالدولة الغسانية المسيحية فى جنوب الشام وكلتاهما من أولياء بيزنطة .

وقد أثبت القرآن الكريم فى سورة الفيل نتيجة هذه المحاولة الفاشلة . وكان من تفسير الزمخشرى والطبرى أنه ترتب على مارمته الطير الأبابيل على جيوش أبرهة أن تفشى بينهم وباء لعله الجدرى الذى روى ابن هشام وابن سعد وابن منبه أنه عرف أول ما عرف بأرض العرب فى عام الفيل . وعوضا عما كان أبرهة يأمل فيه من إضعاف مكة ، أصبحت هزيمته فيها من عوامل ازدياد شهرتها . وربما عاد هو إلى بلده بقلة قليلة بقيت من جنوده . وعندما هلك خلفه ولداه . ولد من أم حبشية كان قد ولاه من قبل على قبائل معافر . وذكره الاخباريون باسم يكسوم ، وولد من أم عربية ذكروه باسم مسروق وكان أبوه قد ولاه من قبل أيضاً على قبائل شناتر . وكان كل منهما شرا من أخيه فضاق الناس بهما وتمنوا تحرير أرضهم من حكمهما .

وتزعم حركة تحرير اليمن سيف بن ذى يزن الذى خلدت الروايات والأساطير الشعبية ذكره . ولكنه لم يستطع بأعوانه أن يناهضوا الغزاة الأغراب أو المهجنين بدون عون خارجى ، ربما لأن هؤلاء الغزاة كانوا قد حرموا المواطنين من السلاح أو أشاعوا الفرقة بينهم. ولعل مارو ته الأساطير من اضطرار ذى يزن إلى الاستعانة بالسحر والجن . وابتلائه بأم انضمت إلى من اغتصب عرش أبيه ، وكثرة مالاقاه من مصاعب وعقبات فى تنقله وترحاله — كل ذلك كان يرمز إلى المشكلات التى واجهتها دعوته التحررية فى مجتمعه وخارج بلده . وقد روت المصادر العربية أن سيفا قصد بلاد الروم واستنجد بالامبراطور (جوستين الثانى) ولكنه لم يجد لديه استعداداً لمعاونته ضد دولة مسيحية حليفة . فتركه إلى ملك الحيرة العربى ليتوسط له لدى ملك الفرس أعداء الروم وأعداء المسيحية . فاستجاب له بعد لأى عسى أن يجد سبيلا عن طريقه إلى السيطره على بلاد اليمن وحرمان بيزنطة من امتيازاتها السياسية والاقتصادية فيها . ولكنه لم يكن مطمئناً كثيراً إلى إمكان نجاح المحاولة حيث روت المصادر العربية أنه أعانه بفرق قليلة تألف أغلبها من الأفاقين المجرمين تحت رئاسة قائد فارسى يدعى وهرز . وخرجت الحملة فى ثمان سفن غرقت اثنتان منها ووصلت الست الباقية إلى عدن أو إلى ميناء قنأ فى حضرموت وهناك ضم سيف أنصاره إليهم وانتصر بهم على جيوش ابن أبرهة (ولعله المسمى مسروق) فى حوالى عام ٥٧٥م .

وكالعادة ، لم يكن العون العسكرى الأجنبى بغير ثمن يقابله، فقد حكم سيف بن ذى يزن اليمن تحت طاعة الفرس . كما حكمها من قبل سميفع أشوع تحت طاعة الحبشة . وأضافت الروايات العربية أنه لقى مصرعه بعد ذلك على أيدى جماعة من الأحباش . سواء بدافع من كراهيتهم الشخصية له . أو بدافع من تحريض دولتهم . أو بدافع من تحريض الفرس أنفسهم . وقد كان عهد ولده معد يكرب الذى خلفه تحت طاعة الفرس . فيما يذكر المسعودى، عهداً قصيراً . وحكم الفرس اليمن بعد ذلك حكماً مباشراً، كما فعل الأحباش من قبل . بعد أن اطمأنوا إلى تسليم السكان بالأمر الواقع .

فيولوا حاكما فارسياً فى ظفار ، وإن تركوا المخاليف فى أيدى الأمراء الوطنيين . وهنا توفر للفرس مالم يكونوا يحلمون به من السيطرة على مخارج التجارة البرية والبحرية من بلاد اليمن وإليها عن طريق البحر الأحمر والمحيط العربى (الهندى) ، وعلى الطرق البرية المؤدية إلى الخليج والعراق من ناحية وإلى الشام ومصر من ناحية أخرى ، إلى جانب ماكانوا يسيطرون عليه من تجارة الخليج العربى . وتتابع على حكم اليمن ثلاثة أو أربعة من ولاة الفرس كان آخرهم باذان الذى أسلم فى عهد الرسول عليه السلام ودخلت بلاد اليمن بعده فى الإسلام فى عام ٦٢٨م . وانتهى دور المناطق الجنوبية أو « العربية السعيدة » Arabia Felix فى عصور ماقبل الإسلام عند هذا الحد ، بينما كانت المناطق الشمالية فى شبه الجزيرة تعاصرها فى المسيرة ، وهو ماسوف نتتبعه فى فصول تالية .

* * *

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

Beeston, A.F.L., Qahtan, Studies in Old South Arabian Epigraphy, 1976.

Philby, op. cit., 87—121.

Pirenne, J.. Recueil des inscriptions et antiquites sud-asrabes, 1977.

Ryckmans, G., in Museon, 1942; BSOAS, 1952.

Ryckmans, J., in Accademia Nationale dei Lincei 62, Roma 1964, 434-439

Shahid, I., The Martyrs of Najran, 1971.

Wissmann, H.V., Zur Geschichte und Landeskunde von alt-Sudarabien, 1964.

Wissmann, H. V. und Hofner, M., Beitrage zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien, 1953.

نافقيه ، وبيستون ، ورويان ، والغول : مختارات من النقوش اليمنية القديمة — تونس ١٩٨٥ .

جواد على : المرجع السابق ، ج ٢ .

مطهر على الارياني : فى تاريخ اليمن — القاهرة ١٩٧٢ .

مجلة العرب ، السنة الخامسة — يناير ١٩٧١ — ص ٤٠١ — ٤٢٤ .

الفصل الحادي عشر

مناطق الأطراف العربية

أولا — في المصادر المسمارية

توزعت مناطق التجمع والتحضر القديمة في الأجزاء الوسطى والشمالية من شبه الجزيرة العربية بشرقها وغربها ، على نحو ماتوزعت به في الجنوب تحت تأثير عدد من العوامل الاقتصادية والعوامل الجغرافية . فانتشر أغلبها حول الطرق التجارية الرئيسية الواصلة بين أجزاء شبه الجزيرة والمؤدية منها إلى البلاد المجاورة ، كما انتشر بعضها على مناطق الحواف بين أطراف الصحراء وبين حدود دول الهلال الخصيب القريبة منها ، فضلا عن انتشارها الداخلي في الواحات والنجوع والقرى حول العيون والآبار والنهيرات الصغيرة وفي مناطق الحرات

وانصرفت تسمية « عرب » التي تداولتها نصوص التاريخ القديم على العرب الشماليين أكثر منها على العرب الجنوبيين ، كما انصرفت للدلالة على أعراب البادية أكثر منها على أهل الحواضر . وذلك على الرغم مما تناقلته أغلب مؤلفات الأخباريين من تسمية أهل الجنوب باسم « العرب العاربة » وتسمية أهل الشمال باسم « العرب المستعربة »

(أ) في العصر الأشوري :

اتسع المجال العربي في عصوره القديمة لما كان يتعدى شبه الجزيرة إلى قرب بوادي الشام والعراق وسيناء أيضا . وبهذا المعنى الواسع ورد أقدم لفظ مكتوب مؤكد لتسمية «العرب» في النصوص المسمارية الأشورية خلال القرن التاسع قبل الميلاد على نحو ماسلف ذكره في مقدمة هذا الكتاب . ولايعني وروده في هذا القرن بداية ظهوره أو بداية ظهور العرب بحال من الأحوال . فهناك قرائن عدة تناولنا بعضها في فصول سابقة ونتناول بعضها الآخر في

مناسبات تالية ، تدل على قدم وجود العرب بخصائصهم وخصائص لغتهم منذ عهود سبقته بآماد طويلة. ومن الباحثين من يحتمل ورود تعبير قريب من تعبير « العرب » فى نص مسمارى من عهد نارام سين الملك السامى الأكدى خلال القرن الثالث والعشرين ق . م . وإن كانت قراءته لاتزال موضعاً للجدل .

وكان التوسع الأشورى قد امتد فى القرن التاسع ق . م . إلى بوادى الشام وضغط على مافى جنوبها من مناطق التجمعات العربية . وحاولت دويلات المنطقة أن تقف فى وجه تقدمه بتكوين حلف كبير بزعامة إمارة دمشق وما حولها . وهنا ذكرت نصوص شلما نصر الثالث الملك الأشورى فى عام ٨٥٣ق.م . أنه انضم إلى هذا الحلف فيمن انضموا إليه ألف راكب جمل من (رجال) جنديبو أريبى (أو الأريبى) . ويعتبر لفظ جنديبو تحريفاً لاسم جندب (أو جندبة) . كما يعتبر لفظ أريبى تحريفاً لصفة «العربى» . وقد لقب جنديبو هذا بلقب الملك . ويبدو أنه كان يعيش بقبيلته العربية أو يتردد بها على البادية الواقعة إلى الجنوب الشرقى من دمشق . وإذا صح أنه اشترك فى الحرب ضد الأشوريين بألف راكب جمل فعلا لدل ذلك على سعة نفوذه وكثرة رجاله قياساً على إمكانات عصره .

وتعددت إشارات النصوص الأشورية بعد ذلك إلى الجماعات العربية القريبة من دولتها والواقعة على طرق التجارة الواصلة إليها . ورددت القول بانتصارات ملوكها العراقيين (وجيوشهم) على هذه الجماعات وتلقى الجزى منها . وهى أخبار تحتمل الصدق كما تحتمل الشك . فيحتمل صدق بعضها على أساس عدم تعادل كفتى الفريقين من حيث العدد والعدة ومن حيث وفرة الموارد . ولكن يتعين الشك فى بعضها الآخر على أساس أنها أخبار تواترت من جانب واحد وهو الجانب الأشورى الذى سجل انتصارات أصحابه دون هزائمهم . وجلى أنه لو كان خصومه من العرب الشماليين قد استخدموا الكتابة حينذاك وسجلوا بها أخبارهم ، لأمكن مقارنة أخبار الجانبين ببعضهما البعض والخروج منهما بما هو أقرب إلى الصحة . وعلى أية

حال فإن ماذكرته النصوص الأشورية نفسها عن تعدد حروب الجانبين يدل ضمناً على استمرار مقاومة القبائل العربية التي اعتمدت على مهارتها في الكر والفر وقتال الصحراء . ووعورة مناطقها ، وعملها على مضايقة خصومها عن طريق تهديد قوافل تجارتهم . واستطاعت على الرغم من قلتها النسبية أن تسجل صفحات مجيدة في الدفاع عن أرضها واستقلالها .

ذكرت النصوص المسمارية الأشورية أسماء ممالك وقبائل عدة مثل سبأ وقيدري وتيماء ومصوري وتمودي وخايابا ومساء . . . إلخ . وكان أهم ماتضمنته فيما نكتفي به موقتاً وفيما يفيد التاريخ العربي العام هو أنها ذكرت أسماء خمس ملكات عربيات على أقل تقدير حكمن في جهة ما من شمال شبه الجزيرة العربية فيما بين أواسط القرن الثامن ق م ، وبين أواسط القرن السابع ق . م ولم تحدد مكان دولتهن صراحة . ولكنها ذكرت خلال الحديث عنهن أحياناً اسم « أداوماتو » وذلك مما دفع إلى احتمال حكمهن في دومة الجندل أوبقربها في منطقة الجوف الشمالي ، كما نسبت إلى إحداهن كهانة معبودتها الكبرى دلبات ، وذلك مما قد يعني بدورة أن حكمهن اعتمد على تقاليد دينية جعلت رياسة الكهنوت لكبريات نساء الأسرة المالكة وسمحت لهن بوراثة الحكم واحدة بعد أخرى أو بنتاً بعد أمها .

وهكذا أشارت النصوص المسمارية في القرن الثامن ق . م . إلى ملكتين عربيتين أطلقت على كل منهما لقب ملكة أريبي . وذكرت أقدمهما باسم « زبيبي » (تحريفاً عن زبيبة) وأضافت أنها اعترفت بالطاعة لدولة أشور وأدت الجزية إلى ملكها . وذكرت الثانية باسم « سمسي » (تحريفاً عن شمس) في مناسبتين : مناسبة أدت الجزية فيها إلى الملك الأشوري كسابقتها ، ومناسبة أخرى خلعت فيها هذه الطاعة وساعدت البدو الآراميين أعداء الأشوريين . وتركت رجالها يهددون القوافل الأشورية ، فحاربتها القوات الأشورية وخربت بلدتين في أرضها وأجبرتها على الطاعة ، ثم عين الملك الأشوري مندوباً له في عاصمتها يتلقب بلقب « قيبو » أي قيم كي يشرف على سياستها ويكتب إليه عن أمرها .

ولم يكتف الأشوريون بأن يسجلوا نصرهم على قوم شمس كتابة فقط ،

وإنما أسرفوا فى تصويره بما أشبع كبرياءهم ، وبقى منه مايصور فارسين أشوريين على جوادين يلاحقان برمحيهما محاربا عربيا بجرى مسرعا ببعيره ويلتفت إليهما فى ضراعة بعد أن أصيب بعيره بسهم فى جنبه كاد يرديه . وصوروا عددا من قتلى جيش الملكة وقتلى حلفائها ممددين على الثرى تحت سنابك الجوادين . وزادوا فصوروا امرأة بثوب كاس تسير باكية تلطم وجهها بكفها أو تستره خجلا بكفها وتمسك باليد الأخرى جرة كبيرة ويعقبها عدد من نياقها . وليس من المستبعد أنهم أرادوا أن يرمزوا بها إلى الملكة شمس نفسها وإلى عجزها واستسلامها وعودتها إلى رعاية الإبل .

وأشارت النصوص الأشورية فى القرن السابع ق . م . إلى ملكتين عربيتين أخرتين : يتيئة وتلخونو ، تحريفا فيما يبدو عن اسمى يطيعة وتاهونة . وذكرت عن يطيعة أنها ناصبت الأشوريين العداء وربما تحالفت مع كبير الأراميين فى العراق مردوك أبا ليدينا الثانى ضد الملك الأشورى . وأسندت قيادة جيشها إلى أخيها بسقانو (تحريفا فيما يبدو عن الباشق) . ولكن الجيوش الأشورية هزمت جيشها وأسرت أخاها .

وسلكت الملكة تلهونة (أو تلخونو) مسلكها الخاص فى سبيل الدفاع عن أرضها ومصالحها ، فتحالفت مع من ذكرته النصوص الأشورية باسم خزا إيلى (أو حزائيل) ملك قبائل قيدار المجاورة لأرضها فى منطقة الجوف . وعهدت إليه بقيادة جيشهما المشترك ضد الأشوريين ، ولكن حلفهما فشل فى أداء مهمته ، على الأقل فى حدود ماروته المصادر الأشورية ؛ وفرت الملكة إلى « أداوماتو » (دومة ؟) ، فلحقت بها القوات الأشورية على الرغم من وعورة الطريق وضيقت الحصار عليها حتى أسرتها (هى أو الملكة أبكالاتو) كما أسرت ابنتها تبوءة ، واستولت على تماثيل معبوداتها . ويبدو أنه فت فى عضد الملكة أنه نشب خلاف بينها وبين حليفها حزائيل عقب هزيمتها الأولى أو خلال حصار أداوماتو ، فخرج إلى قلب البادية ونجا بنفسه مؤقتاً وعز على الجند الأشوريين أن يتعقبوه وإن كانوا قد دمروا بلده ، واستولوا على تماثيل بعض معبوداته .

ولعله كان من جراء طول المقاومة والرغبة فى إعادة السلام إلى الطرق التجارية أن اتبع البلاط الأشورى سياسة المهادنة . فتعهد الأميرة العربية الصغيرة تبوءه بالتربية والرعاية رغبة فى أن تشب وفية مخلصة للملكية الأشورية وعندما بلغت سنا مناسبة اعترف بها ملكة على قومها .

وربطت النصوص الأشورية بين ملكة عربية أخرى وبين إيا إيلو بن حزائيل ملك قيدار كحليفة له ضمن ملوك صغار آخرين . وذكرت هذه الملكة باسم باثيلو ملكة أخيلو . واعتبر اللغوى إدوارد جلازر اسم باثيلو تحريفا عن الاسم العربى باهلة ، كما قرب اسم أخيلو إلى اسم ديار أخلة أو أجلة فى منطقة الخرج فى نجد . وبرر رأيه بما روته المصادر المتأخرة عن سكنى قبيلة باهلة (التى يشبه اسمها اسم الملكة القديمة) فى هذه الديار . ولكن لازال رأيه هذا فى مرحلة الفروض .

(ب) فى العصر البابلى الأخير :

عندما ورثت الدولة البابلية الكلدانية مناطق النفوذ الأشورى فى الشرق الأدنى كان من الطبيعى أن تتجدد العلاقات الاقتصادية السلمية أو المناوشات الحربية بينها وبين الإمارات العربية التى تحف بهذه المناطق ، لولا أن النصوص البابلية لم تسجل شيئا كثيرا عن هذه العلاقات حربا كانت أم سلما ، إلى جانب الحقيقة الأخرى المتوقعة وهى أن العرب بدورهم لم يعثر لهم على نصوص تتحدث عن أحوالهم معها .

وظل الحال على هذا الغموض حتى اشتد التنافس بين دولة بابل وبين دولة الفرس . ومالت أحوال بابل إلى التدهور . فحاول آخر ملوكها نابونهيد أن يجرب حظه مع المناطق العربية علة يسترجع بها بعض مجده الذاهب فغزا جنوب الشام حتى إدوم وغزة ، ثم أناب عنه على عرش بابل ولى عهده ، ولأمر ما اتجه إلى واحة تيماء ، ربما ليحيى أهميتها الاقتصادية على الطريق التجارى الرئيسى بين شمال غرب شبه الجزيرة العربية وبين العراق من ناحية وبين البحر المتوسط من ناحية أخرى . ثم ينتفع بمواردها . أو على أمل أن يستعين بها وبوسطها البدوى على تطعيم جيشه بقوات فتية يستعد بها

لمعركة قريبة بينه وبين الفرس . أو على أسوأ تقدير ليهيء بها ملجأ يبعده عن طائلة الفرس حين الضرورة .

وعلى الرغم من هذه الأغراض الملحة لم يكن نابونهيد موفقا فى سياسته . فاشتد على تيماء التى أراد أن يتخذها قاعدة جديدة لحكمه وفتك برؤسائها وأخضع سكانها وقتل ملكها . ثم أعاد تسويرها وأقام بها بضع سنوات فى قصر جديد محصن على مثال قصره البابلى . ومد نفوذه منها جنوبا على ساحل الحجاز وربما وصل حتى يثرب . وأخيرا أدرك عقم محاولته فعاد إلى بابل حيث لم يلبث حتى خسر دولته كلهاأمام الفرس فى عام ٥٣٨ ق . م . ولازالت أغلب آثار هذا العصر البابلى فى تيماء مطمورة تحت أنقاض العصور التى تلته .

(ج) فى العصر الفارسى :

أدى مشروع نابونهيد الفاشل فى تيماء إلى عكس ما أراده منها . إذ كان من نتيجته أن وجه أطماع الفرس إليها وإلى ما حولها من المناطق العربية بعد أن مدوا نفوذهم على الهلال الخصيب كله . وأحس أمراء بادية فلسطين وما فى جنوبها بعنفوان الفرس وشدتهم فآثروا السلامة معهم بحيث روى المؤرخ هيرودوت أن قمبيز ملك الفرس وهو فى طريقه إلى فتح مصر فى عام ٥٢٥ ق . م حالف ملكا من ملوك البادية كان يعبد هو وقومه اللات قرب خليج العقبة . أو بمعنى آخر أجبره . على أن يزوده بالإبل والماء ويرشد جيشه إلى مسالك الصحراء المؤدية إلى مصر . فعالج البدوى مشكلة الماء بملء بطون الجمال إلى حين الحاجة إليه . وعمل على إعداد مايشبه الخراطيم الطويلة من جلود الماشية لتجرى بالماء من نهر فى بلده إلى ثلاث قنوات تصب فى ثلاثة صهاريج ضخمة بالصحراء .

وأيا ما كان فى رواية هيرودوت هذه من الصحة أو من الخيال . فقد رددت نصوص الملك الفارسى دارا أن قبائل آربايا . أى القبائل العربية التى انتشرت فى بادية جنوب الشام وعلى أطرافها كانت تؤدى إلى دولته كميات هائلة من البخور والطيوب وما إليها على هيئة الجزى والهدايا . وكان هذا

أمرا طبيعيا فى عصر أصبح الفرس فيه أقوى دولة فى الشرق الأوسط من غير منازع بعد أن شاخت بقية دوله الأخرى وتهاوت إلى حين .

وامتد النفوذ الفارسى إلى واحة تيماء نظرا لما لها من أهمية تجارية . ويبدو أنه كان نفوذا غير مباشر لم يحس أهل الواحة بشدة وطأته . بحيث أن أغلب ما وجد بها من الآثار يرجع إلى أيامه وماتلاه . وتقع أطلال تيماء القديمة هذه فى جنوب الواحة الحالية . وكان يحيط بها سور يتراوح سمكه بين ١,٧٥ وبين ٢,٣ من الأمتار ويبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار . أما امتداده فقد قدره دوتى بنحو ثلاثة أميال . بينما قدره سافينياك وجوسن بثلاثة كيلو مترات فقط . مما يعنى أن المنطقة لاتزال تتطلب دراسة واسعة للكشف عن حقائق ماضيها . لاسيما وأنه كشفت فيها بالفعل وعن طريق المصادفات ثم البحوث المحدودة بقايا قليلة من معابدها ومقابرها ونصبها الدينية . وهذه يحمل أقدمها تأثيرات عراقية ومصرية وفارسية ، ويحمل أحدثها تأثيرات نبطية ورومانية نظرا لكثرة اتصالاتها الخارجية القديمة وبحكم موقعها التجارى المتوسط . وذلك إلى جانب الخصائص المحلية التى ظهرت فى أسماء معبوداتها القديمة .

(د) الأطراف الشرقية :

توافر للأطراف الشرقية من شبه الجزيرة العربية نصيب قليل مما أتت به المصادر المسمارية ولكنه على قلته لايعدم ما يؤيده من الكشوف الأثرية الحديثة التى سنتناول نتائجها فى صفحات تالية . وعرفت أهم هذه الأطراف فى النصوص المسماوية بأسماء دلمون وماجان وملوخا . ولأمر ما اعتبرت الأساطير السومرية دلمون جنة استقر السومريون زمنا بها قبل أن يدخلوا أرض العراق . وذهب الترجيح إلى أنها أى دلمون . تمثلت فى جزيره البحرين . ثم تواتر ذكرها تاريخيا وشمل اسمها فيما يعتقد بعض الباحثين المحدثين جزءا من ساحل الأحساء المواجه لها . وذكرت نصوص الملك سرجون الأكدى فى القرن الرابع والعشرين ق . م . أن إشراف دولته امتد على دلمون وماجان وملوخا

وأن سفنها سارت على مياه أكد ، وذلك مما دعا إلى اعتبار هذه الأقطار الثلاثة أقطارا بحرية وساحلية ذات خبرة بالملاحة وصناعة السفن ، ويعمل أهلها بالنقل البحرى والتجارة البحرية . ولهذا سارت سفنهم فى مياه الفرات طاعة لدولة أكد . وهكذا يتجه بعض الرأى إلى اعتبار ماجان تشغل ماتشغله عمان الحالية . وأضافت نصوص مسمارية أخرى أنه كان يستورد منها للعراق الخشب والنحاس والأحجار الصلبة . أما ملوخا التى ذكرت النصوص المسمارية أنه كان يستورد منها الذهب والخشب الثمين ، فلم يتيسر تحديد موضعها الفعلى حتى الآن . وإن لم يستبعد أنها وقعت بين المنطقتين الأخريين دلمون وماجان أو البحرين وعمان . وذهبت آراء أخرى إلى المضى باتساع المناطق السابقة أو بعضها حتى وادى السند .

وتعاقبت نصوص مسمارية أخرى بابلية وأشورية بعد عهد سرجون تكرر المعنى الذى أراده بامتداد النفوذ العراقى على هذه الأجزاء الشرقية . ولكن يبدو أنه كان نفوذا تجاريا فقط . قام على أساس استيراد المواد الأولية التى ذكرناها وبعض منتجات بخور منطقة ظفار . وما يتجمع من منتجات الهند وجزر المحيط الهندى على سواحل الخليج العربى لتصريفه فى أسواق العراق .

وزادت النصوص الأشورية فأشارت فى القرن الثامن ق . م . إلى أريبى مطلع الشمس وعنت بهم أعراب الشروق قرب الخليج العربى .

وأخذت بعض الجاليات الفينيقية تتوافد على هذه المناطق الساحلية خلال العصر الفارسى . ومارست نشاطها التجارى فيها وفى البحار القريبة منها . ونقلت إليها بعض عناصر حضارتها . ثم ازدادت أعداد التجار الفينيقيين وتأثيراتهم واختلاطهم بالسكان المحليين فى العصر الهيلينستى وهو ما يخرج عن دائرة المصادر المسمارية . وقد شهدت به تسمية جبيل لإحدى مدن المنطقة الشرقية .

ثانياً — من نتائج الكشوف الأثرية الحديثة :

ارتبطت أغلب الاكتشافات الأثرية فى سواحل الخليج العربى وجزره مؤخراً بجهود بعثة دانمركية لآثار ماقبل التاريخ، وماتبعها من بعثات أخرى.

(أ) فى البحرين : استهلت هذه البعثة عملها فى عام ١٩٥٣ فى مناطق الظران وأدوات ماقبل التاريخ الحجرية على جبل الدخان والمنطقة الصحراوية فى البحرين . وامتدت منها إلى غيرها من مواطن الدهور الحجرية بها. ثم اتسعت مجالات بحثها فالتفتت إلى رجم المقابر التى بلغ من كثرتها أن بدت فى هيئة الغرود الطبيعية فى الصحراء. وقد قدر عددها بنحو مائة ألف وتنوعت بين كبيرة وصغيرة ، ومخروطية ومستطيلة . وتفاوت متوسط ارتفاعات المقابر ذات القواعد الدائرية بين المتر وبين الستة أمتار ، بل وارتفع أكبرها إلى ١٢ متراً وبلغ قطر قاعدته ١٧ متراً . وأحاط ببعضها سور دائرى . وذلك إلى جانب مقابر أخرى صغيرة دفن أصحابها فى جرار من الفخار .

وتنقلت أعمال الكشف الأثرى إلى حيث تتبعت شواهد العمران القديم فى العواصم الأولى التى نسبت إلى عهود متفاوتة تحتمل أن أقدمها عاصر الحضارة السومرية ، وعاصر بعضها العصر الأشورى الحديث والعصر البابلى الأخير ، كما عاصر أحدثها الحضارة السليوكية الهيلنستية والحضارة البارثية . مع انقطاع عمرانها فى فترات أخرى بعوامل مختلفة . وتمثلت أهم مكتشفات البعثة فى أطلال معابد باربار بمستوياتها الثلاث المتعاقبة وبعض عناصرها الباقية الأمر الذى شجع على تسمية أهم الفترات الحضارية بجزيرة البحرين باسم حضارة باربار .

وتنوعت حصيلة ما بقى من مناطق السكن والعبادة والدفن ، من أنواع الآثار المنقولة . فشملت كمية كبيرة نسبياً من أوانى الفخار والأوانى الحجرية ، ومجموعات من الأختام (الدلمونية) المستديرة ذات القمة المدببة والمسطحة . والتى نقش بعضها بمناظر محلية ، ونقش بعضها الآخر بمناظر تشبه مناظر الأختام القديمة فى العراق وفى وادى السند . وذلك مما يدل على العلاقات الحضارية أو التجارية بين هذه الأقطار الثلاثة . وذلك فضلا على مجموعات من الأوانى والتماثيل المعدنية والمرمرية الصغيرة ، وقطع نحاسية وأخرى من العقيق واللازورد . وأوزان محلية ومنقولة . . . . إلخ .

وأيدت هذه الآثار المنوعة الأهمية النسبية لجزيرة البحرين فى العصور القديمة كمركز لمنطقة دلمون التى رددت المصادر المسمارية ذكرها ؛ ومركز لحضارة خاصة بها وهى حضارة باربار ، فضلا على كونها جزءا من حضارة الخليج العربى فى مجمله .

(ب) فى الكويت : تركزت أغلب أعمال البعثة الدانمركية منذ عام ١٩٥٨ فى دولة الكويت فى جزيرة فيلكا أو جزيرة أكاروس كما سميت بالاغريقية فى عهد الاسكندر الأكبر . وقد ذكرتها المصادر الكلاسيكية كمحطة تجارية نظرا لموقعها الاستراتيجى المناسب عند مدخل الخليج . ولما هيأته من المرفأ الآمن والمياه العذبة لسفن التجارة . ونقبت البعثة فيها على مستويات متعاقبة عادت بأقدم مظاهر سكناها إلى أواسط وأواخر الدهر الحجرى القديم وإلى العصر الخالكوليثى (النحاسى الحجرى) ؛ وقيل إن بعضها عاصر الحضارة السومرية فى العراق خلال النصف الأول من الألف الثالث ق.م ؛ وحضارة كولى فى السند ، وما يمتد من العصر الأكدى حتى عهد إسين - لارسا فى العراق (من أوائل القرن ٢٣ ق. م . إلى أواخر القرن ١٨ ق.م.) حيث قلت مظاهر العمران لفترات طويلة حتى عاد نشاطها مع عهد الاسكندر والعصر السليوكى الذى مثلت فيلكا فيه مركزا تجاريا وحضاريا جمع إلى صبغته المحلية والخليجية عناصر أخرى إغريقية وهيلينستية وفدت مع نشاط الملاحة والتجارة فى هذا العصر وماتلاه . وظلت اتصالات الجزيرة بشبه الجزيرة العربية قائمة وعثر فى أرضها على نصوص عربية قديمة .

وتعددت الآثار الثابتة فى مواقع التنقيب فى جزيرة فيلكا وتمثلت فى أطلال محلات سكنية وأفران ومواقد وأسوار وحصون ، ومعابد محلية مثل معبد إنزاك ومواقع عبادة آلهة الينابيع ومصادر المياه . وأخرى هيلنستية مثل معبد أرتيميس . وتباينت أطلال هذه الآثار فى أحجامها وفى مدى أهميتها . كما تباينت وتداخلت فى أزمنتها ، لاسيما بالنسبة لمناطق السكن ومراكز العبادة التى أعيد استخدام بعضها جزئيا أو كليا فى فترات متعاقبة ؛ بحيث قد يضم الموقع الواحد أحيانا بين آثار من عصور ما قبل التاريخ وبين آثار من العصر الهيلينستى متقاربة من بعضها أو مختلطة مع بعضها. وقد لوحظت

كثرة استخدام الأحجار فى المبانى القديمة على عادة بعض أهل جنوب شبه الجزيرة العربية ، مع قلة البناء باللبن الذى اعتاده أهل العراق القريبين منهم .

وكالعادة احتوت هذه الأطلال على آثار صغيرة منقولة تضمنت أعدادا من أوانى الفخار والأوانى الحجرية والأسلحة الصغيرة والأحجار المنقوشة والتماثيل البشرية والحيوانية الصغيرة وقطع من العملات المحلية والهيلينستية والعربية القديمة ، وعدة آلاف من أختام صغيرة تنوعت بأشكالها وموضوعاتها بين أختام إقليمية مستديرة أنتجتها حضارة الخليج . وأختام أسطوانية قلدت أختام العراق . وأختام رباعية قلدت أختام وادى السند ؛ بل وشكل أحد الأختام على هيئة الأختام المصرية القديمة . ونقشت على هذه الأختام أشكال مختصرة لكائنات بشرية وحيوانية وأشياء طبيعية وزخارف تخطيطية عبرت عن بعض عقائد أصحابها وأخيلتهم وأساطيرهم ومستوى فنونهم .

(ج) فى قطر : باشرت البعثة الدانمركية أعمالها فى الساحل الغربى من قطر . وعثرت على كميات كبيرة من أدوات حجرية صنفتها فى أربع حضارات بدائية ترجع إلى فترات من الدهر الحجرى المتوسط والدهر الحجرى الحديث والعصر النحاسى الحجرى . وغلبت على حياة هذه الدهور والعصور حرفة الصيد وحرفة الرعى ثم القليل من الزراعة . ووجدت البعثة رسوما مختصرة على جوانب الصخور صورت مناظر زخرفية وملاحية وعقائدية . كما وجدت بقايا بلدة يرجع عمرانها إلى أواسط الألف الأول ق . م .

(د) فى دولة الإمارات العربية : ركزت البعثة أغلب أعمالها فى أبو ظبى فى جزيرة أم النار التى قيل إنها اكتسبت إسمها من كثرة ما وجد بها من أحجار كانت تستخدم محكات لإيقاد النار . ثم اتسع البحث إلى منطقة العين وقرية هيلى . وظهرت شواهد اربع مراحل للعمران فى محلات قديمة ذات مساكن منوعة . كما وجدت أعداد كثيرة من رجم المقابر المستديرة الفردية والأسرية ، وأرجع أقدمها إلى فترات من الألف الثالث ق .م . ؛ وبنى أكبرها بالحجر ، وصورت على مداخلها مناظر إبل وماشية وحيات .

واحتفظت بعض المقابر ببعض مازود الموتى به من أوان وخناجر وأدوات للزينة ، ويحتمل أن أهل جزيرة أم النار القدامى أخذوا فى بعض عصورهم بتضحية الأتباع حين دفن سادتهم .

(هـ) فى الساحل الشرقى للمملكة السعودية :

توزعت الأكوام الأثرية الصغيرة على طول الساحل الشرقى للمملكة السعودية فى مثل تاج والقطيف وتاروت والعقير والظهران وجبيل . وكان لكل هذه المواضع نشاطها الاقتصادى كمراكز بحرية وبرية لتجارة المرور ، فضلا على تجارتها المحلية . مما دلت عليه كتابات الرحالة والمؤرخين الكلاسيكيين وبعض المصادر العربية القديمة .

وعثر فيما عثر عليه على أعداد من التماثيل الطينية الصغيرة لإناث وحيوانات . وقامت البعثة الدانمركية بتجميع أعداد كبيرة من كسر الفخار الخشن والرقيق ، والأوانى الفخارية والحجرية ، ومباخر مربعة — ويبدو أنها كانت من آثار عمران لبلدة عاصرت الحضارة السليوكية أو الهيلينستية . كما عثر على نقش بكتابة عربية جنوبية قديمة فى ثاج .

وفى شبه جزيرة تاروت على امتداد منطقة القطيف تعددت رجم المقابر ذات الشكل المخروطى . ووجدت البعثة الدانمركية آثار عمران متقطع متفاوت قد يبدأ معاصراً لحضارة العبيد فى أقدم طبقاته . ويمتد به الزمن حتى عهد حضارة باربار فى البحرين . ويضم مخلفات من الأدوات الحجرية الصغيرة لدهور ماقبل التاريخ ، ومخلفات من كسر الفخار .

وامتدت البحوث إلى جرها القديمة وهى الجرعاء العربية والعقير الحالية ؛ على أساس ماشهد به الرحالة الكلاسيكيون من ثرائها ونشاطها الواسع فى تجارة المرور (الترانزيت) خلال العصر السليوكى . وقد تعددت بالفعل أكوام أثرية كثيرة فيما بين العقير وبين الظهران ، واستغلت البعثة الدانمركية ماوجد على سطوحها من كسر الفخار والأوانى الحجرية لتصنيفها وتوقيت صناعتها .

وفى الوقت ذاته كان لقرب مناطق النفط من الظهران أثر فى توجيه الأنظار إلى ما كشف فى أرضها مما دفنه من الآثار خلال مد الطرق وتعبيدها وحفر الآبار. ونبه بيتر بروس كورنوول إلى أهمية موقعها وضخامة جبانتها القديمة ، ونسبها إلى كبار منطقة دلمون الذين شمل نفوذهم البحرين والأحساء . وتفاوتت مقابر هذه الجبانة فيما بينها فى سعتها وأهميتها ومحتوياتها . واحتوى أكبرها على توابيت حجرية وجدران مبنية .

(و) من كشوف البعوث العربية :

حاولت بعض البعثات الوطنية والعربية أن تدلى بدلوها فى الكشف عن جوانب من تراث الخليج القديم . فأولت وزارة التربية فى البحرين اهتمامها لموقعى الحجر والشاخورة منذ عام ١٩٧٠ ، وجرى الكشف عن مقابر يحتمل إرجاعها إلى مايعاصر العصر الكاسى فى العراق . ومايعاصر العصر السليوكى . وهى مقابر مستديرة صغيرة تنتمى لطوائف اجتماعية مختلفة . وغالباً ماكسيت جوانبها الداخلية بملاط وعلتها قطع حجرية . وأدت إلى مدخلها درجة حجرية أو أكثر من درجة .

وأولت دولة الإمارات العربية اهتماماً بالكشف فى أنحائها عن المزيد من المدافن القديمة .ووجدت على بعض أحجار المقابر رسوم هيئات بشرية وحيوانية ومناظر صيد . وتضمنت الآثار المنقولة التى عثر عليها من أوان وكسر الفخار أعدادا مزخرفة بأشكال حيوانية وتخطيطية على الطريقة المحلية أحيانا ، وبما يقلد بعض زخارف الفخار الخارجية فى مثل بامبور وكلى ، أحياناً أخرى .

وانصب كثير من الاهتمام فى نجد بالمملكة العربية السعودية على منطقة الفاو . وكانت مستوطنة قديمة على الطريق التجارى بين نجران وبين أطراف العراق عبر وادى الدواسر . وكشف فيها عن آثار عمرانها القديم وماتخلف عنه من الأوانى الحجرية والفخارية فضلا عن نقوش نصب المقابر ومخربشات الصخور مما اختلط فيه الأسلوب العربى الجنوبى بالأسلوب العربى الشمالى ويحتمل ربطه إلى حد ما بنشاط مملكة كندة قبل ظهور الإسلام .

***

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

Bawden, Edens and Miller, Preliminary archaeological investigation at Tayma, ATLAL, 4, 1980.

Dayton, J.E., "The City of Tayma and the Land of Edom, 1970—73.

Dougherty, R.P., "Tayma's Place in the Egypto-Balylonian World of the 6th Century B.C.", Mizraim, 1. 1930.

Hamid, I., Abu-Duruk. Introduction to the Archaeology of Tayma, Riyadh, 1986.

Milik, I, Priere de Nabonidus, RB, 63, 1966, 407—15

Oppenheim, L., in ANET, 283—284, 308 f.

Winnett and Reed, Ancient Records from North Arabia, Toronto 1970.

من المؤلفات المختارة فى دراسات ما قبل التاريخ :

Bilby, G., Looking for Dilmun, 1970; Arabian Gulf Archaeology, in Kuml,1954, 1964—66.

Glob, P.V., Archaeological Investigation in Four Arab States, 1959; in Kuml, 1954, 100 f.; 112 f.; 1958, 144f.

Masry, A.H., Prehistory in Northeastern Arabia, Florida, 1974.

سليمان سعدون البدر : منطقة الخليج العربى خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد . الكويت ١٩٧٤ .

عبد العزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث فى شبه الجزيرة العربية - دراسات الخليج والجزيرة العربية - الكويت ١٩٨١ ، إصدار ٤ - ص ٦٣ - ٧٢ ، ٧٧ - ٨٠ .

الفصل الثاني عشر

الجماعات العربية القديمة ذات الصلة برسالات الأنبياء

أولا — مديـــن

أبقى على ذكر مدين ماذكره القرآن الكريم وذكرته التوراة عن ارتباطها بالنبيين موسى وشعيب عليهما السلام . فقد لجأ موسى عليه السلام إلى أرضها هرباً من مصر بعد أن قتل فيها أحد خصومه . . وصاهر فى مدين رجلا صالحاً ذكرته التوراة باسم « رعوئيل » وأطلقت عليه لقب « يثرون » بمعنى الكاهن . كما ذكرت ابنته التى تزوجها موسى باسم صمورة .

وتدل معاصرة مدين لعهد موسى عليه السلام على قدم وجودها وإمكان نسبتها إلى ماقبل القرن الثالث عشر ق.م. على أقل تقدير . وكان قومها يتألفون من قبائل متعددة انتشرت فى إقليم حسمى وما يمتد منه إلى الشرق والجنوب الشرقى من خليج العقبة . وربما وصلت إبان ازدهارها حتى حدود واحة العلا الحالية فى شمال الحجاز .

أما النبى شعيب عليه السلام الذى ذكر القرآن الكريم قيامه بدعوة أهل مدين إلى عبادة الله وحده ، فمن المحتمل توقيت عهده بأوائل فترات ازدهار تاريخها القديم .

وإذا كانت قصة النبى موسى قد دلت على اعتماد بعض قبائل مدين على حرفة الرعى ، فإن دعوة النبى شعيب لهم بالتزام الأمانة فى الكيل والميزان تعنى أن بعض قبائلهم الأخرى اعتمدت على معاملات التجارة فى حياتها الاقتصادية . وكان موقع أرضهم يسمح لهم فعلا بالانتفاع بثلاثة طرق تجارية رئيسية : طريق يتجه نحو شبه جزيرة سيناء وجنوب فلسطين .

وطريق يتجه ناحية الجنوب بشعبتين فى اتجاه يثرب ومكة . وطريق ثالث شرقاً نحو تبوك وتيماء .

وإلى جانب الرعى والتجارة كان فى اتساع المنطقة التى انتشرت فيها قبائل مدين ماجعلها تنتفع كذلك بعدد من الواحات الخصبة فى شئون الزراعة ، وربما انتفعت أيضاً بساحلها المطل على البحر الأحمر فى النشاط البحرى . وكانت أكبر واحات المنطقة هى واحة البدع وتركزت حولها أهم جماعات مدين . وأدت كثرة مياهها وكثرة ماينمو فيها وفيما يمتد منها إلى ساحل البحر من الأشجار ونخيل التمر والدوم ، إلى اتجاه بعض المؤرخين المسلمين إلى ربطها باسم « الأيكة » بمعنى الغيضة أو الشجر الكثيف الملتف ، واعتبروها على هذا الأساس هى الأيكة التى ذكر القرآن الكريم أن أصحابها كذبوا المرسلين .

ووافق بعض الباحثين الغربيين على فكرة الربط بين أرض مدين وبين الأيكة فعلا ولكنهم فسروا اسم الأيكة بطريقة أخرى ، فاعتبروه النطق العربى لكلمة Leuke التى أطلقها بعض الإغريق على الميناء البحرية الواقعة فى أرض مدين حين سموها Leuke Kome بمعنى القرية البيضاء ، وهو المعنى الذى يشبه اسم ميناء الحوراء (أو أملج) الحالية الواقعة إلى الجنوب الغربى من واحة البدع . ولايزال التفسير الأول أى تفسير المؤرخين المسلمين لكلمة الأيكة هو الأكثر شيوعا .

ويفهم من قصص التوراة أن عداء أهل مدين للعبرانيين بدأ منذ عهد موسى عليه السلام ، وذلك مايمكن تفسيره بما أسلفناه من أنهم تألفوا من قبائل عدة . ربما صادقت إحداها موسى بعد أن تزوج منها ، بينما جاهرت القبائل الأخرى قومه اليهود بالعداء بعد أن خشيت منهم على أرضها وتجارتها .

وزاد عداء مدين للاسرائيليين حينما زادت أطماع هؤلاء الأخارى فى فلسطين ومايليها جنوبا على عهد ملكهم شاؤول فى نهاية القرن الحادى عشر

ق.م. وقد قاومهم المديانيون مقاومة شديدة بحيث ذكرت إحدى الروايات أنهم تمكنوا من بنى إسرائيل سبع سنين .

وبعد قرون دخلت مدين فى طى النسيان ، ثم سيطر الأنباط على أرضها بعد أن مدوا نفوذهم التجارى والسياسى من شرق الأردن إلى شمال الحجاز . وعملوا خلال القرن الأول ق.م. على توسيع ميناء الحوراء وتحصينها . ولاتزال المقابر التى نحتت فى الصخر بجوارها خلال عصرهم تعرف باسم مغاير شعيب وتشبهها بعض مقابر واحة البدع ، كما تشبه بقية مقابر الأنباط فى بترا وفى مدائن صالح ، لولا أنها تهدمت إلى حد كبير .

***

ثانياً — قوم عـــاد

اعتاد الرواة والاخباريون الأوائل أن يضربوا المثل فى القدم بعاد ، واعتادوا على أن ينسبوا إليها كل ماعظموا شأنه وجهلوا أصله من أطلال القصور والآبار وبقايا الصخور والأشجار القديمة أيضاً . واعتمد أولئك الرواة والأخباريون فى بعض ماذكروه عن قوم عاد على ماجاء عنهم فى القرآن الكريم ، كما اعتمدوا على تفسير كتبة التوراة ومن تأثروا بهم .

ويفيد ماذكره القرآن الكريم عن قوم عاد أنهم عاشوا فى منطقة تعرف بالأحقاف (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) . وأنهم تميزوا بإرم ذات العماد (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم تخلق مثلها فى البلاد) . وأنهم كذبوا نبيهم هودا (كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون) . وأنهم كانوا أولى بأس وقدرة (أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين) . وربما كانوا قريبى الصلة بالثموديين (وأنه أهلك عادا الأولى وثمودا فما أبقى) . وأنهم عوقبوا جزاء كفرهم بريح عنيفة أطاحت بكل ماكانوا فيه (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم).

ولم يعين القرآن الكريم موضع الأحقاف ، ولهذا تعددت آراءالمفسرين والمؤرخين المسلمين بشأنها .

وذهب بعضهم إلى تعيين أحقاف عاد بمنطقة الأحقاف فى حضرموت وزكوا رأيهم بما يعتقده بعض أهل حضرموت من وجود قبر هود فى أرضهم ووجود بئر تسمى بئر برهوت رووا أنه كانت تصدر عنها أصوات هائلة فى العصور القديمة وتخيلوا أن هذه الأصوات هى أصوات قوم هود المعذبين ولكن أضعف هذا الرأى القديم عدة قرائن نذكرها فى ص ١٥٣—٤ . ومنها أن الروايات الشعبية يصعب التسليم بها دائماً أو كاملا دون دليل . فكما قال بعض أهل حضر موت بوجود قبر هود عليه السلام فى أرضهم . قال بعض أهل شبه جزيرة سيناء إن قبره فى أرضهم .

وإلى جانب رأى من قالوا بوجود الأحقاف فى حضرموت . قال رأى آخر إنها رمال مستطيلة بشحر عمان . وقال ثالث إنها حشاف من حسمى ، والحشاف هى الحجارة فى الموضع السهل . وقال رابع بأنها اسم جبل فى الشام . وقال خامس إنها اسم عام يطلق على أى منطقة إذا عظم رملها واستدار (ويقال له حقف) .

وفى اختلاف هذه الآراء مايدعو إلى عدم التقيد برأى منها ما إلا بعد تمحيصه ووجود أدلة تؤيده .

وربط القرآن الكريم بين قوم عاد وبين إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد . فاعتبر بعض المفسرين والمؤرخين إرم هذه مدينة عظيمة وعينوها بالاسكندرية تارة ودمشق تارة أخرى . واعتبرها بعض آخر قبيلة قوية ، وكان من هذا البعض الأخير المؤرخ ابن خلدون الذى وجه إلى أصحاب الرأى الأول نقداً لاذعاً .

وجعل ياقوت إرم جبلا عظيماً فى ديار جذام قرب العقبة تنمو عليه الكروم وأشجار تشبه أشجار الصنوبر . وذكر الرحالة القزوينى أن قوم عاد عاشوا على هذا الجبل الذى أصبح من منازل طى،وكانت توجد عنده بقايا تماثيل كثيرة ومنازل عديدة .

وادت الكشوف الأثرية الحديثة إلى الكشف عن بقايا عمران متسع فوق وحول جبل إرم هذا بالفعل شرقى العقبة ، ومنها معبد أقيم فوق الجبل ترجع بعض نصوصه إلى القرنين الأول والثانى الميلاديين ، وأعداد من التماثيل ومن النصب التى تذكر اللات والعــزى . وقد لا تتيسر نسبة هذه الآثار إلى قوم عاد بصورة مؤكدة . لولا أن هناك أدلة أخرى تزكى نسبة هؤلاء القوم،قوم عاد،إلى شمال شبه الجزيرة العربية أكثر من جنوبها ، ومنها أن القرآن الكريم جمع بين عاد وثمود ، وثمود شمالية فيما هو شائع ، وجعل مواقع عاد قريبة من أهل الحجاز حين نزول القرآن فقال (وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم) ، وقال (اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) .

وربط بعض الشعراء المبكرين بين عاد وثمود . وأطلقوا على ثمود اسم عاد الثانية أخذاً بقول القرآن الكريم (وأنه أهلك عاداً الأولى) — ولم يعترض عليهم معترض .

هذا وقد ذكر الجغرافى بطلميوس السكندرى (فى القرن الثانى الميلادى) اسمين فى شمال الحجاز يمكن الربط بينهما وبين قوم عاد ، وهما اسم شعب Oaditae الذى يتشابه مع اسم عاد ، واسم Aramaua الذى يتشابه مع إرم ورم وأرام وكلها أسماء تعاقبت لمسمى واحد .

ومال بعض المؤرخين المحدثين إلى تفسير ما تواتر لدى أهل حضرموت عن وجود قبر هود عليه السلام عندهم بأنهم وغيرهم من العرب الجنوبيين كان يعز عليهم أن ظهر الأنبياء بين العرب الشماليين دونهم ، فاعتمدوا على وجود اسم الأحقاف فى أرضهم ونسبوه إلى عاد ، واعتبروا سكانها القدامى قوم هود ، حتى لاتكون للعرب الشماليين ميزة عليهم حتى ولو كان قوم هود هؤلاء قد عوقبوا جزاء تكذيبهم له . ولايبعد مع هذا أن بئر برهوت التى دارت حولها أساطير قوم هود المعذبين كانت فوهة بركان صغير ثائر ، خمدت ثورته مع مرور الزمن .

***

ثالثاً — الثموديــون

توافر للثموديين حظ كبير من الشهرة بين المؤرخين المسلمين نظراً لما ذكره القرآن الكريم عنهم . ولمعرفتهم بجزء من أرضهم ، وبقاء بعض آثارهم حتى بداية العصور الإسلامية (ومابعدها) . وكما سلك القرآن الكريم ثمودا مع عاد . سلكهم كذلك مع قوم لوط وأصحاب الأيكة وسماهم الأحزاب . ووصف الثموديين بأنهم الذين جابوا الصخر بالواد ربما بمعنى الذين قطعوا صخر الجبال ونحتوا فيه مقابرهم أو بنوا به بيوتهم . وذكر القرآن الكريم العذاب الذى نزل بهم جزاء كفرهم بدعوة نبيهم صالح عليه السلام فى قوله (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ، وقوله (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) .

وأشارت النصوص الأشورية إلى قدامى الثموديين باسم « تمودى » منذ أواخر القرن الثامن ق. م . واعتبرتهم من أهل البرية ، وذكرت أنهم وجيرانهم من الأعراب لم يألفوا الخضوع للملوك ولا للحكام . وليس مايمنع من أن يكون أوائل جماعات الثموديين قد ظهروا قبل القرن الثامن ق.م. بكثير ولكنهم كانوا لايزالون على حال متواضعة من البداوة ، بحيث تجاهلهم فيما بعد كتبة قصص التوراة وتجاوزوا عن ذكرهم بينما ذكروا بعض أسماء القبائل التى جاورتهم فى البادية مثل قبيلة خايابا وقبيلة عيفة اللتين ذكرتهما النصوص الأشورية مع الثموديين .

واتفق المؤرخون المسلمون على أن أهم ديار ثمود كانت بوادى القرى فيما بين الحجاز وبين الشام . ورووا أن النبي عليه السلام مر بجيشه على خرائب ديارهم فى الحجر ونهى عن دخولها ربما لتأكيد كره الكافرين أو لأنه توجس أن تكون آبارها وعيونها قد سممت بفعل فاعل للإيقاع بالمسلمين الذين كانوا قد عانوا من شدة حرارة الصحراء فى طريقهم إليها . كما تناقلوا القصص عن ناقة النبي صالح عليه السلام ومكان خروجها ومكان محلبها . . . إلخ .

ولسنا على بينة من العهود التي تزايد الثموديون خلالها في شمال الحجاز أو العهد الذي بعث إليهم فيه النبي صالح عليه السلام . ولكن يمكن إيجاز ماعرف عنهم تاريخياً في أنهم تألفوا من قبائل وعشائر متعددة وأنهم لم يكونوا دولة مستقرة واضحة المعالم ، وأنهم حين انتشروا في شمال الحجاز وسيطروا على بعض أجزائه في وادى القرى بخاصة كانت مدينة الحجر من أهم الحواضر التي عاشوا فيها ، وهي مدينة ظنها بعض المؤرخين القدامى مدائن صالح الحالية نظراً لكثرة آثارها المنحوتة في الجبال ، ووضوح التدمير الذي لحق بها ، وارتباط اسمها باسم النبي صالح . ولكن كثرة من الباحثين المحدثين حددوها ببلدة الخريبة التي تبعد عن مدائن صالح بنحو عشرة أميال وقد أصاب آثارها هي الأخرى خراب كبير . وبنوا رأيهم على غلبة النصوص الثمودية التي عثر عليها فيها ، بينما رجحوا اعتبار مدائن صالح من مناطق الأنباط على أساس غلبة الآثار والنصوص النبطية فيها وإن تضمنت إلى جانبها نصوصاً ثمودية قليلة .

وساعد الثموديين على الاستمرار الحضارى أنهم اتصلوا في شمال الحجاز بطوائف متحضرة قديمة فانتفعوا بحضارتها ومنها طوائف ددان ولحيان التي أحاطت ببلدة الخريبة ، وعندما امتدوا إلى الشمال أكثر انتفعوا ببعض حضارات جنوب فلسطين كما جاوروا امتداد الحضارة المصرية في شبه جزيرة سيناء . وعندما امتد نشاطهم إلى الجنوب اتصلوا ببعض الجماعات المتحضرة في أنحاء اليمن .

وكان من أهم ما استفادوا به حضاريا من هذه الاتصالات المتعددة ، هو الكتابة بخط متميز اشتقوه أساساً من الخط المسند الجنوبي الذي يحتمل أنهم تعلموه عن أهل منطقة ددان ولحيان إن لم يكن عن كتبة الجنوب العربي الذين اتصلوا بهم اتصالا مباشراً في شئون التجارة ، ثم طعموا هذا الخط ببعض خصائص الخط السيناتي المصرى في سيناء .

وأصبحت نصوص الثموديين هي الشاهد الحي على مدى انتشارهم ، وهي نصوص قصيرة سريعة ، ولكنها كثيرة تدل على كثرة من كانوا

يعرفون الكتابة بينهم لأغراض التجارة . وقد وجدت نماذجها خارج وادى القرى فى تبوك والطائف . وفى قلب نجد وشمالها ، وفى شبه جزيرة سيناء ، وفى مناطق متفرقة من شرق الأردن ، وفى شرق دمشق ، وفى أطراف اليمن أيضاً ، وكل ذلك مما يدل على سعة انتشار قوافلهم وكثرة اتصالاتهم التجارية ولا سيما فى العهود المتأخرة فى الزمن نسبياً فيما قبل الميلاد بقليل وفيما بعده بقليل أيضاً .

وشاعت بين الثموديين أسماء عربية خالصة مثل سعد وقيس ومالك ووائل وزيد وأوس وعاصم وعمر وعقرب وواسط وكعب وحارثة . وسعدة ومسكة وسمرة وهانئة . . . إلخ .

كما وجدت بينهم أسماء قل استعمالها قبيل الإسلام ويبدو أنهم تأثروا فيها بأسماء من كانوا يخالطونهم من الأراميين وغيرهم ومنها ثريت ، وهل ، وبى . . . إلخ .

وأخذ الثموديون بتعدد المعبودات كغيرهم من الجماعات القديمة ذات الديانات الوضعية . فقدسوا الشمس وودا وكاهل وبعلة ومناة . . . إلخ. ومن أجل إصلاح هذه العقائد أرسل فيهم نبيهم صالح ، ولكنهم خالفوه .

وظل لبقايا الثموديين كيانهم حتى غلب الأنباط على وادى القرى ، فتفرقوا ولكنهم ظلوا معروفين خلال القرون الأولى بعد الميلاد . فأشار إليهم مؤلف كتاب الطواف حول البحر الإريترى فى بداية القرن الثالث الميلادى وذكر أنهم انتشروا فى أيامه على ساحل صخرى طويل لاتوجد به خلجان صالحة تحتمى بها السفن .

ويبدو أن جيوش الروم ظلت تتقبل أعداداً منهم فى قواتها المساعدة حتى القرن الخامس الميلادى . وأخيراً ربط بعض النسابين بين أواخر الثموديين أو نسلهم وبين قبائل ثقيف العربية . ولكن الثقفيين أبوا هذه النسبة واستنكروها .

***

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

Branden, A. van den, Histoire de Thamoud; Les Inscriptions Thamoudéennes de Philby. 1950; Essai de Solution de Probleme Thamoudéens, in BR, 1958, 7-12; Studia Islamica, 1957, 5-27.

Hardings, L., Some Thamudic Inscriptions...., 1952.

Jamme, A., Thamudic Studies, 1967.

Jaussen et Savignac, op. cit.

Littmann, E., Thamud and Safa, 1940.

Musil. A., The Northern Hegaz, 1926.

Philby, J., The Land of Midian, 1957.

Ryckmans, R., in Studia Islamica, 1956, 8 f. ; Muséon, 1959, 177-189

Winnett, F.V., op. cit.

جواد على : المرجع السابق

دائرة المعارف الإسلامية — مواد مدين وعاد وثمود .

الفصل الثالث عشر

من الممالك العربية المستقرة

أولا — دولة ددان ولحيان

قامت حاضرة هذه الدولة فى واحة العلا قرب وادى القرى إلى الشمال الغربى من المدينة المنورة بنحو ٣٢٨ كم ، وامتدت منها فى عهود ازدهارها إلى ماحولها حتى قرب تيماء . واعتمدت اقتصادياتها القديمة على الزراعة لوفرة المياه الباطنية فى واحة العلا وخصوبة أرضها ، وعلى التجارة نظراً لموقعها على طريق القوافل التجارى الرئيسى القديم الممتد فى غرب شبه الجزيرة بين معين على أطراف منطقة الجوف الجنوبى وبين أطراف الهلال الخصيب فى الشمال .

وأطلق اسم ددان فى بداية الأمر على الأرض والدولة والشعب ، وذكرته قصص من التوراة يرجع أقدمها إلى مابين القرن التاسع ق.م.وبين القرن السادس ق.م. ، كما تضمنته نصوص من الواحة نفسها قد يرجع أقدمها كذلك إلى القرن السادس ق.م .

وبعد عهود يصعب تقديرها وربما فى القرن الخامس ق.م. ، عرفت الواحة ودولتها وقبيلتها الحاكمة باسم لحيان ، وهو اسم احتفظ به بطن من بطون العرب حتى ظهور الإسلام ثم انصهر فى قبيلة هذيل . وتوثقت علاقة لحيان بدولة معين الجنوبية على أساس الاشتراك فى المصالح التجارية ، ونزلتها جالية من معين كما أسلفنا فى الفصل السادس ، وانتفعت الواحة من هذه العلاقة بمعرفة خط المسند الجنوبى الذى تطور بعد تحويره إلى الخط اللحيانى وكان من أوائل الخطوط المعروفة التى كتبت بها نصوص العرب الشماليين . واتسعت علاقات لحيان بجيرانها فى الشام عن طريق البر ، وفى مصر عن طريق البر والبحر . بحيث وجدت فى لحيان بضعة تماثيل عثرنا على

بعضها منذ عدة سنوات فى الخريبة المجاورة للعلا . أخذت بالأسلوب الفنى المصرى القديم ويرجع تاريخها إلى ما بعد القرن الخامس ق.م. — ويبدو أن أصحابها من حكام لحيان أو أثريائها قد أعجبوا بأمثالها فى مصر فانتدبوا فنانين مصريين قاموا بنحتها من الصخر المحلى فى منطقة الخريبة . وجمعوا فيها بين تقاليد الفن المصرى فى جسم التمثال وبين الملامح وأغطية الرأس اللحيانية فى الرأس والوجه .

وتوثقت هذه العلاقة بين لحيان وبين مصر فى عصر البطالمة . ويبدو أنه قامت مفاوضة بينهما فى عهد بطلميوس الثانى فى أوائل القرن الثالث ق.م. لخروج المتاجر الواصلة إلى لحيان برا وبحراً بطريق مباشر من ساحلها إلى إحدى الموانى المصرية المقابلة لها على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، وبهذا يقل وصول هذه المتاجر إلى خصوم الطرفين الأنباط والسايوكيين فى جنوب بلاد الشام .

وقد شاركت لحيان فى تجارة البحر فعلا ربما عن طريق ميناء الوجه الموجودة فى منطقتها ، وكان من أثر نشاطها البحرى أن ذكر الرحالة بلينى جزءا من من خليج العقبة باسم الخليج اللحيانى .

وشاعت بين اللحيانيين أسماء عربية خالصة مثل حمد وعاصم وعنزة وأوس وسمر وحجر ومسلمة . وأسماء نسبوها إلى معبوداتهم القديمة مثل زيد غوث وبركة غوث وعبد ود وعبد مناة .

وظهر من أسماء ملوكهم أسماء هناس بن شهر ، وشامت جشم بن لوذان ، ومنعى لوذان . . .

ويبدو أن ازدهار لحيان فى القرن الثالث ق.م. أطمع فيها حليفتها دولة معين الجنوبية التى كانت قد بلغت بدورها مرحلة مزدهرة فى تاريخها ، فمدت نفوذها إليها خلال القرن نفسه ، وأصبح للجالية المعينية فيها مكان الصدارة الاقتصادية . وبعد أن كان يرأس الدولة ملوك من أهلها ، تولاها ولاة يتلقبون بلقب « كبر » وقد يشترك اثنان منهم فى الحكم فى آن واحد ربما ليكون أحدهما رئيساً للحيانيين ، ويمثل الآخر مصالح المعينيين وملك

معين الجنوبي . وأصبحت المنطقة أو واحتها تعرف أحياناً باسم «معن مصرن» وهو اسم أشرنا في الفصل السادس إلى أنه قد يقلد اسم الدولة الحليفة وهي معين من ناحية . ويخصصها بلفظ « مصرن » من ناحية أخرى ربما بمعنى المصرية على أساس قربها من مصر أو تعاملها الواسع معها . أو بمعنى « الحدودية » .

وغالباً مايرجع إلى هذا العهد نص « زيد إيل بن زيد » ذلك التاجر المعيني الذي ذكرنا في الفصل نفسه أنه أقام في مصر حتى دفن فيها ، وكان يتولى توريد البخور وملحقاته إلى معبد السرابيوم في منف . ويصدر في مقابله أصنافاً من المنسوجات المصرية إلى بلده . وكما أكرمه المعبد المصري بلقب الكاهن المطهر يبدو أنه منحه قرضا ليسدد به ديونه ، على أن يعتبره مقدما لتجارة يستوردها إليه . وتعهد زيد إيل بالوفاء في موعد معلوم كما وعد برصد جانب من ثروته لبعض المعابد المصرية .

وأخذ اللحيانيون في عقائدهم بتعدد المعبودات مثل غوث واللات وبعل سمين وذي غابة وسلمان وكاتب أو سافر . ومن نصوصهم الطريفة نص ذكر أن معبودهم بعل سمين (أي بعل السماء أو سيدها) حرم أن ترتقي النساء صخرة عالية قام عليها معبده أو قام بجوارها . وإن كانوا في الوقت نفسه قد سمحوا بوجود الكاهنات (أفكلت) في بعض المعابد ، إلى جانب الكهنة (أفكل) الرجال . وكان لهم معبد حجري واسع توسط منطقة الخريبه المجاورة لواحة العلا ولا زالت أطلاله باقية .

واستمر اللحيانيون في طريقهم الحضاري حتى امتد نفوذ الأنباط إلى أرضهم وسيطروا عليها بعد أن ضعف شأن اللحيانيين وحلفائهم المعينيين في حمايتها ، خلال القرن الأول قبل الميلاد .

* * *

ثانياً — دولة الأنبـــاط

كانت دولة الأنباط أكثر اتصالا ببادية جنوب الشام منها بشبه الجزيرة العربية، حيث قامت كبرى عواصمهم فى « بترا » أو البتراء فى شرق الأردن. شأنهم فى ذلك شأن الإدوميين الذين سبقوهم فى هذه العاصمة نفسها . ولكننا نتناول طرفاً من تاريخ الأنباط هنا — مع تاريخ شبه الجزيرة العربية بناء على ثلاثة اعتبارات ، وهى : غلبة الأسماء العربية بينهم ، وامتداد نفوذهم التجارى والسياسى والحضارى فى شمال الحجاز . ثم ضخامة الآثار التى تركوها فى مدائن صالح . ومغاير شعيب .

كان الأنباط كما قدمنا قبائل عربية الأصل غلبت عليها فى مراحل نشأتها حياة البداوة وحرفة الرعى ، وانتشرت بطونها بين جنوب بادية الشام وبين شمال عرب شبه الجزيرة العربية . ووصف المؤرخ ديودور الصقلى حال الأنباط الأوائل فى هذه المرحلة فيما قرأه أو سمعه عمن سبقوه بأنهم كانوا بدوا رعاة لايعرفون الزراعة ولا يشربون الخمر ، وأرضهم أغلبها صخرية وعرة توجد بها بحيرة ملحة تصدر عنها أبخرة حارة وتصعب الإقامة بجوارها ، ولكن توجد معها أراض أخرى كثيرة الأشجار والنخيل.

وشجع انتشار الأنباط حول طرق التجارة البرية الرئيسية على أن يتطلعوا إلى مكاسبها ، فعمل بعضهم فى الإغارة على قوافلها ، وعمل بعضهم فى حراستها . وعمل بعضهم فى المشاركة فيها ثم الانفراد بها . وأدى احتكاكهم بدولة إدوم فى جنوب الأردن إلى أن يعتادوا على الاستقرار شيئاً فشيئاً . وأن يمارس بعضهم الزراعة ، وأن يستفيدوا بعض الشىء من الحضارة الآرامية التى أخذ الإدوميون بها . ثم استغل الأنباط ضعف هذه الدولة أمام اعتداءات العبرانيين عليها وسيطروا على أرضها خلال القـــــرن الخامس قبل الميلاد وحلوا محل أمرائها فى حكم عاصمتهم التى عرفت باسم رقيم ، واسم سلع الذى يعنى الصخرة (التى تفصل بين واديين) . وقد ترجم الإغريق عن هذا المعنى الأخير باسم « بترا » فاشتهرت به ولاتزال

تعرف بمرادفه « البتراء » حتى الآن . وهكذا عمل الأنباط بعد استقرارهم فى الزراعة كما عملوا فى تجارة البر ، وربما تطلعوا إلى السيطرة على مابقربهم من تجارة البحر أيضاً . ولكن جر عليهم نشاطهم فى تجارة البر منافسة خلفاء الاسكندر فى الشام وآسيا الصغرى منذ أواخر القرن الرابع ق.م. . كما جرت عليهم قرصنة البحر وتجارته منافسة البطالمة حكام مصر فى العهد نفسه .

وعن هذه المرحلة يذكر ديودور الصقلى أن جيش أنتيجونوس أحد كبار القادة من خلفاء الاسكندر فى الشرق أراد إرهاب الأنباط وصرفهم عن محالفة البطالمة فأغار على عاصمتهم بترا ونهبها خلال غياب رجالها عنها للغزو أو للتجارة أو للاحتفال بعيد دينى . ولكن الأنباط لاقوا هذا الجيش فى عودته وأبادوا أغلب مؤخرته . وأعاد جيش أنتيجونوس الكرة عليهم بقيادة ولده لينتقم منهم فتحصنوا بمدينتهم التى تحيط المرتفعات بها ولا يتيسر دخولها إلا عن طريق ممر جبلى ضيق يمكن أن تحميه القلة من الرجال. وطال حصاره لهم حتى صالحوه على بعض الهدايا فرجع عنهم .

وكان أقدم من ذكرتهم قصص التوراة من ملوك الأنباط الملك حارثة (الأول) ووصفته بأنه زعيم العرب وقصدت بذلك العرب المقيمين فى بادية الأردن . وذكرت له شأناً فى منازعات رؤساء العبرانيين بعضهم مع بعض .

غير أنه لم يعثر حتى الآن على نصوص نبطية صريحة إلا من قبيل القرن الثانى ق.م. ثم وضحت أطماع ملوك الأنباط للتوسع قبيل بداية القرن الأول قبل الميلاد . وتعددت معاركهم مع الجيوش السليوكية ، وهاجم ملكهم حارثة الثالث دمشق واستولى بجيشه عليها ، وسكت فيها عمله رسمية باسمه حوالى عام ٨٥ق.م. ولكن لم تطل إقامة الأنباط فيها حيث استردها الرومان منهم فى حوالى عام ٦٥ ق.م. بعد أن سيطروا على أغلب بلاد الشام .

وأدت فترات التوسع الأنباطى إلى أن استزاد أهله من حضارة الأراميين التى عرفوها فى إدوم ، وكانت دمشق من أكبر مراكزها ، كما ساعدهم

على أن يتذوقوا نعيم أهل الحضر . وكان خير ما تعلموه من حضارة جيرانهم هو حروف الكتابة الآرامية التى أسلفنا مراحل تطويرها على أيدى كتبة الأنباط وتميزهم بها ، فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، وكيف أصبحت أساساً فيما بعد للكتابة العربية .

وعلى نحو ما انتفع الأنباط بحضارة الآراميين انتفعوا كذلك بالحضارة الهيلينستية التى تعهدها السليوكيون فى سوريا . وعرف الأنباط منها سك العملة ، ثم تطوروا بعملتهم واعتادوا على أن ينقشوا عليها صور رؤوس ملوكهم . وربما صوروا معها رؤوس الملكات أيضاً . أو صوروا مع رأس الملك رأس أمه إذا كان صغيرا وكانت وصية عليه .

وامتد الأنباط مع مسالك التجارة على ساحل الحجاز واستغلوا قوتهم مع ضعف بقايا أهل مدين واللحيانيين فسيطروا على أراضى هؤلاء وهؤلاء خلال القرن الأول قبل الميلاد ، وتركزت جالياتهم فى محاط القوافل الرئيسية بهذه الأراضى ، وقد ذكرنا منها من قبل واحة البدع والحوراء فى أرض مدين . والحجر ومدائن صالح وواحة العلا فى أرض اللحيانيين .

وعندما استتب أمر حكم الرومان فى بلاد الشام أيقن الأنباط أن لاسبيل لهم إلى مقاومتهم ، وربما تقربوا إلى القائد الرومانى أوكتافيوس بإحراق جزء من أسطول خصيمته كليوباترة . ورأى الرومان أن يستفيدوا منهم فاستعانوا بفرقة حربية منهم لمعاونة يوليوس قيصر على التخلص من حصار المصريين له فى الاسكندرية (فى عهد الملك النبطى مالك الثانى) ، كما استعانوا بجماعة منهم فى حملة آيليوس جاللوس القائد الرومانى على بلاد اليمن ، وصحبهم فيها الدليل صالح (أوسلى أوســلاء) Syllaeus كما تقدم القول بذلك—وقد عرف أحد معاونى الملك النبطى عبادة الثانى فى العهد نفسه باسم صالح فعلا ، كما نزلت حامية رومانية فى ميناء الحوراء التى كانت قد خضعت من قبل للأنباط .

وظلت العلاقات بين الرومان وبين الأنباط فى جنوب الشام بين مد وجذر ، فطورا يقتطع الرومان أرضا من الأنباط ويهبونها لليهود ، وطورا

يجاملون الأنباط ويزيدون فى أملاكهم . وعلى أيه حال فقد ازداد اتصال الأنباط بالحضارات الخارجية نتيجة لاتصالهم بالرومان وعملهم فى جيوشهم، إلى جانب ماكانوا قد اقتبسوه من الحضارات السابقة عليهم .

وسجل الرحالة استرابون للأنباط مأثرة تذكر لهم ، فروى عن فيلسوف إغريقى كان يرتبط به برابطة الصداقة ، أنه نشأ بين الأنباط ورأى كثيراً من الأجانب يعيشون فى عاصمتهم ولاحظ كثيرا من المنازعات تدور بين أولئك الأجانب على حين لاحظ قلة المنازعات بين السكان الأصليين وميلهم إلى حياة السلام ربما لصالح نشاطهم الاقتصادى .

وعبر الأنباط عما استطاعوا استيعابه من فنون الحضارات المتنوعة التى اتصلوا بها فيما تركوه من آثار معمارية حفلت بها مدينة بترا فى الأردن، ومنطقة مغاير شعيب وواحة البدع فى أرض مدين . ثم مدائن صالح إلى الشمال من واحة العلا . ونكتفى هنا بآثار هذه المنطقة الأخيرة أى مدائن صالح . وترجع أهم آثارهم فيها إلى مابين القرن الأول قبل الميلاد وبين القرن الأول بعد الميلاد . وتتمثل هذه الآثار فى نحو مائة مقبرة نحتت وشكلت واجهاتها فى السفوح الجبلية بالمنطقة . وتفاوتت فيما بينها فى أحجامها وفى مدى فخامتها ، وامتازت مجموعة منها تمثل مقابر كبار الأثرياء بالضخامة والروعة والارتفاع حتى شابهت واجهات القصور . وإن لم يوجد فى بيئتها من آثار بقايا القصور الدنيوية شىء ما يرقى إلى مستواها . وقد جمع طرازها المعمارى وزخارفها بين الأسلوب المحلى وبين أساليب مصرية وهيلينستية ورومانية . ولازال أهل المنطقة يصرون على تسمية أمثال هذه المقابر الفخمة القديمة باسم القصور ، وذهب خيالهم فى تصور أصحابها كل مذهب . فهذا فى زعمهم قصر البنت ، وذاك قصر أبى البنت ، وثالث قصر الصانع ، ورابع أطلقوا عليه اسم المجلس . وهلم جرا . أما النصوص النبطية التى نقشت على واجهات هذه المبانى فهى لا تترك مجالا للشك فى كونها مقابر . ولكنها مقابر تدل على مابلغه أهلها من تنعم وثراء ومابلغه عصرها من تحضر ورخاء .

ويوجد فى نفس المنطقة معبد استغل الأنباط له مغارة طبيعية فى جوف صخرة ذات قمة تشبه القبة . وشكلوها على هيئة بهو كبير (١٢×١٠×٨ أمتار)، يطلق الأهالى عليه اسم الديوان . وأخذ الأنباط بما أخذ به أغلب العرب قبل الإسلام من تقديس هبل والعزى واللات وذى الشرى وشيع القوم . . . إلخ .

وبعد هذا التاريخ الحافل ، الذى تضمنت بترا فى الأردن أضعاف ما تضمنته مدائن صالح من آثاره ، قضى الرومان على استقلال الأنباط حوالى عام ١٠٦ بعد الميلاد وسيطروا على عاصمتهم بترا فى عهد الامبراطور الرومانى تراجان . وتحولت أرضهم بعد ذلك إلى مجرد ولاية خضعت للنفوذ الرومانى واندمجت فيما سمى باسم الـــولاية العربية Provinca Arabia وإن خصوها بعـــد ذلك هى والأراضى التى تقع إلى جنوبها باسم منطقة بـــترا العربية أو المنطقة العربية الصخرية Arabia Petraea؛ وبعد أن كان الأنباط يؤرخون نصوصهم فى عهود استقلالهم بأسمـــاء ملوكهم وسنوات حكمهم، أصبحوا يؤرخونها ببداية تبعية دولتهم لامبراطورية الرومان .

وعلى أيه حال فقد انتشرت النصوص النبطية القصيرة فى عهود استقلال أهلها ثم فى عهود حكم الرومان لأرضهم أيضاً ، فى مناطق كثيرة متباعدة دلت على سعة انتشار أصحابها مع مسالك التجارة . فوجدت فى أماكن متعددة من شمال شبه الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها . وفى جنوب الشام . وفى سيناء ، وفى صعيد مصر ، بل ووجدت نصوص قليلة فى نابولى وروما فى إيطاليا .وهذه الأخيرة نصوص ربما تركها أصحابها تذكاراً لزيارتهم لعواصم الامبرطورية الرومانية أو خلال فترات تجنيدهم فى جيوشها . وقد فعلوا نفس الشىء لبعض الوقت فى ظل الامبراطورية البيزنطية الشرقية التى ورثت الرومان فى حكم الشرق . وظل كيان الأنباط واضحاً حتى القرن الرابع الميلادى ثم اندمجوا بعد ذلك فيمن خالطوهم من السكان فى المناطق العربية وغير العربية .

***

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

Abdel-Aziz Saleh, Some Monuments of North-Western Arabia in Ancient Egyptian Style. Bull. of the Faculty of Arts, Cairo Univ., 28, 1970, 1—31.

Albright, W.F., Dedan, 1953.

Branden, A. van den, Les Inscriptions Thamoudéennes, 1950; Histoire de Thamoud; Essai de Solution de Probleme Thamoudeens, BR,1958,7-12

Cantineau, J., Le Nabateen, Paris 1931 f.

Caskel, W., Lihyan und Lihyanisch, 1953.

Hammond, Ph. C., The Nabataeans..., 1973.

Kennedy, A.B., Petra, its History and Monuments, London 1925.

Krammer, A., Petra et la Nabatene, Paris 1929.

Jaussen et Savignac, Mission Archeologique en Arabie, 4 vols, Paris, 1904-1920.

Philby, The Land of Midian, 1955.

Riddle, J.M., Political History of the Nabataeans..., 1961.

Starcky, J., The Nabataeans, 1955.

Winnett, F.V., A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Toronto, 1937.

الفصل الرابع عشر

من ممالك الأطراف العربية

أولا — مملكة الحيرة

نسبت هذه المملكة العربية إلى تنوخ تارة ، وإلى لخم تارة ثانية . وسمى ملوكها باسم بنى نصر تارة واسم المناذرة تارة أخرى . وكان لكل تسمية من هذه التسميات مايبررها فى مرحلة ما من مراحل تاريخ دولتها.

وكان لقبائل تنوخ دورها فى قلب شبه الجزيرة العربية ، كما انتشرت بطونها إلى مابين بادية العراق وبادية الشام منذ القرون الميلادية الأولى . وتعين عليها خلال هذا الانتشار أن تحسب حساب دولة تدمر القوية التى أشرفت على طرق التجارة فى الباديتين وحققت لنفسها شهرة كبيرة تجاوزنا عن دراستها هنا حيث هى أقرب إلى الدراسة مع تاريخ بلاد الشام لصلتها الوثيقة بأحداثها وثقافتها الآرامية التى جمعت بينها وبين أصولها العربية.

ويبدو أن الأمور لم تسر هينة دائما بين الفريقين ، التدمريين والتنوخيين ، مما انعكس صداه على ماصورته الروايات العربية من تنافس ومكائد بين ملكة تدمر التى أطلقت عليها تجاوزا اسم الزباء وبين ملك تنوخ جذيمة الأبرش . وأحاط الغموض بالتفاصيل الفعلية لهذا التنافس لاسيما وأن الروايات العربية قد اختلفت فى تصويره وخلعت عليه ثوب الأساطير . ولكن التاريخ قد سجل إلى جانب هذا أن دولة تدمر أتت خاتمتها على أيدى الجيوش الرومانية فى عام ٢٧٣م ، مما كان من شأنه أن يفسح السبيل أمام التنوخيين ليحاولوا القيام بدور التدمريين وأن يجربوا حظهم مع الدولتين المتسيطرتين على شئون الشرق حينذاك وهما دولة الفرس الساسانيين ودولة الرومان .

ودل على الحالة الأولى للتنوخيين ، أى حالة انتشارهم فى بادية الشام

وبادية العراق مصدران . فذكر الجغرافى بطلميوس السكندرى فى القرن الثانى الميلادى اسم شعب يشبه اسم التنوخيين وهو Tanuetiac or Thanuitae بين إمارات أو شعوب شمال غرب شبه الجزيرة العربية . كما عثر فى قرية أم الجمال بشرق الأردن على نصب أقيم على قبر رجل يدعى فهر بن سلى تلقب بلقب « مربى جذيمة ملك تنوخ » .

وكان الملك جذيمة هذا الذى أشار النص إليه من أوائل ملوك تنوخ الذين احتفظ المؤرخون المسلمون بذكراهم ، وجعلوا من قبله على رئاسة تنوخ مالكا بن فهم الذى يحتمل أن يكون تلاه عمر بن فهم ، أو تلاه جذيمة نفسه . ولقبوا جذيمة بالأبرش والوضاح ونسبوا إليه فتوحات واسعة ، ووصفوه بأنه كان « ثاقب الرأى ، بعيد المغار ، شديد النكاية ، ظاهر الحزم ، و أول من غزا بالجيوش ، فشن الغارات على قبائل العرب » . ولو أن بعض هذه الأوصاف قد خلعت أيضاً على غيره من كبار الملوك ، أى أنه ليس من ضرورة إلى التسليم بحرفيتها . ثم جعلوا نهايته فى مكيدة دبرتها له ملكة تدمر واحتفظ الأدب العربى بذكراها .

وإذا صح ما رواه بعض المؤرخين المسلمين من أن ملك جذيمة قد امتد « فيما بين الحيرة والأنبار وبقة وهيت وناحيتها وعين التمر وأطراف البر إلى الغمر والقطقطانة وخفية وما والاها » ، لدل ذلك على أن قومه قد بدأوا محاولتهم مع الفرس فى عهده أو من قبيل عهده ليسمحوا لهم بأن يقيموا على أطراف العراق .

وأضاف المؤرخون المسلمون مايعنى أن هذه الإقامة لم تتم بسهولة حيث ضاق الفرس بكثرة من أتت تنوخ بهم من العرب ، فضيقوا عليهم حتى كره بعضهم الإقامة ، ومنهم قضاعة ، فنزحوا ، وبقى بعض آخر عملوا على أن يثبتوا أقدامهم فيما نزلوا عليه ، وكان منهم لخم وترأسهم حينذاك ملوك بنى نصر الذين جعل المؤرخون أولهم عمرا بن عدى ، واعتبروه من أقرباء جذيمة وقد يكون ابن أخته .

ومع هذه الرغبة فى الاستقرار أخذ عمران الأنبار والحيرة فى الاتساع ؛

وكانت كل منهما مدينة حدودية دل اسمها على ما أنشئت فى الأصل من أجله فنشأت الأنبار (بمعنى المستودع) كمركز حدودى لإمداد الحاميات العسكرية بالمؤن ، منذ القرن الميلادى الأول ، ثم اتسعت ودعمت أسوارها . وقامت الحيرة بدور مشابه ففسر اسمها الأرامى « حيرته » بنفس مافسر به اسمها العربى « الحيرة » بمعانى المخيم والمعسكروالحصن وموضع الإقامة . . . إلخ. ويبدو أنها كانت أقدم عهدا من الأنبار ، كما قدر لها أن تصبح أكثر شهرة منها .

وصور انطلاقة هؤلاء القوم فى مرحلتهم الثانية لكى يتزعموا من حولهم من العرب والأعراب ولكى يشغلوا فى باديتى العراق والشام ما كانت تشغله من قبل دولة تدمر ، ويستفيدوا من كل من الفرس والرومان ثم الروم ، نص لملكهم امرئ القيس بن عمرو المتوفى فى عام ٣٢٨م ، وجد منقوشا بالخط الأنباطى المتطور على نصب أقيم فوق قبره فى منطقة النمارة (إلى الجنوب الشرقى من دمشق) ، وقيل فيه عن صاحبه إنه كان ملكا على العرب كلهم وأنه أحرز التاج وحكم الأسديين والنزاريين والمعديين ، وشتت قبائل مذحج ، وحاصر نجران مدينة شمر ، وولى أولاده على القبائل واستعان بهم الفرس والروم (أو جعلهم فرسانا للروم) .

وقد أسلفنا فى الفصل العاشر . أن امرأ القيس هذا قد عاصر أواخر أيام ملك عربى جنوبى لايقل عنه اقتدارا وطموحا وهو شمر يهرعش الثالث ملك سبأ وذ وريدان . وكانت جيوش شمر قد انطلقت من نجران إحدى قواعده العسكرية فتحالفت مع قبائل مذحج فى منطقة الأفلاج فى وسط شبه الجزيرة العربية وعملت على التوسع فى المنطقة الشرقية على الخليج العربى وأطراف العراق . وعندما ما ظهرت قوة امرىء القيس شن هجومه المضاد فشتت قبائل مذحج حلفاء شمر يهرعش وحاصر نجران التابعة له . ولعله وجد العون أو وجد الخضوع من قبائل عربية متفرقة مما سمح له بأن يدعى فى نصه حكم قبائل أسد ونزار ومعد .

وشيئا فشيئاً اكتفى اللخميون بالولاء للفرس دون الرومان ، وتقبل الفرس

استقرارهم فى الحيرة وفى الأنبار وما حولهما ليعدلوا الكفة فى مقابل ملوك الطوائف فى العراق . ويقوموا بدور الدولة الحاجزة لحماية الحدود وقوافل التجارة من شغب أبناء عمومتهم من بدو الصحارى . .

ونجح ملوك الحيرة فى القيام بدورهم . وثبت أقدامهم مايروى من أن يزد جرد ملك فارس قد ائتمن النعمان الأول ملك الحيرة (٣٨٨ — ٤١٨ م) على تربية ولده بهرام جور فى ظاهر الحيرة . فرباه مع ولده المنذر ، وقيل إنه أدبه بآداب العرب . وكانت فرصة ذهبية لتقارب البيتين الحاكمين . وازدادت من جرائها سلطة النعمان وزاد جيشه واتسع ثراؤه ونسب إليه إنشاء قصر الخورنق . وزاد فى الوقت نفسه ولاؤه للفرس وشن الغارات باسمهم على حدود أملاك الروم فى بلاد الشام . وإن روى بعض المؤرخين أنه زهد فى نهاية حياته وتنسك وترك لولده المنذر ملكا مكينا . وعندما توفى يزدجرد فى عام ٤٢١م أراد عظماء الفرس أن يقصوا أولاده عن عرشه ، فاستغل المنذر الفرصة وانتصر لبهرام جور وعاونه بفرقته العربية الضاربة « دوسر » أو بفرقتين ، على بلوغ عرشه ، وحمد بهرام جور له هذه المبادرة وردها إليه مضاعفة وخلع عليه لقبين تشريفيين لابد أنهما اعتبرا مكرمة منه تزيد من سمعة المنذر بين الفرس والعرب (وهما : رام أفزود يزدجرد بمعنى الذى أزاد سرور يزد جرد ، ومهشت بمعنى أعظم الحول) .

وأظهر عرب الحيرة كفايتهم فى قتال جيوش الروم وحلفائهم ، وحدهم تارة وفى صفوف الفرس تارة أخرى . وكان أشد ملوكهم ضرابا ونجاحا المنذر الثالث (٥١٢ — ٥٥٤م) الذى نسبه المؤرخون المسلمون إلى أمه ولقبوه بلقب ابن ماء السماء ، ورأى بعض الباحثين أن اسم ماء السماء هذا محرف عن اسم ماوية أو مارية ، كما أطلقوا عليه لقب ذى القرنين ربما لأنه كان يرسل ضفيرتين على جانبى رأسه ، أو لرغبتهم فى تشبيهه بذى القرنين نظرا لاتساع فتوحه مثله .

وتتابعت حروب المنذر على فترات منقطعة منذ عام ٥١٩ حتى عام ٥٥٤م ، أى خلال ٣٥ عاما . ونستطيع أن نتجاوز عن تفاصيلها لنذكر

ما يروى من أنه استطاع فى أوائلها أن يكتسح بادية الشام من حدود العراق إلى أنطاكية ، الأمر الذى جعل قيصر الروم يوفد إليه رسله من القساوسة ليفاوضوه فى إطلاق بعض من أسرهم من قادته الكبار أو يقنعوه بقبول الهدنة أو يغروه بالانقلاب على الفرس والانضمام إلى صفوفهم .

واتصلت أسباب المودة بين المنذر وبين ذى نواس الحميرى كما أسلفنا فى الفصل العاشر . وابتغى هذا الأخير أن يحالفه ، ولكن تصادف أن وصلت رسالته فى حضور قساوسة الروم عند المنذر ففسروها بأنها تحريض منه ضد نصارى الحيرة . وألبوا العالم المسيحى عليه . وعندما احتفل أبرهة الحبشى بانتهاء العمل فى إصلاح سد مأرب أوفد المنذر إليه مندوبا عنه لحضور حفله (فى عام ٥٤٣م) . وهكذا خرج عرب الحيرة بشهرتهم عن نطاق الإقليمية والتبعية .

والواقع أنه لم يفسد على دولة الحيرة أمرها فى عهد المنذر الثالث إلا عداؤها لفريقين من العرب وهم الغساسنة وبنو كندة فقد كان كل منهم أدرى بحرب الآخر ، وكل منهم يعرف عن أسرار الصحراء ودروبها ما يعرفه الآخر .

وكان على رأس بنى غسان فيما يعاصر عهد المنذر ، الحارث بن جبلة ، ولم يكن أقل جرأة واقتدارا منه ، فاتصلت الحروب بينهما للأسف أكثر مما اتصلت بين الروم وبين الفرس ، وعقد الروم والفرس أكثر من هدنة وصلح ، ولكن المنذر والحارث لم يعترفا بهدنة أو صلح ، وكما غزا المنذر أرض الشام غزا الحارث أرض الجزيرة فى العراق ؛ وهكذا أعمت المطامع بصيرة هذين الزعيمين ، وانتهى الأمر بقتل المنذر حوالى عام ٥٥٤ م فى موقعة حليمة أو موقعة الحيار قرب قنسرين كما سيرد تفصيله بعد قليل .

أما قبائل كندة فقد غدوا حينذاك قوة يخشى بأسها فى قلب شبه الجزيرة العربية كما سنتناول ذلك بعد صفحات ، فاستغل الفرس طموحهم لإضعاف شوكة ملك الحيرة بعد أن ارتفع شأنه، وتوقعوا أن يؤدى به طموحه إلى الاضرار بمصالح دولتهم أو الخروج عن طاعتها ، فتركوه يستنفد قواه ضد الحارث

ابن عمرو ملك كندة ثم عزلوه . وولى قباذ ملك فارس الحارث الكندى على الحيرة فى حوالى عام ٥٢٤م — ولجأ المنذر إلى بعض القبائل العربية التى بقيت على الولاء له وخرجت عن نفوذ كندة . ثم استرجع حكم دولته بعد أربع سنوات . وظل العداء قائما بينه وبين كندة بعد فشل الحركة المزدكية .

وتعاقب على حكم الحيرة عدة ملوك اشتهر منهم عمرو بن هند (٥٥٤ — ٥٧٤م) الذى ألمح الأعشى فى شعره إلى أن نفوذه امتد ما بين عمان وبين ملح (فى أرض اليمامة من بلاد بنى جعدة) . وكان قد استغل ضعف كندة فوسع نفوذه على حسابها وتحاربت قواته مع تميم وطى وتغلب وغيرها .

واشتهر كذلك النعمان بن المنذر (٥٨٣ — ٦٠٥م) الملقب بلقب أبى قابوس ، واشتهر أمره عند المؤرخين العرب بأقاصيص كثيرة ووصفوه بفصاحة اللسان على الرغم من دمامة خلقته . وكان بلاطه مجمعا للشعراء فمدحه المقربون إليه منهم (وأهمهم النابغة الذبيانى) وهجاه المبعدون عنه . وحاول أن يمد نفوذه من البحرين شرقا إلى جبل طى غربا . غير أن الحروب التى شنها لم يكتب له التوفيق فى أغلبها سواء ضد الغساسنة ، أم ضد القبائل العربية الأخرى . فذكرت الروايات أن جيوشه انهزمت أمام بنى يربوع مرة ، وأمام بنى عامر مرة ، وأمام تغلب مرة أخرى . وكذلك كان حظه سيئا مع كسرى ملك الفرس بعد أن أوقع خصومه بينه وبينه ، فتمكن كسرى منه وسجنه . وتفرق أنصاره عنه ، ومات فى سجنه .

كان النعمان الثانى هو آخر الملوك العظام فى الحيرة ؛ وقد اختلف أولاده على الحكم بعد موته ، واستغل كسرى ملك الفرس اختلافهم فولى على الحيرة ملكا من غير أسرتهم وهو إياس بن قبيصة الطائى وكان من كبار عرب العراق الذين أقطعهم الفرس إقطاعيات واسعة ، ووثق به كسرى كما وثق به النعمان نفسه وجعله نائبه ؛ فلما ولى الحيرة فى عام ٦٠٥م عاون جيوش الفرس ضد جيوش الروم ليثبت أنه ليس أقل كفاية من المناذرة فى نصرتهم . ولكن التوفيق جانبه فى علاقاته بأهل الحيرة وجيرانها بحيث قيل إنه أمضى أغلب عهده القصير الذى لم يزد عن تسع سنوات (حتى ٦١٤م)

خارجها . وتجرأت القبائل العربية على حدود العراق فى عهده سواء بتحريض أنصار المناذرة أو لاضطراب الأمور فى فارس نفسها .

وحدث أن نشبت حينذاك موقعة خالدة بين عرب شبه الجزيرة العربية وبين أعوان الفرس ، وكان إياس هو مندوب كسرى فى قيادة أعوانه من الفرس والعرب الخاضعين له ؛ فانهزم هو وجنوده . وكانت هزيمتهم بمثابة ضربة لسمعة فارس نفسها ، ولعلها كانت من الآيات المبشرة للعرب بأن الاستبسال يمكن أن يعوض قلة العدد فى مقاومة إحدى الدولتين الكبيرتين اللتين حكمتا الشرقين الأدنى والأوسط فى ذلك الحين وهى دولة الفرس .

اشتهرت واقعة هذه الحرب باسم واقعة ذى قار . ويقص المؤرخون المسلمون من أخبارها أن النعمان الثانى حينما تخوف من غدر كسرى به ترك بعض ودائعه من الأموال والأسلحة عند هانئ بن مسعود الشيبانى (أو هو هانئ بن قبيصه بن مسعود فى رواية الطبرى) أحد رجالات ربيعة وبكر بن وائل ، فلما مات النعمان فى سجن الفرس كلف كسرى إياسا بن قبيصة عامله على الحيرة بأن يستردها من هانىء فرفض هذا الأخير أن يفرط فيما أؤتمن عليه . فأمر كسرى بإعداد جيش من الولايات الفارسية والعربية الحدودية وأمر عليه إياسا بن قبيصة كما ذكرنا . وتلاقى هذا الجيش مع قبائل بكر وحلفائها فى منطقة ذى قار على مبعدة قليلة من الحيرة .. واستظهر الفرس وأعوانهم على العرب فى يومهم الأول نظرا لكثرة أعدادهم وما استعانوا به من الفيلة ،ولتهيب بعض العرب منهم . ولكنهم مالبثوا حتى جزعوا من شدة الهجير واحتمال تعرضهم للعطش فتقهقروا وكانت بداية النصر للعرب فتبعوهم وشاركت النساء الرجال فى شحذ العزائم . بل وصحت ضمائر بعض القبائل العربية المظاهرة للفرس فاستعدت للتخلى عنهم حين يجد الجد . وفى بطحاء ذى قار توالت أيام قليلة وجليلة تحطمت فيها عزائم جيوش الفرس وأتباعهم من شدة هجمات العرب وشدة العطش حتى هزموا هزيمة منكرة فى عام تفاوتت آراء المؤرخين فى تحديده بين ٦٠٩ م و ٦١١م .

وعن هذه الموقعة قال الرسول صلى الله عليه وسلم « هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبى نصروا » .

وليس ما يعرف عن مصير إياس بن قبيصة بعد هذه الموقعة إن كان قد استمر على حكم الحيرة لفترة بعدها أم عزله كسرى بعد أن خاب أمله فى إخلاص العرب لحكمه . وعلى أية حال فقد حكمت الحيرة ١٧ عاما أو نحوها (٦١٤ — ٦٣١م) بحكم فارسى مباشر ، ووليها فارسى يدعى آزادبة عجز عن أن يبسط نفوذه على ما فى خارجها — كما نافسه فى عامه الأخير شاب من نسل المناذرة يدعى المنذر ويلقب بالمغرور ، ثم أتت نهاية تهما معا بالفتح الإسلامى فى عام ٦٣٢م أو ٦٣٣م .

تلك كانت الخطوط العامة للاتجاهات السياسية والحربية لدولة الحيرة . أما حياتها الاجتماعية ، فأهم مايذكر لها أنها جمعت بين تقاليد العرب وبين رفاهة الفرس ، فتتوج ملوكها بالتيجان على عادة الأكاسرة ، وأمروا بالحجاب بينهم وبين الناس مثلهم ، واتخذوا الروادف أشباه الوزراء أو النواب ، وفتحوا بلاطهم للأدباء والشعراء . أما عاصمتهم فاتسعت هى وماحولها لطوائف شتى ، من اللخميين أهل الطبقة العليا ، والأحلاف الذين لحقوا بهم ، والعباد من النصارى ، وجماعات من أهل العراق الأصليين ، وجاليات وموظفين كبار من الفرس ، فضلا على أعراب الضاحية أصحاب المظال ومضارب الشعر والوبر والأخبية الذين لم يسكنوا بيوت المدر فى الحيرة وانتشروا حولها .

وتعددت الحرف بتعدد هذه الطوائف بين الزراعة والرعى والتجارة والصناعة ومنها صناعات النسيج المتنوعة ، وكان أفخرها يطرز بالقصب وسلوك الذهب ، وصناعات الحلى والأسلحة وماعداها .

وتعددت المذاهب الدينية بين الوثنية والمجوسية والزرادشتية الفارسية واليهودية والمسيحية . ووجدت المسيحية مجالا رحبا بين هذه الديانات وأخذت بالمذهب النسطورى أكثر من المذهب اليعقوبى ، وأقيمت من أجلها أديرة عدة ، وعرف أتباعها باسم العباد أو العباديين ربما نسبة إلى لفظ عبد الذى يربط بين الإنسان وبين ربه أو نسبة إلى كلمة عابد .

وكان لموقع الحيرة واتصالاتها التجارية والظروف التي أدت إلى احتكاك أهلها بغيرهم من الإمارات والجماعات سلما وحربا ، أثر فى انتفاعها بالثقافات العراقية والآرامية السريانية والفارسية والبيزنطية فضلا على العربية ، وكان فيها كتبة كثيرون يكتبون بالخط الأرامى الشرقى ، وكتاتيب تعلم الصبية ويلحق بعضها بالأديرة .

ونسب المؤرخون المسلمون إلى ملوك الحيرة كثيراً من القصور ، فنسبوا إلى أحد النعمانين النعمان الأول أو الثانى بناء قصر الخورنق بظاهر الحيرة كما تقدم ، بينما رد بعض الباحثين المحدثين تشييده إلى عصر أقدم من عصر استقرار اللخميين فى الحيرة ؛ ثم زاد عليه ملوكهم ، وقيل إن بعض أجزائه وقبابه ظلت قائمة لفترة طويلة فى العصور الإسلامية بعد أن جددت أكثر من مرة . ونسبوا إليهم قصر السدير ويمثل بقبابه الثلاثة المتجاورة نموذجا لفن البناء الحيرى ، ويتألف مجلسه الرئيسى من إيوان يحف به كمان أو قاعتان . ونسبوا إليهم قصورا كثيرة أخرى تتفق مع ماعلموه عن ثرائهم وتحضرهم ، ولم يتركوا قصرا منها بدون قصة أو أسطورة دارت حوله وميزته عن غيره . ونسبوا إلى أحد النعمانين قصة سنمار البناء وجزائه المشئوم ، وقصة يوم السعد ويوم البؤس ، وتحدثوا عن مقتل عبيد بن الأبرص فى يوم البؤس ونجاة حنظلة الطائى فى اليوم نفسه . وما إلى ذلك مما زخرت به كتب الأدب العربى وعبرت فيه بالشعر والنثر عن كثير من النواحى الطيبة والنواحى السيئة فى الحياة العربية قبل الإسلام . ورووا أن النعمان الأول تنسك وساح فى الأرض . وأن المنذر بن ماء السماء تنصر ، وأن النعمان الثانى ولد من أم ذات أصل يهودى .

وعلى الجملة ظلت أيام ملوك الحيرة مجالا خصبا لرواة العرب يمزجون فيها بين الواقع وبين الخيال ، نظرا لما تواتر إليهم عن ثرائهم ورفاهيتهم وقوة جيوشهم وقوافلهم ، واتصالاتهم بالدولتين الكبيرتين دولة الفرس بالتبعية ودولة الروم بالعداء ، وهى صفات لم يكن ينافسهم فيها من ملوك العرب الشماليين أكثر من ملوك بنى غسان .

***

ثانياً — دولة الغساسنة

قام الغساسنة على أطراف جنوب الشام وما يمتد حتى منطقة الجولان جنوبي دمشق بمثل الدور الذي قام به اللخميون المناذرة على أطراف العراق . أي بتكوين دولة حاجزة ووسيطة على أطراف بادية الشام تدين بالولاء لدولة الروم البيزنطية وتنتفع منها وتعمل باسمها ، وكانوا أحدث عهدا من المناذرة بنحو قرنين من الزمان . كما كان أتباعهم أقل استقرارا في حواضرهم من أهل الحيرة . وربما كانوا أقل ثراء وبذخا أيضاً من المناذرة . وأخذ المسيحيون منهم بالمذهب المونوفيستي اليعقوبي دون المذهب النسطوري الذي أخذ به أغلب مسيحيي الحيرة .

أطلق المؤرخون المسلمون على القبائل التي انتسب الملوك الغساسنه إليها اسم آل جفنة وآل ثعلبة فضلا عن آل غسان . وذكروا أن غسان كان اسم ماء نزلوا عليه فسموا باسمه . وأضافوا أنهم نزلوا في جنوب الشام بجوار قبائل عربية قوية تدعى قبائل الضجاعمة ، وهي من قضاعة ؛ استخدمها الروم البيزنطيون في حماية حدود أملاكهم الصحراوية . فخضع الغساسنة لها حينا وتألبوا عليها حينا حتى أجلوها عن مواضعها فتفرقت وورثوها في أرضها وفي شهرتها ، وحينذاك أقرهم الروم على مكانتهم التي حصلوا عليها بسيوفهم ، ليعملوا باسمهم على مناطق الحواف وفي قوافل التجارة . وكانوا يخصصون لهم بعض موارد الشام المالية ليستعينوا بها في تقوية إمارتهم ونفقات جيشهم .

وذكر المؤرخون عددا كبيرا من الحكام الغساسنة تراوح بين الأحد عشر وبين الاثنين والثلاثين ، وخلعوا عليهم ألقاب الملوك . ولكن يذهب الترجيح إلى أن عددا من حكامهم الأوائل لم يكونوا أكثر من مشايخ قبائل كبـــار خلع البيزنطيون عليهم لقب Phylarchos بمعنى والى ، ولقب Patricius بمعنى أب أو بطريق (؟) وهكذا كان شـأن أواخرهم الذين لم يزد أمرهم عن كونهم أمراء أو شيوخا وإن أطلق عليهم الرواة ألقاب الملوك .

ولم يتضح شأن الحكام الغساسنة فى المحيط السياسى قبل أوائل القرن السادس الميلادى ، وكان أشهر من احتفظت الروايات البيزنطية والعربية بأعماله منهم الحارث (الثانى) بن جبلة . وولده المنذر .

طال حكم الحارث الثانى ابن جبلة واحدا وأربعين عاما (٥٢٨ — ٥٦٩م). عاصر فيها الامبراطور يوستينيانوس (أو جستنيان) فى بيزنطة ، والمنذر الثالث ملك الحيرة . وكان كفئا لهذا الأخير طموحا مثله بدأ حروبه معه منذ العام الأول من حكمه (٥٢٨م) ليس فقط كممثلين للدولتين الكبيرتين المتنافستين دولة الروم ودولة الفرس . ولكن للتنافس بينهما كذلك على السيطرة على المناطق التى أطلقت المصادر البيزنطية عليها اسم Strata وتمتد فيما يرى نولدكه على جانبى الطريق الحربى من دمشق حتى سرجيوس إلى الشمال من تدمر . وتعاقبت الانتصارات والهزائم بين الجانبين وكانت ضارية عنيفة كما أسلفنا فى الحديث عن تاريخ المناذرة، وبحيث قيل إن المنذر أسر ولدا للحارث فى عام ٥٤٤م وذبحه قربانا للعزى ، وأسر الحارث ولدين للمنذر فى موقعة أخرى فى العام نفسه — واستمر الحال هكذا حتى قتل المنذر قرب قنسرين عام ٥٥٤م ، وقتل فى نفس الموقعة ولد آخر للحارث . ومع ما كان فى هذا التنافس من دمار مؤسف للقوتين العربيتين ، ازداد سلطان الحارث مؤقتا فى أرضه وامتد نفوذه من جنوب الأردن حتى الرصافة فى شمال بادية الشام ، واشتهرت من مدن دولته البلقاء والصفا وحران . ولقب نفسه بلقب ملك وقيل إنه تتوج بتاج عوضا عن الإكليل الذى سمح الروم به لأسلافه ، حتى لاتكون لخصومه المناذرة ميزة عليه ، وربما أقره الامبراطور البيزنطى على لقبه وتاجه حين زاره فى القسطنطينية عام ٥٦٣ م ليستأذنه فى تعيين خليفته المنذر ، ونعلق هذا على الاحتمال لاختلاف المؤرخين بشأنه .

على أن الواقع أن العلاقات بين الروم وبين الحارث الغسانى لم تكن خالية من الشوائب دائما ؛ فهو وإن أخذ وقومه بالمسيحية مثلهم إلا أنه كان يأخذ بالمذهب المونوفيستى اليعقوبى ويناصره كما أسلفنا دون المذهب

الذى يناصره الروم ، وكان فى هذا ما أثار حفيظة بعض قساوسة الروم ضده وشكهم فى ولائه لهم . وقد اتهموه بالخيانة خلال اشتراكه مع جيش بليزاريوس فى حرب الفرس فى عام ٥٤١م حين تراجع عن صفوف الحملة بعد أن عبر معها نهر دجلة ، إما عن أنفة من التبعية له فى الجيش أو نتيجة لخصومة شخصية بين القائدين .

وأعقب الحارث ولده المنذر (٥٦٩ — ٥٨١م) الذى لاندرى كيف سماه باسم خصمه-- فتوالت حروبه مع النعمان ملك الحيرة وتعاقبت الانتصارات والهزائم بينهما كما حدث فى عهد أبويهما . فانتصر على اللخميين فى موقعة عين أباغ قرب الفرات فى عام ٥٧٠م . ولكنه لم يستمتع بنصره طويلا حيث غدر به الامبراطور يوستينوس (جوستين) الثانى ولم يكن يطمئن إليه فحرض عليه والى سوريا البيزنطى ليعمل على قتله . ولم يكن هذا الوالى أقل حقدا منه عليه ،ولكن المنذر استطاع النزوح بجزء من جيشه إلى البادية ورد للروم الصاع صاعين فأقلق حدودهم بإغاراته السريعة . وتشجع المناذرة بغيابه عن الميدان فأغاروا على سوريا ، الأمر الذى جعل الروم يتسامحون مع المنذر فى أواخر عهد يوستينيوس الثانى . وعندما ولى الامبراطور تيبيريوس الثانى (٥٧٨م — ٥٨٢م) وزاره المنذر الغسانى فى عاصمته أقره الامبراطور على لقب الملك وسمح له بالتتوج مثل أبيه (فى عام ٥٨٠ م) .

وظل سوء الظن قائما بين الطرفين يطل برأسه من حين إلى آخر . فحدث أن اشترك المنذر مع والى سوريا فى حملة فاشلة على العراق فرد الروم فشلها إليه . ولكى يثبت براءته مما نسب إليه أغار مع أعوانه العرب وحدهم على الحيرة وألهب فيها الحريق .

وإذا كان المنذر قد فعل هذا ليرضى سادته على حساب بنى عمومته . فقد اعتبروا نجاحه فى هذه الغارة تحديا لهم ولفشلهم . ونجح أعوان الامبراطور فى هذه المرة فى القبض على المنذر ونفيه إلى صقلية . وقطع المعونة التى كانت بيزنطة تقدمها إلى دولته .

وحاول أولاد المنذر الغسانى أن يثأروا له فشبت المنازعات بينهم وبين البيزنطيين . وكان على رأسهم أخوهم الأكبر النعمان ، الذى سماه أبوه باسم خصمه أيضاً . ولكن محاولاتهم لم تجد وتشتت شمل أسرتهم الحاكمة منذ عام ٥٨٣ أو ٥٨٤م ففقدت ملكها الواسع وهبط زعماؤها الكبار إلى مرتبة الإمارة وترأسوا مناطق متفرقة من ملكهم القديم — وقيل إن بعضهم مال إلى جانب الفرس نكاية فى الروم . وأضعف من آمال الغساسنة فى استرجاع مجدهم استيلاء جيوش الفرس على بلاد الشام فى عام ٦١٣م . ولم يكن من المنتظر أن يطمئنوا إليهم بعد عدائهم القديم لهم ولحلفائهم . ثم سنحت الفرصة للغساسنة من جديد بعد نجاح جيوش هرقل قيصر الروم فى إجلاء جيوش الفرس عن الشام فى عام ٦٢٩م . ويبدو أن ساسة الروم أدركوا أن لا أمان للأطراف الصحراوية وقوافل التجارة البرية إلا إذا عادت الزعامة إلى أهلها من الغساسنة . ومن هنا ظهرت أسماء أمراء جدد عاصروا ظهور الإسلام ومنهم الحارث بن أبى شمر الغسانى أمير مؤتة الذى أرسل الرسول عليه السلام إليه مع شجاع بن وهب فى العام السادس للهجرة بكتاب يقول فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق . وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لاشريك له . يبقى لك ملكك » . وأبى الحارث الإسلام . فسير الرسول عليه السلام حملة صده بقيادة زيد بن حارثة الكلبى .

ثم جبلة بن الأيهم آخر الأمراء الكبار من الغساسنة ، وقد عاصر الفتح الإسلامى للشام . وقيل إنه أسلم فى عهد عمر بن الخطاب ثم ارتد عن الإسلام لأسباب اختلفت روايات المؤرخين بشأنها .

تنقل الغساسنة فى أيام ازدهار دولتهم بين أكثر من عاصمة ، وذكر المؤرخون المسلمون من عواصمهم جلق (التى قد تكون جلين الحالية أو الكسوة على بعد عشرة أميال جنوبى دمشق) ، والجابية فى منطقة الجولان ولازالت البوابة الغربية لدمشق القديمة تسمى باسمها .

وبعد أن تحضرت جماعات بنى غسان فى بلاد الشام . أولت

اهتمامها لمشروعات الرى والزراعة واستفادت منها لاسيما فى إقليم حوران ، بحيث ذكر لها نحو ثلاثين قرية . غير أن أمور الحرب وحماية القوافل وتجارة الوساطة ظلت هى الغالبة على أوجه نشاطها .

واشتهرت من مدن التجارة الخارجية ومراكز القوافل فى أيامهم مدينة بصرى عاصمة إقليم حوران ، وقيل إن الرسول عليه السلام قصدها للتجارة مرتين فى شبابه وقابل فيها بحيرا الراهب . وكانت من مراكز الحضارات الهيلينستية والرومانية القديمة .

ثم مدينة الرصافة شمال تدمر . وقد جدد الغساسنة كنائسها وأديرتها واشتهرت بقديسها المسيحى مارسرجيوس الذى خلع اسمه عليها فسميت Sargio-Polis وكان نصارى الشام يتيمنون به وبصورته ويعمدون أبناءهم فى كنيسته. ولازالت أطلال بوابات الرصافة القديمة وصهاريج مياهها قائمة ، على الرغم من تخريب جيوش الحيرة لها أكثر من مرة ، وفعل توالى الأزمان عليها .

وانتفعت حضارة الغساسنة بالحضارات الشامية المحلية والبيزنطية والساسانية فضلا على ميولها العربية . وكان شأنها فى ذلك شأن الحضارة الأموية فيما بعد حينما استكملت عناصرها المتعددة فى دمشق وما حولها . وترتب على ذلك أن نسب المؤرخون المسلمون آثار كل من الغساسنة والأمويين إلى الآخر . ومن أشهر هذه الآثار قصران : القصر الأبيض بجوار منطقة النمارة . وقصر المشتى وكان يقوم فى الناحية الشرقية من نهر الأردن حتى نقلت أحجاره إلى متحف برلين. وأعيد تركيبها فيه فى أوائل القرن الحالى . ويذهب بعض المستشرقين إلى إرجاع المراحل الأولى فى بناء القصرين إلى ما قبل استقرار الغساسنة فى الشام .

وأبقى على ذكر الأمراء الغساسنة فى التاريخ المسيحى ما أسلفناه من أنهم كانوا من أكبر أنصار مذهب الطبيعة الواحدة . أى المذهب المونوفيستى أو المذهب اليعقوبى . وكانوا ينيبون عنهم قساوستهم فى حضور المجامع الدينية الكبيرة التى حاولت أن توفق بين المذاهب المسيحية المتنافرة .

وخاله ذكر أمراء الغساسنة فى الأدب العربى ، شاعران ، النابغة الذبيانى الذى قصدهم بعد أن تخاصم مع ملوك الحيرة ، فكان من لطيف وصفه لهم قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ثم حسان بن ثابت الذى يرجع نسبه إليهم ، وقد نزل بلاطهم قبل الإسلام وحظى بإنعاماتهم ، ووصف نعيمهم وترفهم ، حتى بعد أن خبا نجمهم . وذكر أن نفوذهم كان لايزال يمتد فى أيامه بين حوران وبين خليج العقبة .

***

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

خالد العسلى : الحيرة وعلاقتها بالجزيرة العربية - مجلة العرب - يونيو ١٩٧٣ - ص ٨٤٧ - ٨٧٤ ؛ يوليو ١٩٧٣ - ص ٩٢٤ - ٩٣٥ .

ديسو (رنيه) : العرب فى سوريا قبل الإسلام - ترجمه عبد الحميد الدواخلى - القاهرة ١٩٥٩ .

صالح العلى : منطقة الحيرة - مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ، ١٩٦٢ .

فيليب حتى : تاريخ العرب - ترجمة بيروت ١٩٦٥ .

نولدكه (تيودور) . أمراء غسان من آل جفنة - ترجمه بيروت ١٩٣٣ .

يوسف رزق الله غنيمة : الحيرة - بغداد ١٩٣٦ .

الفصل الخامس عشر

مملكة كندة فى نجد وما حولها

لقبائل كندة تاريخ قديم قد لاتتأخر نشأته عن نشأة تاريخ تنوخ .وقد امتدت أيامها حتى نافست المناذرة والغساسنة فى عنفوان مجدهم . ولكن أحاط الغموض بتاريخ كندة أكثر مما أحاط بتاريخ هؤلاء وهؤلاء . ويرجع هذا الغموض إلى عدة أسباب ، أهمها أنه لم تكتشف لجماعات كندة آثار قائمة مهمة أو نصوص وفيرة . وأن وجودهم فى أغلب عهودهم فى قلب البادية أقصاهم إلى حد ما عن معرفة المؤرخين الكلاسيكيين والبيزنطيين فيما خلا إشارات مختصرة ذكرها عنهم كل من بلينى وبطلميوس ونونوسوس وبروكوبيوس ، ومالالاس . وثيوفانيس . ويوشع . وهى فى مجملها إشارات تحتمل كثيرا من الجدل . ثم إن أوائل المؤرخين والأدباء المسلمين الذين كتبوا عن كندة وملوكها تأثروا إلى حد ما بميولهم القبلية ، ونقلوا قصصها من مصادر متضاربة فخرجت أخبارهم عنها متباينة مختلطة .

واستفادت أغلب روايات المؤرخين والأدباء المسلمين القدامى من مؤلفات هشام بن محمد الكلبى المفقودة الآن للأسف وأخصها « كتاب ملوك كندة » وكتاب الكلاب الأول، وكتاب الكلاب الثانى . . . إلخ . كما استفادت أغلب الدراسات الحديثة عن كندة مما حققه المستشرق جونار أولندر عن « ملوك كندة أو أسرة آكل المرار » فى مؤلفه المنشور فى عام ١٩٢٧

ثم نشرت فى الأعوام الأخيرة بضعة نصوص سبأية وحميرية ألقت ضوءا جديدا على نشأة كندة وأرجعتها إلى عهود أقدم مما تخيله المؤرخون المسلمون عنها .

وسوف نبدأ بما أتت به المصادر الإسلامية القديمة ونستعين بما حققه أولندر منها . ثم نعقب أخيرا بما أضافته حديثا قراءة النصوص الأثرية القديمة إلى المعروف عن تاريخ كندة .

رد أغلب المؤرخين المسلمين كندة إلى أصل قحطانى . ورووا أنها أقامت فى بداية أمرها فى شرقى اليمن وغرب حضرموت . ثم احتدمت المنازعات بينها وبين الحضارمة إلى أن تركت موطنها ونزحت إلى الشمال . وتعاقب على كندة رؤساء لقبهم المؤرخون المسلمون بألقاب الملوك ونسبوهم إلى جد أعلى يدعى ثور . واختلفوا فى حقيقة عددهم وفى مدد حكمهم . وبعد أمد ما تحالفت كندة مع الحميريين لتكون لهم مثل اللخميين بالنسبة للفرس . فى عهد الملك الحميرى أب كرب أسعد (الملقب بلقب تبع الأكبر) أوولده حسان (بن تبع) . فولى أحدهما كبيرها حجرا بن عمرو الملقب بآكل المرار على أرض معد فنزل ببطن عاقل بنجد . وأغار ببكر فانتزع ما كان بأيدى اللخميين من أرض بكر . وكان أب كرب أسعد قد بلغ فى هذه النواحى وادى مأسل الجمح جنوب شرق الدوادمى . وسجل اسمه على صخرة فيه .

وانتشرت كندة فى أرض نجد وما فى شمالها وتصادمت مع الضجاعمة وحلفائهم الغساسنة على أطراف الشام . كما تصادمت مع المناذرة على أطراف العراق .

وولى بعد آكل المرار ولده عمرو بن حجر الذى لقب بالمقصور ربما لهبوط همته ولأن الظروف قصرت حكمه على جزء من ملك أبيه دون ملكه كله . (فاكتفى بمناطق ربيعة ومعد فى نجد وتخلى عن اليمامة لأخيه) وعوض هذا القصور بصداقاته وولائه لجيرانه الحميريين واللخميين . وشاولته الإغارة على أملاك الغساسنة .

وخلفه ولده الحارث بن عمرو الكندى فى نهاية القرن الخامس الميلادى كما يعتقد أولندر . وكان أشد صلابة منه . وامتد حكمه على قبائل بكر بن وائل التى رغبت فى الاحتماء بسلطانه حين نزحت هى وقبائل تغلب من

أرض اليمامة نحو الشمال بعد أن مزقتها حرب البسوس ، تريدان النزول فى البحرين والعراق .

وسنحت الفرص لعلو شأن الحارث الكندى نتيجة لأمرين ، وهما انتقال صيته إلى فارس بعد أن أغار أتباعه البدو على حدود العراق وحوافه الزراعية وفشلت جيوش الحيرة فى إخضاعهم . ثم رغبة الملك الفارسى قباذ فى إيجاد منافس قوى أمام المنذر الثالث ملك الحيرة حتى لاتزيد أطماعه بعد انتصاراته الأولية على الغساسنة . وبعد أن وصل إليه رسل قيصر الروم يفاوضونه فى فك أسراهم أو يغرونه بالانضمام إلى صفوفهم أو مهادنة أنصارهم . كما سلف القول من قبل . وربما كتغيير يناسب الحركة المزدكية فى فارس .

وذكر المؤرخون المسلمون أن قباذا ملك الفرس أقر الحارث الكندى على ما استولى رجاله عليه من أطراف العراق ، وأضافوا أنه استقبله بنفسه عند قنطرة الفيوم (قرب هيت) فى العراق . وبعد ان اطمأن قباذ إليه عزل المنذر الثالث وولى الحارث الكندى على أطراف العراق فحكمها من الحيرة أو من الأنبار . وكان له أولاد كثيرون ولاهم رؤساء على القبائل العربية منذ أن ذاع صيته فى البادية وخلال حكمه لمملكة الحيرة بوجه خاص ، وأسند إلى أكبرهم حجر رياسة قبائل أسد وكنانة (أو بنى أسد بن خزيمة وغطفان) وكانت أسد قبيلة كبيرة تركزت فى جنوب جبلى طى على جانبى وادى الرمة وتوزعت بطونها فيما قيل بين المدينة وبين الفرات . فقبلت رياسته على مضض حيث قيل إنه لم يكن يقيم فيها وإنما كان يقيم فى تهامة ويبعث رسله ليجمعوا الإتاوة منها . ثم تشجع بما صارت إليه رئاسته فشن هجمات خاطفة على حدود الغساسنة . وتجرأ أخوه معد يكرب بمثل جرأته وكان يلى قيس عيلان فأغار على حدود فلسطين وأوغل فيها حتى أوفد قيصر الروم أناستاسيوس وفدا إلى أبيه الحارث ليوقف شره .

وهكذا زاد شأن الحارث الكندى واستمر على حكم الحيرة وما جورها ، ولكن لفترة قليلة تتراوح بين ثلاث وأربع سنوات (٥٢٥م – ٥٢٨م) ثم ما لبثت الآية أن انقلبت عليه حين توفى ملك الفرس الذى ولاه وعضده . وكان

المنذر الثالث قد لجأ بعد عزله إلى بعض حلفائه من القبائل واستجمع قواه بينهم ثم عاد ليسترجع ملكه . ووجد التأييد من ملك فارس الجديد كسرى أنو شروان الذى سمح له باستعادة ملك الحيرة ، وعزل الحارث الكندى ففر وتبعته جيوش المنذر ، واختلفت الروايات العربية فيما إذا كان أفلت منها أم قتلته .

وأدت هزيمة الحارث أو قتله إلى أن انقلبت القبائل الخاضعة له ضد آله وبنيه بحيث قيل إن تغلب سلمت ثمانية وأربعين فردا من أسرته إلى المنذر فأمر بضرب رقابهم جميعا . ونعاهم امرؤ القيس كثيرا فى شعره . وكان شر البلية أن تناحر أبناء الحارث بعضهم مع بعض حتى ذهبت ريحهم فقيل على سبيل المثال إن ولدا للحارث يدعى شرحبيل كان يحكم قبائل بكر بن وائل وما والاها من قبائل المنطقة الشرقية اختلف مع أخ أصغر له يدعى مسلمة كان يحكم قبائل تغلب والنمر بن قاسط . وزكى المنذر ملك الحيرة الفرقة بين الأخين ، فتقاتلا وأضعف كل منهما هيبة الآخر ، فتنمر لهما أتباعهما وحلفاؤهما إلى أن قتل الأول فيما يسمى يوم الكلاب وهو ماء بين البصرة والكوفة ، وفر الثانى ، فكر المنذر ملك الحيرة عليه بجيشه وقتل من اتباعه خلقا كثيرا .

أما أسد فقد زاد حقدها على ولده حجر ، ولما اشتد وعماله عليها تمكنت من قتله والفتك بأهله فى ظروف اختلف الرواة فى تصويرها .

وهكذا تشتت أفراد أسرة آكل المرار وفت فى عضدهم أن ضعف شأن حليفتهم حمير واحتل الأحباش المسيحيون اليمن فى عام ٥٢٥م . فلم يبق لهم نصير خارجى لا من الفرس ولا من اليمن ولا من الروم ولا من أنفسهم بعد أن فرقت المطامع صفوفهم. وكان لحجر عدة أبناء أصغرهم هو امرؤ القيس الشاعر وكان ميالا للهو مع شهرته فى الشعر . وكان أبوه فيما ذكرته الروايات العربية قد تبرأ منه فى حياته حتى يقلع عن لهوه وشعره ففارقه وظل على سفره ولهوه حتى أتاه نعيه وهو يشرب ويسمر فى دمون من أرض حضرموت فقال جملته المأثورة « ضيعنى صغيرا وحملنى دمه كبيرا ، لاصحو اليوم ولا سكر غدا ،

اليوم خمر وغدا أمر » . واستنصر امرؤ القيس قبائل بكر وتغلب على بنى أسد قاتلى أبيه . فاستعصم بنو أسد ببنى كنانة ثم تركوهم . وتعقبهم امرؤ القيس بحلفائه والتحم معهم فى معركة ضارية ولكنهم هربوا منه بليل . واكتفت بكر وتغلب بما حدث وتفرقت عنه .

وأبى امرؤ القيس إلا المضى فى الانتقام لأبيه : فمضى يستنصر عرب العراق تارة وعرب اليمن تارة أخرى . ثم قاتل بنى أسد مرة أخرى وظفر ببعض بطونهم وقيل إنه مثل بها تمثيلا شديدا . ثم أحل الخمر لنفسه . (ولو أن شاعر بنى أسد عبيد بن الأبرص نفى فى شعره تمكن امرئ القيس من قومه . وأخذ بروايته بعض المؤرخين) .

وكان رؤساء الحيرة لايزالون يكنون البغضاء لكندة ، فتعقبوا امرأ القيس وشردوه . . . ، وتشجعت عليه قبائل أسد ومعد . وتفرق عنه أتباعه . ففر بأهله وأسلحته وماله وظل يتنقل بهم والمكائد تلازمه بين بنى يربوع ، وإياد ، وطيء ، وفزارة ، ثم ارتحل إلى تيماء ويبدو أنها كانت تحت رئاسة قريب له من كندة يدعى قيس ، وإن كانت بعض الروايات قد اكتفت من قصته فيها بأنه أودع أهله ودروعه عند السموأل بن عاديا صاحب الحصن الأبلق ورجاه أن يوصى به الحارث بن أبى شمر الغسانى . ثم قصد بلاد الشام ونم شعره عن أنه مر فيها بحوران وبعلبك وحمص وحماة . . . ومن هناك أوفده الحارث الغسانى بتزكية منه إلى قيصر الروم فى القسطنطينية ، حيث مات فيها مريضا أو مسموما ؛ أو مات أثناء رجوعه منها فى فترة مابين ٥٣٠ و ٥٤٠ م من قبل أن يحقق هدفه : وأضافت الروايات نفسها أن بعض أعدائه أو بعض أنصاره عندما تحققوا من وفاته طالبوا السموأل بودائعه فأبى ، فحاصروا حصنه وقتلوا ولده . ولكنها اختلفت فيمن طالب السموأل وحاصره : أكان الحارث بن أبى شمر الغسانى ، أو الأبرد ابن عمه ، أو الحارث بن ظالم حليف المنذر ملك الحيرة . ونظر بعض المؤرخين المحدثين ومنهم فنكلر ومارجوليوث إلى المشكلة من وجهة نظر أخرى : فقد لاحظوا أنه أشاع القصة وأشاد بوفاء السموأل مصدر يهودى يتمثل فى دارم بن عقال

الذي قيل إنه كان من نسل السموأل ، وسعية بن عريض . وعرّفهما من رواة اليهود ، ثم الأعشى الشاعر الجاهلي . ورأى فنكلر علامات الشك تدعمه فرجح أن تكون قصة السموأل قصة موضوعة استوحاها رواة اليهود هؤلاء من بعض قصص التوراة وأشاعوها تمجيدا لقومهم . ثم رددها بعض الأخباريين بعدهم وأعجبوا بها لما اصطبغت به من روح الوفاء والإباء المحببة إلى العرب .

واعتاد الباحثون في تاريخ كندة أن يقفوا قليلا عند قصة ذهاب امرئ القيس إلى القسطنطينية ومصيره فيها . حيث لم تذكر المصادر البيزنطية شيئا عن امرىء القيس هذا ولا عن زيارته لعاصمتها من طرف صريح ، وإن أشارت في مناسبات أخرى متفرقة إلى أن أعوان القيصر كانوا يقربون بين مشايخ العرب وملوكهم الصغار وبين قيصرهم ويشجعونهم على زيارة بلاطه أو يسعون عنده في أن في يسمح لهم بزيارته في عاصمته .

ويفهم من بعض هذه المصادر على سبيل المثال أن شيخا من شيوخ العرب الكبار يسمى امرأ القيس ارتحل من نواحي العراق إلى دومة الجندل واتخذها مركزا لغزو جنوب فلسطين وساحل البحر الأحمر أوساحل العقبة واستولى على جزيرة فيه . ثم اتصلت الأسباب بينه وبين الأسقف العربي بطرس فأقنعه بمهادنة الروم والسعي إليهم . وسعى له هو عند القيصر ليو حتى دعاه إلى القسطنطينية حوالى عام ٤٧٣م فزاره وتنصر . وأقره على أرضه ولقبه بلقب فيلارخوس . وليس لامرىء القيس هذا صلة بامرىء القيس الشاعر وهو يسبق عهده بأكثر من نصف قرن .

واتصلت الأسباب بين شيخ عربي آخر دعته المصادر البيزنطية أبا كرب وبين القيصر يوستينيانوس (جوستين) . وكان أبو كرب يتزعم قبيلته في جنوب فلسطين . وله واحة هنالك كثيرة النخيل تقرب بها إلى القيصر فقبلها منه ولقبه هو الآخر بلقب فيلارخوس . وجاور أرضه أعراب من معد كانوا يدينون بالولاء للحميريين ، مما يحتمل معه أنهم كانوا من كندة . وأراد أن يستعين بالقيصر ضدهم .

وذكرت رواية أخرى أن الامبراطور يوستنيانوس أرسل رسولا إلى سميفع إشوع المسيحى عامل الأحباش على اليمن . يدعوه إلى أن يصفح عن رئيس عربى يدعى قيس ويعاونه على رياسة معد ويتعاون معه على غزو أملاك فارس — وكانت هذه السفارة قبل عام ٥٣١م ولم تحقق غرضها — إما للخوف من فارس أو لأن سميفع لم تكن له سياده فعلية على معد بحيث يولى قيسا عليها .

وذكر الكاتب البيزنطى نونوسوس ما أسلفناه من قبل من أن القيصر أناستاسيوس أرسل وفدا برئاسة جده إلى الحارث ملك كندة ومعد بعد أن تعددت إغارات ولده معد يكرب على حدود فلسطين . كما أرسل القيصر يوستينيانوس وفدا برئاسة أبيه أبراهام ليقابل قيسا حميد الحارث (ولعله ابن معد يكرب) ليعقد حلفا معه . فقابله وأخذ منه ولده معاوية إلى القسطنطينية كرهينة على وفائه . ثم كلف القيصر نونوسوس نفسه بأن يدعو قيسا (الكندى) إلى القسطنطينية فاصطحبه معه إليها ثم أرجعه إلى بلده بعد أن أقره على ولاية جزء من فلسطين . وليس قيس هذا بطبيعة الحال هو امرؤ القيس الشاعر الذى ذكر المؤرخون وفاته حسرته قبل أن تتحقق أمنيته بالعودة إلى بلده معززا مكرما . وإن افترض بعض الباحثين احتمال صحبته لقيس هذا وهو من أبناء عمومته فى رحلته وعودته معه وإن اهتم الرواة المسلمون بقصته هو وتناسوا ابن عمه .

***

أسلفنا أن ثمة ضوءا جديدا ألقته النصوص السبأية الحميرية المكتشفة حديثا على بداية تاريخ كندة ، وأن أهم ما أضافته هو الرجوع بهذا التاريخ إلى أبعد مما ذهب به المؤرخون المسلمون وإلى ماحول ميلاد المسيح عليه السلام ، وأن كندة ارتبطت فى نشأتها بالعرب الشماليين أكثر مما ارتبطت بالعرب الجنوبيين على عكس ما رواه أغلب المؤرخين المسلمين . وأن الجنوبيين كانوا ينطقون اسمها كدة بدال مشددة مما قد يعنى أن اسمها لم يكن من اسمائهم فحرفوه .

ويرجع أقدم هذه النصوص إلى عهد شعر أوتر ملك سبأ وذوريدان فى أواخر القرن الميلادى الثانى ، وهو ملك عمل أن يجمع شمل المناطق العربية الجنوبية وأن يقصى شبهة النفوذ الحبشى عن ساحل تهامة كما ذكرنا فى سياق الفصل العاشر . فتعددت معارك جيوشه فى حضرموت وفى ردمان وعلى ساحل تهامة الجنوبى وفى نجران .

ومن نجران اتجهت قواته إلى قرية ذت كاهل ولعلها كانت قريبة من الفاو الحالية ونسبت إلى معبودها كاهل ، وحاربت « ربيعة ذو آل ثور ملك كدة وقحطان » . وهو ملك قد ينتمى إليه معاوية بن ربيعة ملك قحطان ومذحج الذى ذكره نص من قرية الفاو أيضاً .

وكان الرحالة بلينى قد ذكر فى أوائل القرن الأول الميلادى منطقة « آل ثور » هذه ، مع ملاحظة ان المؤرخين المسلمين قد ردوا نسب ملوك كندة إلى « ثور » فعلا واعتبروه رجلا (وقد يكون معبودا قديما عبدوه) .

وذكر الجغرافى بطلميوس السكندرى اسم العاصمة « ماؤوكسموس » كعاصمة لكندة فى القرن الثانى الميلادى .

وبالاستفادة من هذه المصادر مجتمعة وبخريطة بطلميوس الجغرافى السكندرى التى أثبتها فى كتابه . يذهب الرأى الحديث إلى الاتجاه بديار كندة الأولى إلى ما فى شمال نجران فى منطقة الأفلاج والعارض وجبل طويق فى قلب نجد . وإذا صحت قراءة قحطان التى تضمنها نص شعر أوتر وذكر ارتباطها بكندة وخضوعهما معا لملك واحد يدعى ربيعة ومن بعده لولده؟ معاوية ، فإنها قد تعنى منطقة ما من أرض قحطان الواسعة فى خولان الشمالية التى تمتد بين شمال شرق جيزان وبين شمال نجران .

وبعد جيل أو نحوه فى أوائل القرن الثالث الميلادى . روى نص من عهد إياشرح يحضب وأخيه يأزل بين ملكى سبأ وذوريدان خبر حرب شنتها قوات هذين الملكين ضد مالك (؟) ملك كندة وشعب كندة (كدة) لموازرته لامرىء القيس بن عوف ملك خصاصة ، وأسرت هذه القوات

قادة كندة واحتجزتهم فى مأرب حتى سلموا الغلام (امرأ القيس) لملكى سبأ وذوريدان وتركوا أبناءهم رهائن لديهما ، وأدوا الجزية والفدية من الخيول والإبل والمتاجر . وربما قامت خصاصة هذه حليفة كندة قريبة من منازلها فى شمال نجران ، إلى القرب من بيشة وإلى الجنوب الغربى منها .

وبعد قرن تقريباً وفى أوائل القرن الرابع الميلادى تحدثت نصوص شمر يهرعش الثالث ملك سبأ وذوريدان عن كندة ومذحج كأحلاف له ثم كأتباع له . وكانوا فى الحالة الأولى لايزالون فى منطقة الأفلاج فى قلب نجد ، ومثلت كندة القبيلة الرئيسية فى مذحج . وتعاونوا جميعاً مع قواته على مهاجمة أرض تنوخ فى المنطقة الشرقية على الخليج العربى وما يمتد منها إلى جنوب العراق . ولكن ضربة مضادة وجهت إليه وإليهم فى أواخر عهده على يد ملك تنوخ امرىء القيس بن عمرو الذى استشهدنا بملخص نصه العربى المتأثر قليلا باللغة الآرامية واللهجة النبطية فى الفصل الرابع عشر ، وبما ذكره فيه من أنه حاصر نجران مدينة شمر (يهرعش) وشتت (حلفاءه) قبائل مذحج عن أرضها . وهاجرت هذه القبائل حينذاك ومعها كندة إلى دولة حليفها شمر يهرعش فى الجنوب ، وأصبح رجالها من فرق الأعراب فى جيوشه . وأقطعهم منطقة أوسان ومضحاى القديمة فأصبحوا سادتها تحت حكمه .

واستمر وضع مذحج وكندة هكذا فى عهود خلفاء شمر يهرعش ، فظهر رجالهما بين الأعراب فى جيوش ياسر يهنعم الثالث وذرأ أمر أيمن ملكى سبأ وذوريدان فى حوالى عام ٣٣٠م ، كما ظهروا بعد نحو قرن من الزمان بين الأعراب فى جيوش أب كرب أسعد وولده حسان يهأمن فى حملتها على أرض معد فى وادى مأسل جمح ، فى بداية القرن الخامس الميلادى .

ومر بنا فى الفصل العاشر كذلك أن النصوص الحميرية القديمة والروايات العربية معا قد نسبت إلى أب كرب أسعد وولده حسان فى فترة اشتراكهما فى الحكم مجهودا حربيا فى منطقة (أحلاف) معد . وفى بعض نواحى الحجاز من ناحية ، وحتى الربع الخالى فى أواسط شبه الجزيرة العربية من ناحية أخرى ، وأنه كان من بين قواته الراكبة رجال مذحج وكندة . وبالربط بين هذا العهد وبين ماكان يجرى خارج حدود اليمن يتضح أنه كان يعاصر

نهضة اللخميين على حدود العراق ووثيق صلتهم بفارس فى عهد النعمان الأول . وهكذا يبدوأنه كان من أهداف حملة أب كرب أسعد التى اصطحب معه فيها كندة ومذحج إعادة كيان إمارة كندة فى الشمال تحت طاعة دولة سبأ وذوريدان (أو حمير) أو فى حلفها ، لكى ترأس قبائل معد العدنانية وتقف فى وجه التوسع اللخمى المنتظر من ناحية . وتؤمن الطرق التجارية المتجهة إلى نجد والحجاز وما وراءهما من ناحية أخرى .

ومن هنا تلاقت النصوص السبأية القديمة مع الروايات العربية التى روت أن تبعا (أب كرب أسعد) وهو فى طريقه إلى أرض العراق نزل بأرض معد فجعل حجرا بن عمرو الكندى ملكا هناك . وإذا كانت قد خلطت بين أب كرب وبين ابنه حسان فى هذا الأمر فذلك يرجع إلى اشتراكهما فى الحكم معا لفترة طويله .

وقامت كندة بدورها حتى الربع الأول من القرن السادس م، وفيه احتدم التنافس بين القوى الثلاث الكبيرة فى شبه الجزيرة العربية وعلى أطرافها ، وكل منها تجد خلفها من يؤيدها ، نعنى بذلك مملكة الحيرة فى عهد المنذر الثالث (٥١٢ — ٥٥٤م) وتؤيدها دولة الفرس ، ومملكة الغساسنة فى عهد الحارث بن جبلة (٥٢٨ — ٥٦٩م) وتؤيدها دولة الروم . ومملكة كندة فى عهد الحارث بن عمرو بن حجر (٥٢٨ — ٥٤٠ م) وتؤيدها دولة حمير (سبأ وذوريدان) — وعن مرحلة من مراحل هذا التنافس تحدث نص سبأى قديم عن خروج قوات معد يكرب ملك سبأ وذوريدان مع مذحج وكندة فى عام يقع بين ٥١٦ و ٥٢٢م لإعادة الاستقرار إلى منطقة بنى تغلبة ومضر بعد مشاكلهم مع المنذر ملك الحيرة .

وهكذا يتضح إلى أى مدى أفادت النصوص القديمة الأصيلة فى توضيح التاريخ العربى القديم وتحقيق قضاياه ، وكلما زاد المكتشف منها وتمت دراسته كلما أثرى هذا التاريخ وزادت حصيلته .

***

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

أولندر (جونار) : ملوك كندة من أسرة آكل المرار - ١٩٢٧ - ترجمة بغداد - ١٣٥٣ هـ .

جواد على : المرجع السابق - مادة كندة - جـ ٣ ، ٦ ، ١٠ .

عبد الرحمن الأنصارى : أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها - فى مصادر تاريخ الجزيرة العربية - الرياض ١٩٧٩ - جـ ١ ، ص ٣ - ١١ .

يوسف محمد عبد الله : أوراق فى تاريخ اليمن وآثاره - جـ ٢ - ص ٨٩ - ١٢١ .

Jamme, A., Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis; Sabaean Rock Inscriptions from Qaryat al-Faw, Washington 1973.

الفصل السادس عشر

تحول مركز الثقل إلى أواسط الحجاز
فى مكة ويثرب

من معانى الحجاز فيما ذكرته المعاجم العربية معنى الحاجز بين الغور وتهامة وهو هابط . وبين نجد وهو ظاهر . أى بين السهل الساحلى الموازى للبحر الأحمر فيما يمتد من اليمن جنوباً إلى خليج العقبة شمالا . وبين مرتفعات هضبة نجد . وتعتبر سلسلة جبال السراة هى العمود الفقرى لهذا السهل وقد تخللت حافتها الداخلية عدة وديان من أهمها وادى القرى الذى تميزت من مدنه الرئيسية كل من مكة ويثرب . بعد أن ورثت كل منهما نصيبها مما كانت تنعم به المدن القديمة الواقعة إلى شمالهما مثل : مدين ولحيان وحجر ثمود وحجر الأنباط ، ثم مارست كل منهما نهضتها الخاصة فيما بين القرن الخامس وبداية القرن السابع للميلاد .

وتقع مكة فى واد شحيح الماء والزراعة أشبه بحوض جبلى تحوطه مرتفعات السراة الجرداء، وتشتد حرارته صيفاً كما يشتد جفافه فيقلل أخطار أوبئة المناطق الحارة على أهله .

ويبدو ألا يكون للتنقيب الأثرى دور هام فى تتبع ماضى هاتين المدينتين ، نظراً لما تحيط بهما من قداسة خاصة وحرمة دينية . الأمر الذى يكاد يقصر مصادر تاريخهما حتى الآن على بعض المأثورات الدينية . والروايات العربية . وبعض الملابسات الخارجية .

وقد خص القرآن الكريم مكة بماض تاريخى بعيد تبعاً لقيام البيت الحرام فيها ، والذى قال فيه (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين) . ويبدو أن قدم هذا البيت لم يبدأ بالضرورة بعهد إبراهيم عليه السلام فى حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد كما افترض بعض المؤرخين

ولم يبدأ بالضرورة أيضاً منذ عهد آدم كما ذهبت إليه أقوال بعض المفسرين. وإنما قد يكفي فيه ما ينم عنه ظاهر قول إبراهيم عليه السلام (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) — سورة إبراهيم ٣٧ — وفي هذا ما قد يعني قيام البيت الحرام فعلا في صورة أولية من قبل عهد إبراهيم — وأن إبراهيم توخى حمايته وحرمته فأودع زوجته هاجر المصرية وولده اسماعيل في رحابه. وذلك احتمال يزيد منطقية عما قيل من احتمال دعاء إبراهيم بالدعاء السابق عقب بنائه البيت لأول مرة . وهو أمر لم يتم بطبيعة الحال إلا بعد أن انقضت على إسكانه أهله عنده سنوات طوال امتدت حتى شب إسماعيل عن طوقه وعاون أباه في البناء (أنظر سورة البقرة ١٢٧) .

ولعل البيت المحرم أو بناء الكعبة في صورته الأولية تلك كان هو المعنى بتسمية «البيت العتيق» التي ذكرتها له آيتان من سورة الحج (٢٩ ، ٣٣) ، إذا أخذت لفظة العتيق هنا بمعنى شدة القدم وهو الشائع ، إلى جانب معاني العتق والكرم والجمال، كما تذكر قواميس اللغة . وإن كانت هذه التسمية قد انصرفت بعد ذلك إلى بقية صفات البيت الشريف واقترنت بها . ولعل الحجر الأسود أو الأسعد هو كل مابقي من بنيان ذلك البيت العتيق ، أو هو ما أمكن الاحتفاظ به منه، ونتيجة لقيمته وندرته اكتسب شيئاً من علو المكانة وإعزاز الرسول له (والعرب ثم المسلمين بكافة) باعتباره أثراً جليلاً فريداً من ماض كريم بعيد . وقد لا يكون من بأس بعد هذا الفرض المقترح من النظر كذلك بعين الاعتبار الروحي إلى بعض روايات المفسرين الإسلاميين عن ماضي الحرم والحجر وارتباطهما بمعجزات سماوية لاتتطرق إليها الدراسات التاريخية عادة في مناقشاتها الحديثة ، ولكن لابأس معها في الوقت ذاته من تذكر مقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذا الحجر بما معناه « والله إني لأعلم أنك حجر لايضر ولا ينفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » متأدباً في ذلك بأدب الإسلام وأدب الرسول .

وظل الحجر الأسود على طول الأمد علامة مميزة لبداية الطواف بالكعبة المشرفة .

ويبدو أنه عندما تقادم البيت العتيق وطال العهد به ، وهجر ماحوله وطمست بئر زمزم المجاورة له ، وانقطع بهذا رواده المؤمنون به أو كادوا ، تطلب الأمر الإلهى إقامة قواعده من جديد ، وإعادة تعميره وإحياء شعائره. وتكفل إبراهيم بهذا وعاونه فيه ولده إسماعيل بعد أن شب عن طوقه — فى مثل قول الذكر الحكيم (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) .

وغنى عن الذكر أن بناء الكعبة قد جدد أورم بعد ذلك أكثر من مرة ، وشارك الرسول عليه السلام فى إحدى هذه المرات قبيل بداية بعثته الشريفة بقليل .

وربما أوحى بنفس القدم البعيد للبيت، قول القرآن الكريم (وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) — فى سورة الحج ٢٦ — ٢٨ — وذلك بما يعنى إلهامه أو إرشاده إلى موضع البيت الذى قام فيه ، أكثر منه إلى المكان الذى سوف يقيمه هو فيه ، ثم الإذن له بأن يعمل وولده على تطهير ساحته ربما مما كان قد جد عليها من أصنام ومحرمات . وكان من دعاء إبراهيم وإسماعيل قولهما (. . . وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) . وهو ما قد يعنى بداية تشريع هذه المناسك ، أو على الأرجح هدايتهما إلى ما غاب عنهما منها والمسامحة حين النسيان والخطأ فى أدائها .

أما عن نشأة البيت العتيق قبل أيام إبراهيم ، وصورة بنائه ، والقائمين ببنائه. فكلها أمور يصعب البت فيها برأى شاف فى ضوء المعارف المتيسرة عنها حتى الآن . وحسبها إمكان تفسير أولوية هذا البيت على ماعداه بأنه أول بيت وضع للناس على الأرض لعبادة الله خاصة . وهى أفضلية تمايز بها عن المعابد أو بيوت العبادة فى الديانات الوضعية القديمةوالتى كان منها ما سمى باسم البيت فعلا ، مع اختلاف لفظه باختلاف لغة أهله — ونسبته إلى موضعه أو إلى معبوده الرئيسى فى كل من الحضارات المصرية والأشورية والكنعانية والآرامية والعربية القديمة أيضاً ،

ومن المسلم به أن إبراهيم عليه السلام لم يكن أقدم الرسل والأنبياء الذين دعوا إلى تقديس الله وحده فى بيوت العبادة ، وإنما سبقه إلى مثلها ، أو كلف بمثلها ، أنبياء آخرون . وإذا كان قد اعتبر أبا الأنبياء فإنما يعنى هذا أبوته الشريفة البعيدة لأنبياء الإسلام والتوراة أو العرب واليهود.

ولعل مثل هذه الفكرة بقدم كيان البيت عن عهد إبراهيم كانت من وراء قول بعض المفسرين القدامى ومنهم البخارى بأن إبراهيم جاء بهاجر وإسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، ولما فارقهما ووصل الثنية استقبل بوجهه البيت ودعا بدعائه (رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) .

وعلى أية حال فإذا كان سياق البحث قد تطلب التطرق هنا إلى مسائل دينية أمكن التجاوز عن الخوض فى أمثالها فى بقية فصول هذا الكتاب ، فإن اختلاف التفاسير أمر مسموح به فيما لا يمس الفرائض وجوهر العقيدة .

ولن نعيد هنا ماقامت به بعض كتب التفاسير والتاريخ من تأكيد صلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمكة والحرم ، وقصة الذبيح ، دون اسحق وبرية فاران التى قال بها يهود العهد القديم . إلا إذا كانت تسمية فاران هذه تسمية عبرية تطلق على مواضع منها مكة كما أخذ بذلك ابن منظور فى لسان العرب ، وهو ما تزكيه كذلك تسمية التوراة للعرب بالإشماعيليين نسبة إلى أبيهم إسماعيل حينما امتد نشاط قبائلهم من شبه الجزيرة إلى جنوب الشام ، ثم قول سفر التكوين من التوراة ١٦ : ١١ فى صلة هاجر بإسماعيل : « وقال لها (أى لهاجر) ملك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إشماعيل لأن الرب قد استمع إلى مذلتك » . وحينما أمر إبراهيم بالتضحية بابنه كان من المفروض أن يضحى ببكر أولاده وهو إسماعيل .

ونضيف هنا أنه إذا كان بعض غلاة اليهود قد حاولوا التشكيك فى قدم اسم إسماعيل الأب الروحى للعرب ، ومدى شيوعه فى العالم القديم ، فثمة ما يلقمهم حجراً فى وجود اسم « يشمع إل » بمعنى يسمع الله أو إسماعيل

فى نص أكدى عراقى يرجع إلى أكثر من أربعة آلاف عام، ثم وجوده بعد ذلك فى نصوص نبطية وصفوية تسبق العصر الجاهلى والعصور الإسلامية .

* * *

تعددت الآراء قديماً وحديثاً فى تفسير تسمية مكة . على نحو ما تعددت أمثالها فى تفسير ما عداها من مسميات المواضع القديمة . وظهر من آراء اللغويين المسلمين ماعقد الصلة بينها وبين ألفاظ عربية معينة تشبهها فى الشكل والنطق أو فى دلالة التقديس . ومنها : المتك وهو امتصاص الماء حين قلته . وامتصاص الفصيل للضرع. وربما امتصاص الناس إلى مكان ما . والمتك وهو القدرة على إصعاف الجبارين . والمكوك وهو المكان الهابط بين مرتفعين . وربما الملك أيضا أو المكاء وهو طواف بعض الجاهليين بالصفير أو التصفيق .

ولما لم يكن فى كل هذه المشتقات ما يشفى الغليل . اتجهت آراء حديثة إلى عقد المقارنات بين اسم مكة وبين بضعة ألفاظ من لغات أو لهجات أخرى قريبة الصلة باللغة العربية الشمالية . ومنها لفظ مكربة أو مكارابو فى اللغة العربية الجنوبية بمعنى التقديس والتقريب وهيكل القربان . وقد شابه هذا اللفظ الأخير ما أشار إليه الرحالة بطلميوس السكندرى من وجود مدينة عربية تسمى ماكورابا Macoraba سبق إنشاؤها بطبيعة الحال العهد الذى عاش فيه وهو منتصف القرن الثانى للميلاد.

واقترح رأى آخر تقارب اسم مكة مع لفظ ماك البابلى بمعنى البيت حيث إذا أضيفت كلمة رب ليكون « مكرب » كان معناه بيت الرب (على سبيل الاحتمال) .

وإذا جاز عقد مثل هذه الصلة مع لغة أخرى من خارج شبه الجزيرة العربية فلا باس من أن تضاف إليها مقارنة ثانية ، وهى وجود لفظ مكة فى اللغة المصرية القديمة ذات الصلة بمجموعة اللغات السامية. واستخدامه بما يعنى « الحماية » و « سلامة الوضع ».وكما لم تكن اللغة البابلية غريبة تماماً

على إبراهيم عليه السلام مع ماقيل عن هجرته الأولى من جنوب العراق إلى جنوب الشام . فإن اللغة المصرية القديمة لم تكن غريبة كذلك عن إسماعيل عليه السلام مع بنوته للسيدة هاجر المصرية التي اصطحبته إلى مكة فى رفقة إبراهيم . وما قيل كذلك فى سفر التكوين من أن زوجته الثانية كانت مصرية أيضاً . وعلى أية حال فإن الاستشهاد باللفظين البابلى والمصرى هنا لا يعنى بالضرورة أنهما يمثلان مع لفظ مكة العربى مسمى واحداً ، ولا يعنى أن أحد هذه الألفاظ الثلاثة قد اشتق من الآخر بالضرورة. وإنما يكفى افتراض اشتقاقها جميعها من مصدر سامى قديم يصعب الآن تحديده.

ورادف القرآن الكريم بين اسم مكة وبين اسم « بكة » فى الآية التى بدأنا الاستشهاد بنصها آنفاً. وقال المؤرخون القدامى بأنهما يكونان اسماواحداً بعد قلب الميم باء على عادة بعض اللجهات العربية القديمة ومنها لهجة هوازن. أو يتكاملان بحيث تعبر بكة عن الكعبة والمسجد ، وتكون مكة هى ماحوله فيما سوى ذلك من بطن الوادى . أما من حيث الاشتقاق اللفظى فقد قيل باشتقاق بكة من بك الأقدام حين التزاحم — كما قيل مؤخراً باحتمال صلتها بلفظ بك فى اللغة الآرامية بمعنى البيت .

وتعددت أوصاف مكة بعد ذلك فى المصادر العربية ومن أهمها فيما هو مشهور : أم القرى والبلد الأمين والقادس والمقدسة والعرش وأم الرحم . . إلخ .

ولم يجد الأخباريون والمؤرخون القدامى ما يقال عن سكان مكة الأوائل من قبل عهد إسماعيل إلا احتمال نسبتهم إلى العماليق وهم الأقوام شبه الأسطوريين (الذين ردتهم أنساب التوراة إلى عملاق بن أرفخشذ بن سام بن نوح — على حد قولها) . ويبدو كما روى المفسرون أن انكشاف بئر زمزم بعد اختفائها وتفجرها بالماء كرامة لهاجر وإسماعيل قد أغريا بعض الجماعات العربية التى كانت تمر بها على النزول عندها بعد أن كانت تتجاوزها من قبل لشدة جدب أرضها وشح مائها . وكانت جرهم القحطانية أو بطن منها من أولى هذه القبائل ، وقيل إن إسماعيل أخذ عنها لغتها أو لهجتها العربية

الجنوبية إلى جانب لغة أبيه الأمورية أو الآرامية ولغة أمه المصرية — وربما زوجته المصرية أيضاً — وتناسل له إثناعشر ولداً ظلوا يلون أمرقومهم وخدمة البيت الحرام حتى نافسهم فيها أبناء خؤولتهم من جرهم بعد أن تلاحقت بطونهم إلى مكة ، وأزاحوهم فتفرقوا حولها وأسفلها .

ولم يلبث الجرهميون بدورهم أن فاجأتهم هجرة للأزد من اليمن وعلى رأسها خزاعة فأزاحتهم إلى ظاهر مكة كما أزاحوا هم أبناء إسماعيل وبطون كنانة من قبل ، وتفرقوا حولها وفي تهامة .

وولى عمرو بن لحى كبير خزاعة الحكم وشئون البيت . ولأمر أو آخر نسبت الروايات العربية إليه (أو إلى عمرو بن ربيعة المعروف بعمر بن لحى) أنه بدل دين إبراهيم وأدخل عبادة الأصنام واستقدم بعضها من جنوب الشام . وعمل على إقامتها حول الكعبة ، ربما ليغرى أتباعها بزيارتها والإئتناس بها كلما رحلوا إلى الحجاز ، مع تقريب مابينهم وبين شعائرها بعد أن قل وفودهم إليها اتقاء لبغى جرهم وما قيل عن تعديها على قوافل التجارة المارة بها وقوافل الحج القاصدة إليها .

وظل أمر خزاعة فى يدها حتى نجح قصى الجد القديم للرسول عليه السلام ، فى فترة مامن القرن الخامس الميلادى، فى تزعم قريش (وقريش بطن من كنانة ، وكنانة من مضر ، أو هى من قبائل تهامة ، كما يقول النسابون) . ويبدو أنها عاشت قبل عهده متفرقة حول مكة فى تهامة أو عاشت لفترة قبل ذلك فى شمال غرب الحجاز حيث اختلطت هناك ببقايا دويلاته القديمة من اللحيانيين والأنباط ومن عايشهم فى أرضهم من جاليات المعينيين والحميريين الجنوبيين ، واكتسبت منهم بعض عناصر حضارتهم . كما مهرت فى ممارسة التجارة حتى لقد قيل إنها سميت قريشاً لاحترافها التجارة . والتقرش هو التجمع والاكتساب والتجارة .

وثمة نص للملك الحضرمى إيلعز يليط من حوالى القرن الثالث الميلادى تحتمل دلالته على أن موكب الملك إلى الحصن الملكى أنود قد تضمن عشر نساء قرشيات .

ولو صحت هذه القراءة لزكت قدم قريش واتصال بعض بطونها بجنوب شبه الجزيرة العربية أيضاً .

وسلك قصى زعيم قريش سبيل السياسة أولا فأصهر إلى زعيم خزاعة حتى إذا ما ارتفع شأنه وبان ضعفها انقلب عليها ،وربما استعان عليها ببطن من قضاعة قد يكونون من الغساسنة أومن والوهم . وأجلى خزاعة عن مكة هم ومن والاهم من بكر فارتحلوا إلى بطن مر فى وادى فاطمة حيث انضمت إليهم فيما بعد بطون من كنانة وخزيمة بن مدركة وحالفوهم ، وأطلق عليهم مع مر الزمن اسم الأحابيش بمعنى الموالى أو شئ من هذا القبيل ، وربما عاش فى مجتمعهم جماعات من أصول أفريقية ضمت رقيق التجارة والحروب ومن إليهم .

وضمت قريش حضراً وبدوا . وعاش حضرها فى داخل مكة واقتسموها أرباعاً ،وسمح لهم قصى بالبناء حول الكعبة بعد أن كان الجرهميون والخزاعيون يقيمون على مسافة منها — وهؤلاء هم قريش الأبطح (وهو واد بمكة) أو قريش البطاح (أى المناطق المنخفضة) . وكان منهم أغلب التجار وأهل الثراء . وانتشرت بطون أخرى من قريش خارج مكة وتوزعت فى الشعاب والمرتفعات — وهؤلاء هم قريش الظواهر ، وكان منهم أهل سطو وإغارة.

وجمع قصى بين رئاسة الحكم فى مكة وبين شعائر الحرم ، وولى أمر السقاية والحجابة والرفادة واللواء . وعمل على تجديد بناء الكعبة وتسقيفها . ولكنه مع ما اجتمع له من رئاسة أمور الدنيا والدين فى بلده ، قد حافظ على التقاليد القبلية فى نظام حكمه ، وأقام داراً للحكومة والمشورة عرفت ، أو عرفت مثيلتها فيما بعد ، بدار الندوة لتكون منتدى للملأ من قومه ورؤساء العشائر المشهود لهم بالكفاية والفضل ممن تخطوا سن الأربعين ، وكانوا يتشاورون فيها فى المعاملات الكبيرة وأمور الحرب وإقرار السلم وعقد ألوية البعوث . وربما عقدوا فيها عقود زواج أشرافهم أيضاً . ولعلها أشبهت حينئذ مجلس المسود السبأى أو القتبانى والمعينى القديم . وقد

بلغ من شهرتها أن رأى فيها بعض المستشرقين والكتاب الحديثين صورة من صور التنظيم الجمهورى الذى يجمع بين خصائص الارستقراطية وخصائص الديمقراطية ، بل وشبهها بإكلزيا أثينا القديمة . ومالبث أبناء قصى وخلفاؤه أن اقتسموا مختلف صلاحياته الدينية والدنيوية عن تراض حيناً وبالتنافس حيناً آخر .

وعوضت قريش قلة إنتاجها الزراعي والصناعي بالتوسع فى التجارة المحلية والعربية وكان من سلعها التى تتاجر بها بين العرب : الأدم والزبيب والصموغ والتبر والحرير والبرد اليمانية والثياب العدنية والأسلحة . وانتفعت فى ذلك بالأسواق الكبرى التى كانت تعقد بالقرب منها فى مواقيت متعاقبة من الأشهر الحرم لضمان أمنها . ومنها أسواق عكاظ ومجنة وحباشة وذى المجاز وغيرها .

ومنذ أوائل القرن السادس الميلادى سنحت الفرص أمام قريش وأهل الحجاز للعمل باسم العرب على نطاق واسع ، وهم بمنأى عما تدخلت به وأدت إليه أطماع الحبشة والبيزنطيين والفرس فى شئون اليمن والحيرة وغسان. وقامت مكة بالدور الأكبر فى هذا السبيل ، وانتفعت فيه بتوسط موقعها فى قلب الحجاز وبعدها النسبي وحصانتها الطبيعية ، وحرمتها الدينية ومنزلتها الروحية بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فضلا على سابق خبرتها بالتجارة والوساطة التجارية بين ممالك اليمن والشام .

ومن أجل تنشيط هذا الدور والخروج به من دائرته الإقليمية اتجهت بعوث رؤساء مكة إلى العالم الخارجى لعقد المعاهدات التجارية مع الدول الكبرى فى أيامهم . وهكذا نسب إلى هاشم بن عبد مناف أنه آلف ملك الشام ، أى حصل على إيلاف أو عهد من قيصر الروم أو ملك غسان الممثل له فى جنوب الشام لتنشيط التعامل مع قريش وتأمين تجارتها فى ممتلكاته ، كما اكتسب مودة أحياء العرب وأمراء الشام المحليين لاسيما فى أيلة وغزة والقدس حتى بصرى فى حوران إلى الجنوب الشرقى من دمشق .

وقيل إن إخوة هاشم فعلوا بالمثل ، فعقد نوفل والمطلب إيلافا مع دولة

الحيرة ودولة الفرس ودولة سبأ وحمير وذى ريدان . وركز عبد شمس على إيلاف الحبشة وشرق أفريقية . وبهذا اجتمع لقريش إيلاف رحلة الشتاء والصيف . رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة،أو العراق . ورحلة الصيف إلى الشام . وقيل إن من قوافلها ما كان يضم ألف بعير . ومنها مايضم مايزيد عن الألفين.وأخذت هذه القوافل بنظام المشاركة بحيث يسهم فيها القادرون من الأسر والأفراد وقد يكون لهم فيها وكيل أو شريك أو أجير ، تحت رئاسة شخصية كبيرة تقود القافلة وتعمل على حمايتها .

ولم تقتصر مكة على بطونها القرشية الكبيرة وحدها وإنما تضمنت معها أعدادا ممن كانوا يقيمون فيها لفترات موقتة أو دائمة من تجار الحبشة والفرس والروم (أو من أملاكهم) . وكانت تفرض المكوس والعشور عليهم وما يقابل أمنهم وخفارة متاجرهم . ولتشجيع نزلائها من حلفاء وموال وحجاج وتجار . أقام سادة مكة فيما بينهم حلف الفضول على ألا يظلم فى رحابها قريب أو غريب . ولا حر أو عبد . إلا وكانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم . وقد امتدح الرسول عليه السلام فكرة هذا الحلف وأثنى عليها .

ومع توالى الاتفاقات التجارية مع أقيال اليمن وأمراء اليمامة وملوك غسان والحيرة توسعت قريش فى التجارة المباشرة ومتاجر الوساطة . وهكذا تحدثت الروايات العربية عن خفارة قريش للطائم ملوك الحيرة إلى عكاظ وكانت تتضمن المسك والمنسوجات وكثيرا من المصنوعات . كما تحدثت عن تصديرها بضائع اليمن ومايصلها من الهند من العطور والجلود والمنسوجات والسيوف إلى بلاد الشام حيث تستورد عوضا عنها أنواع الحبوب والزيوت والخمور والجوارى .

وكما انتفعت مكة بتجارة البر انتفعت كذلك وإلى حد ما بتجارة البحر الأحمر وما تحمله من متاجر شرق أفريقية والمحيط الهندى . عن طريق مينائها الشعيبة التى بقيت حتى عهد عثمان حيث سأله أهل مكة أن ينقل الساحل من الشعيبة إلى جدة لقربها منهم فأمر به . وكانت تقع فى جون من البحر ويصلها

التجار والوسطاء البحريون من مصر والحبشة والصومال ، فينقلون المتاجر منها وإليها ، كما كانت تمر منها سفن الروم . وأغنت هذه الميناء مكة عن أداء المكوس لموانى اليمن وغيرها من الموانى الخارجية .

ومضت الأمور سراعا فى مصلحة مكة وحلفائها لسد الفراغ التجارى الناشىء من تعاقب الاضطرابات السياسية والدينية فى بلاد اليمن منذ حوالى عام ٥٢٠ م خلال الصراع بين أنصار الديانتين اليهودية والمسيحية والتدخل الحبشى فيها ، ثم فشل الحبشة وحلفائها فى تعويض تناقص سفن الروم فى فى تجارة البحر على نطاق واسع . مع تخلخل أمن الطرق التجارية فى الهلال الخصيب بين العراق والشام خلال الحروب البيزنطية الفارسية .

ولم ينج ازدياد نشاطات مكة وحلفائها من العرب الشماليين من إجراءات مضادة ضمنية ومباشرة . لوأدها قبل استفحالها ، من قبل اليمن والحبشة وبيزنطة .

وتمثلت الإجراءات الضمنية فى تزكية حملات التبشير بالمسيحية فى أرجاء اليمن وتأييد الحبشة وبيزنطة لها . وبطبيعة الحال لم يكن فى انتشارها من بأس اولا أن رأت مكة فى هذا الانتشار مايهدد مكانتها الدينية بين العرب الجنوبيين . وقد سلفت الإشارة إلى تسمية كبرى كنائس نجران وصنعاء حينذاك بتسمية الكعبة اجتذابا لمشاعر العرب وصرف ولاءهم عن حرم مكة إليها . ولم تنجح هذه الخطوة كثيرا فى صرف العرب الجنوبيين عن البيت الحرام ومقام ابراهيم ، أو صرفهم عن عباداتهم الوضعية القديمة .

وأما الإجراءات العسكرية المباشرة فأشهرها هو ما روته بعض المصادر العربية عن حملة ضد مكة قادها من يدعى حسان بن عبد كلال من أقيال اليمن . وقد أسر وباءت حملته بالفشل .

وكانت حملة أبرهة الحبشى ملك سبأ وحمير ضد مكة وحرمها المقدس فى عهد عبد المطلب بن هاشم حوالى عام ٥٧٠م هى الأكثر إعدادا وأشد وقعا . وقد أسلفنا فى الفصل العاشر أنها قد تفسر بطموح أبرهة إلى

مد سلطانه إلى غرب شبه الجزيرة ووسطها وشمالها ، ورغبته فى استعادة سيطرة اليمن على شريان التجارة الرئيسى الذى أوشكت مكة (ويثرب) على احتكار مكاسبه . أو تفسر بالتعصب الدينى ورغبته فى المشاركة بصورة ما فى الحرب البيزنطية الرابعة عشرة (٥٧١ — ٥٨٠م) والاستجابة فيها لدعوة الروم إلى التضييق على المصالح التجارية لأعدائهم الفرس عن طريق ربط مصالح الدولة المسيحية الجديدة فى اليمن بالدولة الغسانية المسيحية فى جنوب الشام ، باعتبارهما جميعاً من حلفاء بيزنطة . وفشلت حملة أبرهة عما سبق التعقيب به فى الفصل نفسه — وعوضا عما طمع فيه من إضعاف مكة وهدم كعبتها ، أصبح فشله فيها من عوامل ازدياد شهرتها .

وعندما انقضى عهد ولديه القصير ، ونجح سيف بن ذى يزن فى إجلاء الأحباش عن اليمن بمعونة الفرس ، ترأس عبد المطلب شيخ قريش وفدها لتهنئته . وقرن زيارته بتجديد اتفاقيات مكة التجارية مع كبار أقيال اليمن وأمراء اليمامة . كما جدد من ناحية أخرى اتفاقياتها مع ملوك غسان والحيرة .

وأضافت بعض المصادر العربية نبأ محاولة دبلوماسية استهدف البيزنطيون منها ضمان ولاء مكة أو تبعيتها السياسية لهم ، حيث أيدوا أحد سادة قريش وهو عثمان بن الحويرث وكان قد عدل عن الوثنية وتنصر . ليكون ملكا على مكة من قبلهم . وروى أنه جمع كبار قومه ولوح لهم بقوة قيصر الروم وثرائه ، وسيطرته على مجالات التجارة فى أملاكه . ولكنهم رفضوا وعده ووعيده ، ورفضوه هو أيضاً . وكان فى بعدهم عن تناول الروم وحاجة الشام إلى وساطتهم التجارية ما أنجاهم من أى رد فعل خارجى مباشر .

ومع هذه التجارب ظلت قريش تؤثر الحياد بين القوى الكبرى والمتنازعة فى عصرها ، كى تضمن أمن تجارتها وأمن حجيجها ، ولكى يزداد المتعاملون معها . ووقفت فى منتصف الطريق ما استطاعت بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وبين الحيرة وغسان ، وبين الفرس والروم .

وليس كثيرا ما ارتآه البعض من أن اتساع الأهمية الدينية والتجارية

لمكة قد جعل منها ملتقى لقوى العرب المتفرقة وبداية لجمعهم فى إطار واحد ذى تقاليد قومية مشتركة .

وبحكم طابعها الحضارى ونشاطها وأسفارها الخارجية ؛ اتسعت مكة لأخلاط كثيرة من العقائد الوضعية والعقائد الكتابية والحنيفية . وأخلاط أخرى من طوائف العرب والأجانب أحرارا وموالى وأرقاء وجوارى ، مما أثرى لغتها وثقافتها . وأشاع فيها عملات وأوزانا وصناعات فارسية وبيزنطية ويمنية . ومن طريف ما يروى أن نجارا أو بناء قبطيا (أى مصريا أو روميا بالتبعية) يدعى باخوم اشترك فى إعادة بناء الكعبة المشرفة بعد أن تطلب بنيانها إصلاحه قبيل عهد البعثة النبوية ؛ فصنع لها سقفا مسطحا يرتكز فيما روى الأزرقى على دعائم وعمد . وكانت قريش قد استخدمت لها أخشاب سفينة حبشية أو رومية دفعها الريح إلى ساحل الشعيبة حيث عطبت فركب إليها جماعة من قريش وأخذوا خشبها .

ولم يكن سلام مكة سلاما مطلقاً أو دائما ؛ ولم تكن تستطيع أن تنأى بنفسها عما يحيط بها من نزعات قبلية وروح جاهلية . فتعرضت لحروب متقطعة أرخت المصادر العربية بأيامها تذكرة بسوء ماحدث فيها ، ومنها حرب الفجار وعام الغدر ، وقد انتهكت فيهما الشهور الحرم ذاتها .

ولم يكن ثراء المكيين وتنوع طوائفهم المحلية والطارئة بغير أثر سيء تمثل فى اتساع الهوة بين مختلف طبقاتهم . وفى تجبر بعض رؤسائهم وشيوع المفاسد بين مترفيهم . فضلا على تباعدهم شيئا فشيئا عن الدين القويم وأخلاقياته ، وهو ماتصدت الدعوة الاسلامية له فيما بعد بالإصلاح والتقويم والتغيير . ونشر التوحيد ، وهو ما يخرج بحثه عن نطاق دراسات العصور القديمة .

* * *

مدينـــة يـــثرب

لمدينة يثرب كيان قديم كفله لها تعدد أوديتها وعيونها وآبارها ؛ وخصوبة تربتها ، وبالتالى وفرة أرباضها ومزارعها ، مع كثرة إنتاجها وسكانها كثرة نسبية . وأهمية أسواقها المحلية والموسمية ؛ فضلا على موقعها قرب شرايين التجارة الرئيسية البرية والبحرية وتعاملها بالتالى مع متاجر اليمن ومصر والشام .

وتقع يثرب فى مهاد من الأرض ذات لابات أو حرار سبخة . أهمها حرة واقم وحرة الوبرة وحرة قباء . وهى مفتوحة الحدود . وأقرب الجبال إليها جبال أحد وعير ، وسلع وسليع . وهى ذات ارتفاعات متباينة .

وانتفعت يثرب بميناء الجار فى عمليات التصدير والاستيراد المناسبة لعصرها القديم ، وكانت تصل إليها وتخرج منها بعض متاجر عدن وشرق أفريقية والهند ومصر — وبلغ من شهرتها القديمة أن سمى الساحل الممتد منها إلى خليج أيلة بساحل الجار لفترة من الزمن — ولعلها هى البريكة الحالية التى عمرت لفترة طويلة من العصور الإسلامية — وجاورتها جزيرة صغيرة كانت ترسو عليها سفن الحبشة بخاصة . وظلت الجار كذلك حتى حلت محلها فى الأهمية ميناء ينبع .

وعثر فى جبل المكتب خارج المدينة على نصوص قديمة لم يتم حلها بعد ، كما عثر فى جبل الصويدرة على مبعدة منها على نصوص ثمودية وصور حيوانات منقورة . وعثر فى داخل المدينة نفسها عن طريق المصادفة وخلال حفر أساسات بعض المبانى بالمناخة وغيرها على بقايا عمران سابق لم يتيسر تحديد عهده .

واحتفظ الأخباريون المسلمون لمدينة يثرب بأسماء كثيرة تراوحت عدتها فى مؤلفاتهم بين العشرة ، والأحد عشر ، والتسعة والعشرين ؛ بل والأربعة والتسعين ، وكانت فى اغلبها صفات قد يسهل تفسير القليل منها وتعليله ، بينما تصعب معرفة مدلول الكثير منها أو تحليله . وكان اسم يثرب من أقدمها ،

أو هو أثرب،وقد يكونان لهجتين لمسمى واحد كان يشغل جزءاً من المدينة غرب مشهد حمزة الحالى،ثم عم عليها . ومن الأهمية بمكان أن ذكر نص للملك نابونهيد آخر ملوك بابل الكلدانية فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، اسم « أتربيو » فى نهاية توسعه بجيوشه فى أرض الحجاز ، وخلال محاولته السيطرة على عواصم الطريق التجارى الكبير بين غرب شبه الجزيرة وبلاد الشام . وحدث هذا التسجيل بطبيعة الحال بعد نشأة يثرب فيما قبل القرن السادس ق . م بعهود طويلة .

وتضمنت بعض النصوص المعينية القديمة اسم يثرب أيضاً ، كما ذكره الرحالة بطلميوس السكندرى فى منتصف القرن الثانى للميلاد . بصيغتى Iathrippa or Jathrippe ، وأشار إليه اسطفانوس البيزنطى باسم Iathrippa Polis أى مدينة يثرب ، وذلك مما يدل على أنها كانت قد استكملت الطابع المدنى وتميزت به عما حولها من أراضى الزراعة ومضارب البدو . وتأيد هذا فى تسميتها العربية « المدينة » التى قد تعبر عن هذا التحول ، وتكون عربية الأصل ،إن لم تكن مشتقة من لفظ أرامى قديم عبر العبرانيون عنـه بصيغة مدينتو أو مدينتا بنفس معنـاه العربى أو بمعنى الحمى . وعندما دخل الإسلام يثرب استحب الرسول لها اسم المدينة وصفة طيبة أو طابة — دون اسم يثرب الذى قيل إنه قد يعنى معنى الفساد أو التثريب أى المؤاخذة بالذنب . وشاعت للمدينة صفات أخرى من أهمها : أم قرى المدينة ، والجارة والمجبرة والمجبورة . والبحرة والبحيرة . . . إلخ .

أدى خصب يثرب وثراؤها النسبى إلى كثرة عمرانها ، وأدى موقعها والظروف التى مرت بها إلى تعدد طوائف سكانها . وهى طوائف يصعب تحديد مسمياتها الأولى ، ولم يجد النسابون لديهم إلا أن يجعلوا من أقدمها طائفة العماليق ذات الصبغة شبه الأسطورية ، كما أشاروا إلى بطون متأخرة من جذام وبلى وسليم ومن قيس عيلان وغيرها ظلت بقاياها خارج المدينة حتى العصر الجاهلى ، وربما كانت فى الأصل بداخلها حتى غلبها غيرها على أمرها وأخرجها منها . وفازت بالشهرة أكثر منها قبائل ذات أصول قحطانية

اختلطت بالعدنانية، وبقيت منها في العصر الجاهلي طوائف الأوس والخزرج ببطونها الكثيرة. وجاورتها طوائف عبرية بقي منها في العصر الجاهلي أيضاً بنو النضير وقينقاع وقريظة، وبطون غيرها صغيرة. ولعل ما يقال عن تداخل الجماعات ذات الأصول القحطانية والعدنانية في يثرب يشبه ما كانت الحال عليه قديماً في لحيان وتيماء وغيرها من حيث نزول جاليات تجارية عربية جنوبية معينية وسبأية في أرضها لكي ترعى المصالح التجارية لدولها الجنوبية؛ ولما طال المقام بها اختلطت وتصاهرت مع السكان الأصليين من العرب الشماليين ولكن النسابين ظلوا يردونها إلى أصولها القحطانية أو الجنوبية الأولى من حين إلى آخر.

وكان من الطبيعي أن تهتم طوائف المدينة بحماية حدودها وأرباضها ومزارعها بتحصينات صناعية تمثل أكبرها في الآطام (جمع أطم)، وعرفت صغارها باسم الصياصي. وبنى بعضها من اللبن وبنى بعضها الآخر بأحجار صغيرة أو كبيرة، وزودت بأبراج كما احتوت على آبار ومخازن بحيث يحتمي بها أهلها حين الغارة، ويتحصن بها الشيوخ والنساء والصغار حين خروج رجالها إلى الحرب. وكما كانت ليثرب حصونها العامة كانت لكل طائفة من سكانها حصونها الخاصة نتيجة فيما يبدو لعدم خلوص نوايا بعضهم للبعض الآخر.

واهتم رواة اليهود وكتابهم بتاريخ طوائفهم في يثرب اهتماما كبيراً لا يخلو من الغرض وتخيلوا لها ماضياً بعيداً تباروا في القول ببدايته منذ أيام موسى وهارون في القرن ١٣ ق.م، أو بعد انتصار داود على معارضيه في القرن العاشر ق.م، أو بعد سقوط مدينة السامرة الإسرائيلية أمام الغزو الأشوري في عام ٧٢١ ق.م، أو بعد تدمير البابليين لأورشليم وهيكل سليمان في عام ٥٨٦ ق.م، أو بعد قضاء القائد الروماني تيتوس على ثورة اليهود الأولى وتخريب معبدهم في عام ٧٠ م، أو بعد القضاء على ثورتهم الثانية في عهد الامبراطور هادريان بين ١٣٢ — ١٣٥ م، أوهم قد جمعوا بين أشتات من كل هؤلاء. ومع وضوح الشك في هذا الخليط الكثير من الآراء وجد آذاناً صاغية ممن أخذوا عن الإسرائيليات وصدقوا رواتها باعتبارهم من أهل

الكتاب والكتابة لا سيا وأنه لم تظهر للأسف لعرب يثرب القدامى كتابات أصيلة تتحدث باسمهم حتى الآن .

وافترض بعض المؤرخين من القدامى والمحدثين رأيا وسطاً : احتملوا فيه أن يكون يهود يثرب أو أغلبهم من العرب المحليين الذين قد يرتد نسبهم إلى الجنوب . ، وأنهم تهودوا فى يثرب حينما بلغتها الديانة اليهودية بطريقة ما شأنهم فى ذلك شأن من تهود من عرب تيماء وتبوك ووادى القرى وعرب اليمن أيضاً . وزكوا هذا الفرض بماقيل من أن هؤلاء اليهود المحليين لم يكونوا يعترفون بالتلمود كله ، وأن معارفهم الدينية كانت محدودة بحيث أنكر عليهم بعض يهود الشام فى القرن الثالث الميلادى صدق يهوديتهم . وربما انضمت إليهم أشتات صغيرة مهاجرة من الإدوميين مثلا بعد أن دالت دولتهم (حيث وجد رأى ينسب بنى قينقاع إليهم) . ولم يكن هؤلاء وهؤلاء كثرة كبيرة ، وإنما قدر عدد رجالهم فى إحدى المناسبات بمالايزيد عن الألفين .

وكانوا يتحدثون بعربية تداخلت فيها ألفاظ ومسميات عبرية اكتسبوها من التوراة أو ممن معهم من اليهود الطارئين ،وقام لهم بيت يسمى بيت المدراس كان من المفروض أن يتدارسوا فيه أمور دينهم ويفصلوا فيه فى قضاياهم . ومع عربيتهم أو استعرابهم عاشوا فى أحياء محدودة ومجتمع مقفل عليهم . وقد أسلفنا فى الفصل العاشر كيف ربط بعض الأخباريين بين الملك أب كرب أسعد ملك سبأ وذى ريدان وبين يهود يثرب مرة بدخولهم إليها فى عهده (فى بداية القرن الخامس الميلادى) ؛ ومرة بامتداد نفوذه إليها حينما توسع فى نواحى معد والحجاز ، ومرة برحلته إليها وتهوده . ومرة بتعيينه أحد أولاده عليها حيث قتل بعد رحيله عنها . . . إلخ .

واعتبرت الروايات العربية الأوس والخزرج أخوين من الأزد وقضاعة هاجروا إلى يثرب بعد سيل العرم وخراب سد مأرب باليمن ، وهو توقيت غير محدد بزمن صريح حيث تخرب سد مأرب فى أكثر من عهد ،وأصلح أكثر من مرة كما سبق التنويه بذلك فى الفصل الرابع . ولهذا تباينت آراؤهم

فى توقيت هذه الهجرة بالقرن الثالث أو أواخر القرن الرابع ، أو فى القرن الخامس للميلاد .

ومرة أخرى أشاعت الروايات العبرية وما تأثر بها أو وافقها من الروايات العربية أن الأوس والخزرج اكتفوا فى بداية الأمر بحياة متواضعة فى يثرب فى مقابل كثرة استغلال يهودها للتجارة والصناعة . وعمل بعضهم فى الزراعة وتعاقدوا فى حلف مع اليهود ليؤمن بعضهم بعضا . ووجد اليهود فى هذا الحلف ما يزكى وجودهم ويكفل لهم معونة الأوس والخزرج فى الدفاع عن يثرب والقيام بدور الوساطة بينهم وبين من حولهم من عرب وأعراب .

وشيئاً فشيئاً أثرى الأوس والخزرج وتحسنت أوضاعهم . ورأى بنو قريظة والنضير الحيلولة دون استفحال أمرهم فأهدروا حلفهم معهم واستبدوا بهم . وانكمش الأوس والخزرج زمناً حتى استنفر هممهم زعيم الخزرج مالك بن العجلان (أو عمرو بن النعمان) وسعى معهم إلى إحراز السيادة . ويبدو أنه حالف بطوناً من قضاعة فى غسان أو فى غيرها من جنوب الشام ، وربما حالف بعض الحميريين أيضاً . ثم فاجأ بقومه وحلفائه اليهود قبل أن يعتصموا بصياصيهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وساد هو وقومه يثرب فى ختام القرن الخامس الميلادى أو بعده بقليل . ورأى بعض المؤرخين (ومنهم ولفنسون) أن هزيمة اليهود حينذاك فى يثرب كانت انعكاساً لهزيمتهم فى اليمن ، وأنها تمت فى الحالين بناء على تحريض مسيحيى الحبشة فى اليمن ، وبناء على تحريض مسيحيى غسان فى يثرب . ورأى آخرون العكس . ويلاحظ هنا أن هزيمتهم فى يثرب سبقت هزيمتهم فى اليمن. واستبعد مؤرخون آخرون أثر التحريض الدينى فى يثرب وقصر أسباب النزاع بين العرب واليهود حينذاك على تضارب المصالح الاقتصادية والرغبة فى الاستئثار بالسلطة .

وبعد النصر زاد الأوس والخزرج من عمران يثرب وسمعتها ، وزادوا من آطامها وحصونها . وانتشر الأوس فى بقاع خصيبة من العوالى فى جنوب وشرق يثرب ، بينما انتشر الخزرج فى بقاع أقل ثراء فى الأجزاء الوسطى والشمالية منها .

وعاش عرب يثرب فى بداية الأمر متحدى الصفوف ، ثم ساءت العلاقات فيما بين قبائلهم الرئيسية ، وفرق التنافس الاقتصادى والسياسى وحدتهم ، حيث أخذ الأوس على الخزرج استئثارهم بالسيادة السياسية ، بينما أخذ الخزرج على الأوس استئثارهم بأهم النواحى الاقتصادية .

وعمل اليهود من حين إلى آخر على تأجيج نار الفتنة بين الفريقين ، وتأليب فريق منهما على فريق . وهكذا تكررت أيام الحروب بين الأوس والخزرج — وظل أغلب النصر فيها للخزرج حتى هزموا فى حرب بعاث التى سبقت هجرة الرسول إلى يثرب بنحو خمس سنين. وقبيل وصوله إليها كان الأوس قد جمعوا كلمتهم برئاسة أبى عامر بن النعمان ، بينما أعاد الخزرج تنظيم صفوفهم برئاسة عبد الله بن أبى بن سلول وأعدوه ليكون ملكاً على يثرب كلها .

وكما تنافس الأوس والخزرج واليهود خفية وعلانية فى يثرب ، تنافست مكة ويثرب فى شئون التجارة والاقتصاد وزعامة عرب الحجاز . وكانت أولاهما كما سبق القول عنها تغلب فيها العدنانية ، وجدب التربة ، وثراء التجارة الخارجية ، وحرمة البيت ، بينما غلبت فى يثرب الأصول القحطانية الخليطة وخصب التربة وكثرة الإنتاج مع النصيب الأقل من التجارة الخارجية .

***

من المؤلفات المختارة فى دراسات الفصل :

أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول — القاهرة ١٩٦٥ .

سعد زغلول : فى تاريخ العرب قبل الإسلام — بيروت ١٩٧٥ .

عبد القدوس الأنصارى : آثار المدينة المنورة — ١٩٧٣ .

على حسنى الخربوطلى : الكعبة على مر العصور — القاهرة ١٩٦٧ .

نور الدين السمهودى : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى — المدينة المنورة ١٩٧٢ .

O'Leary, de Sacy, Arabia before Muhammad, I, 1927.

Shahid, I., Pre-Islamic Arabia, in CHI, I, 1970.

Smith, S., Events in Arabia in the 6th century A.D., BSOAS, 1954.

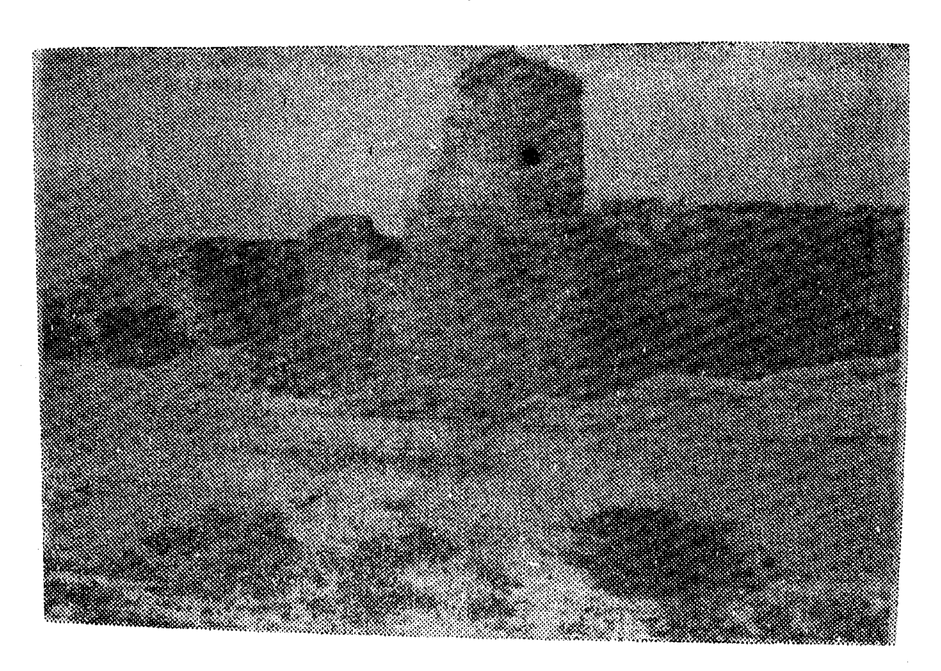
البحر المتوسط
الأردن
دجلة
العراق
الفرات
البصرة
الكويت
فيلكا
دومة الجندل
تبوك
تيماء
العلا
القصيم
الخليج العربي
هرمز
راس سيناس
عيذاب
السودان
سواكن
مكة
الربع الخالي
ظفار
نجران
جيزان
مهرة
صلالة
حضرموت
شبوة
مأرب
صنعاء
سبأ
قتبان
أوسان
قنا
الشحر
المكلا
رأس فرتك
بحر العرب
عدن
خليج عدن
باب المندب
المحيط الهندي



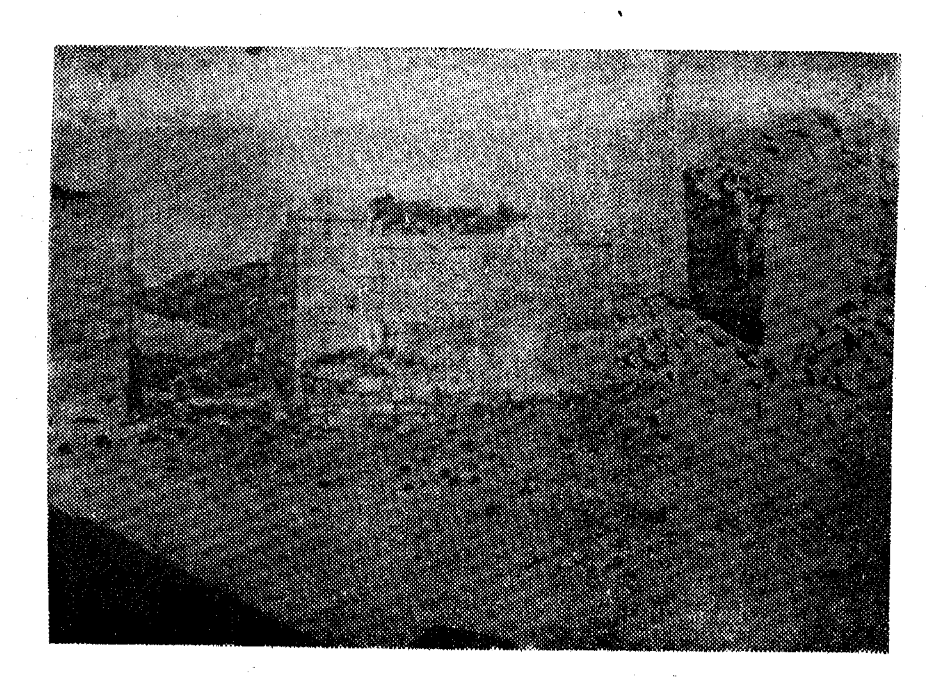
١ — نموذج لنصب نقشت حروفه بالخط المسند (من مدائن صالح)



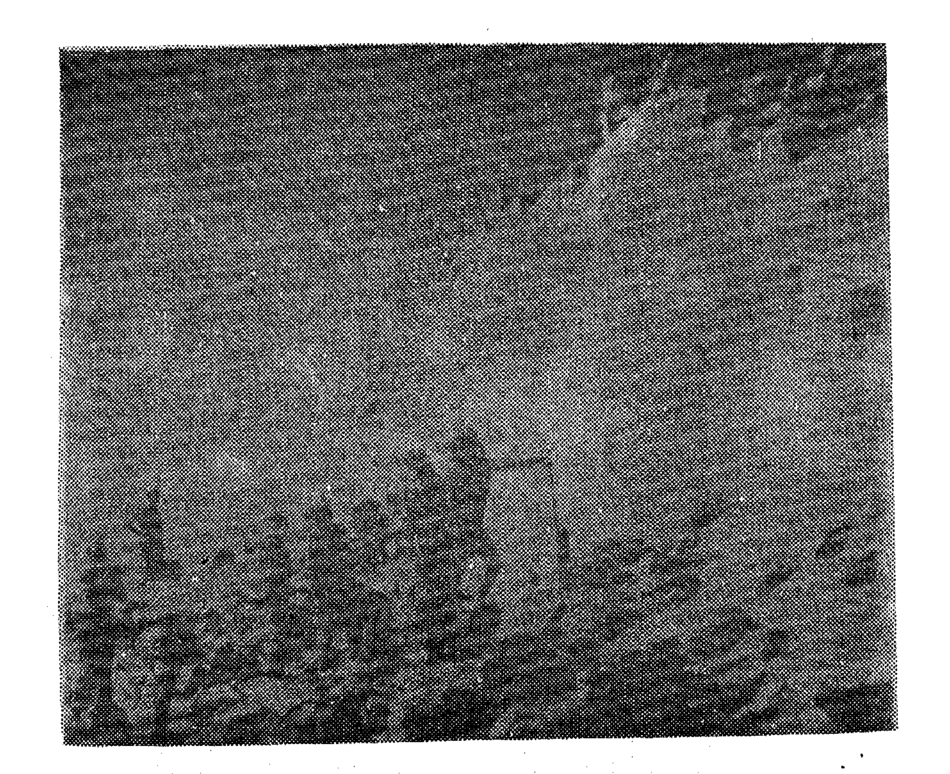
٢ — نص بالخط النبطي المتطور للملك أمرىء القيس بن عمرو .



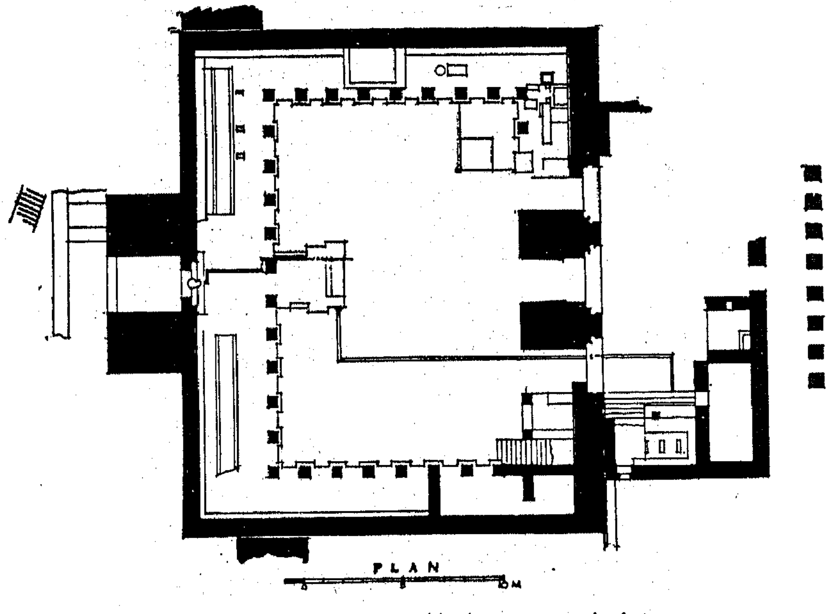
٣ — جزء من سد مأرب فى سبأ



٤ — من فتحات الحوضي الايسر لسد مأرب



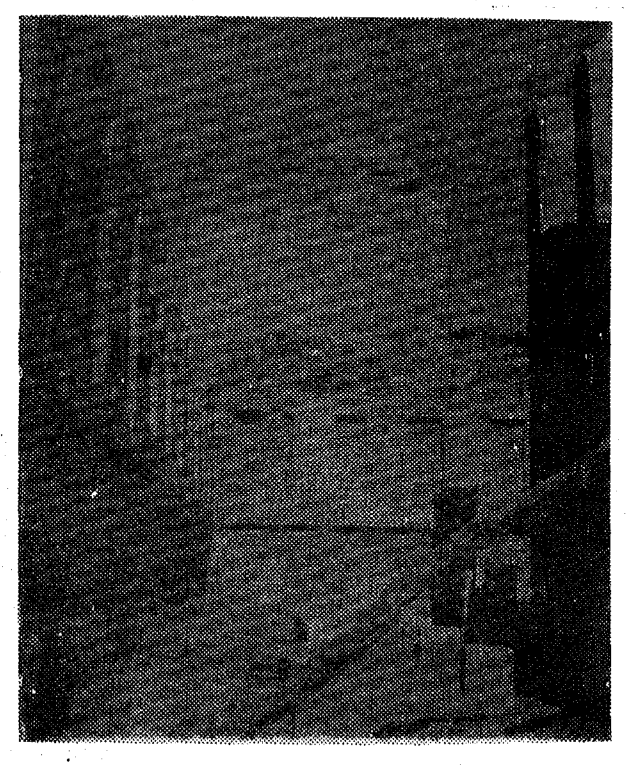
٥ ــ السور الخارجي لمعبد المقه في أوام (محرم بلقيس في مأرب)



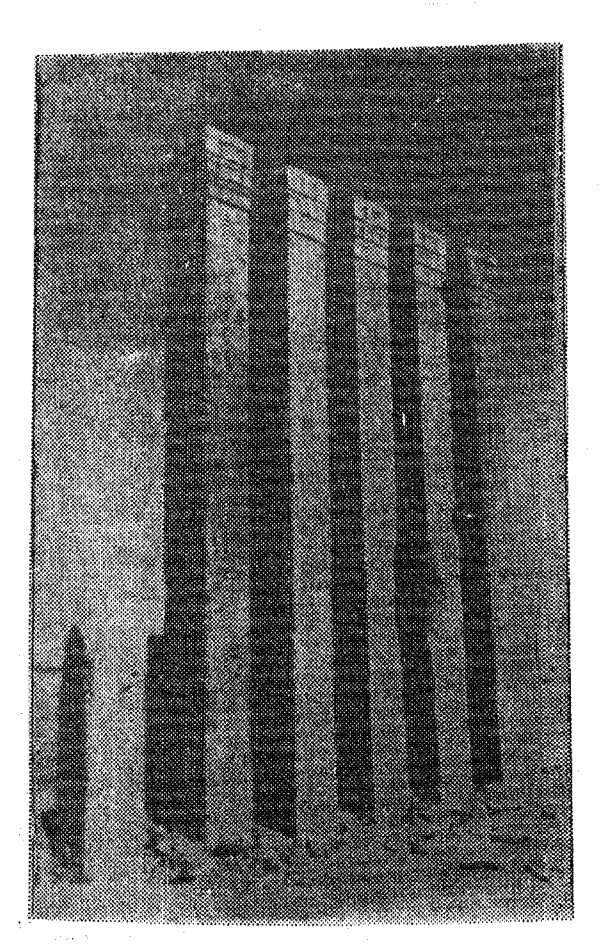
٦ ــ تخطيط بهــو مدخل المقه (محرم بلقيس)



٧ ــ جزء من معبد المقه (محرم بلقيس)



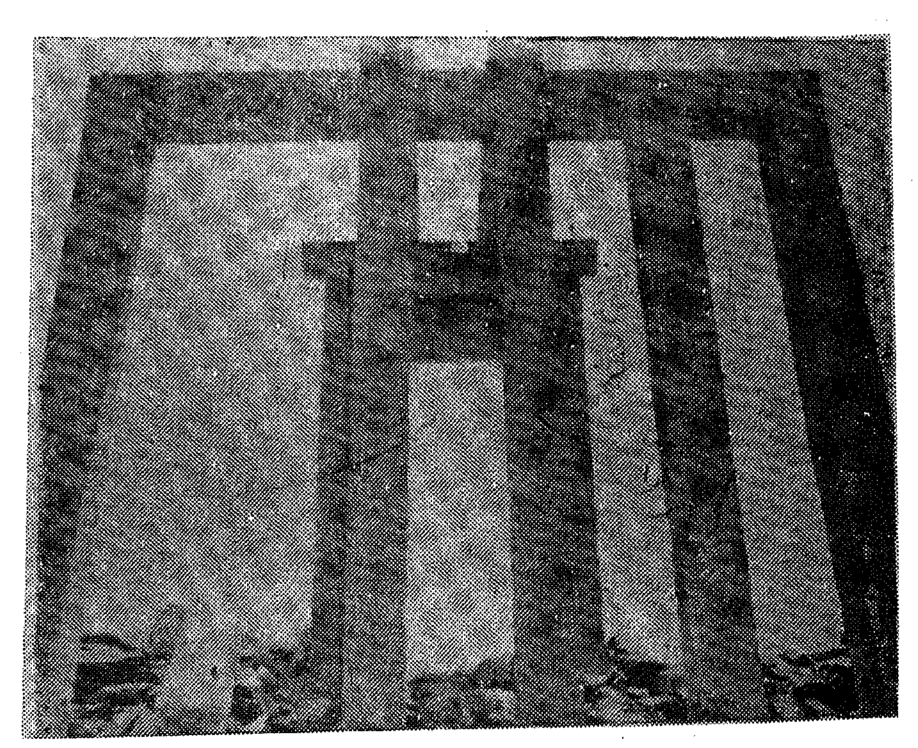
٨ ــ بهو الاعمدة والنوافذ الصماء فى معبد المقه



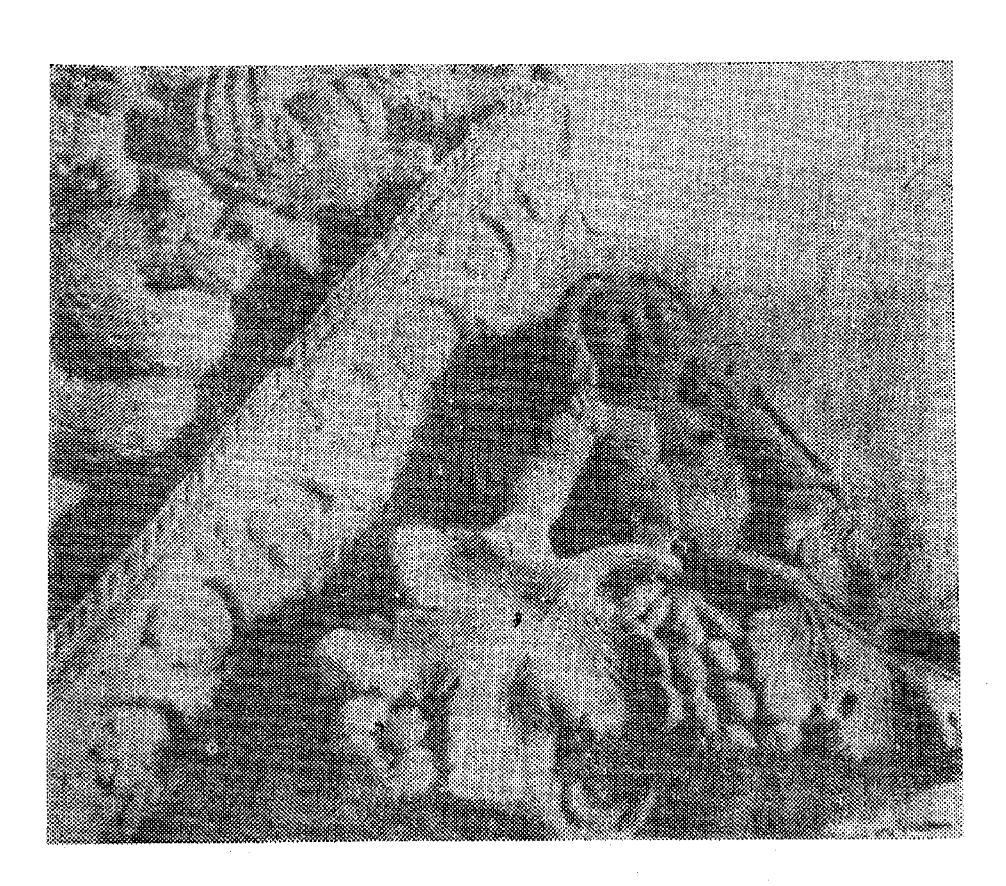
٩ — عمايد معبد برآن فى مآرب



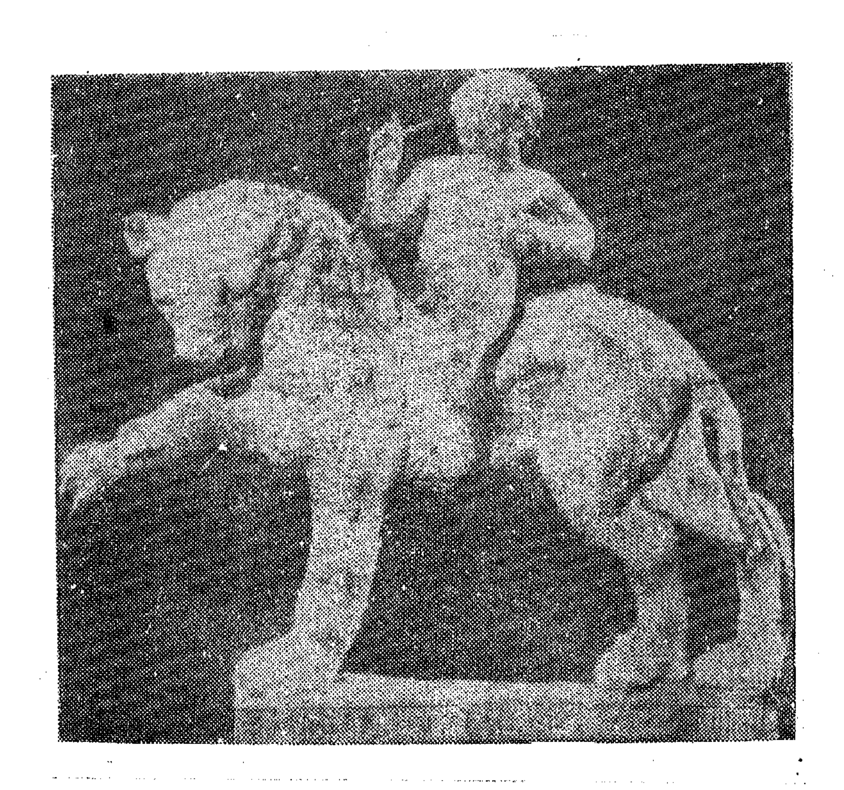
١٠ ــ تمثال من البرونز للشريف السبئى معدى كرب



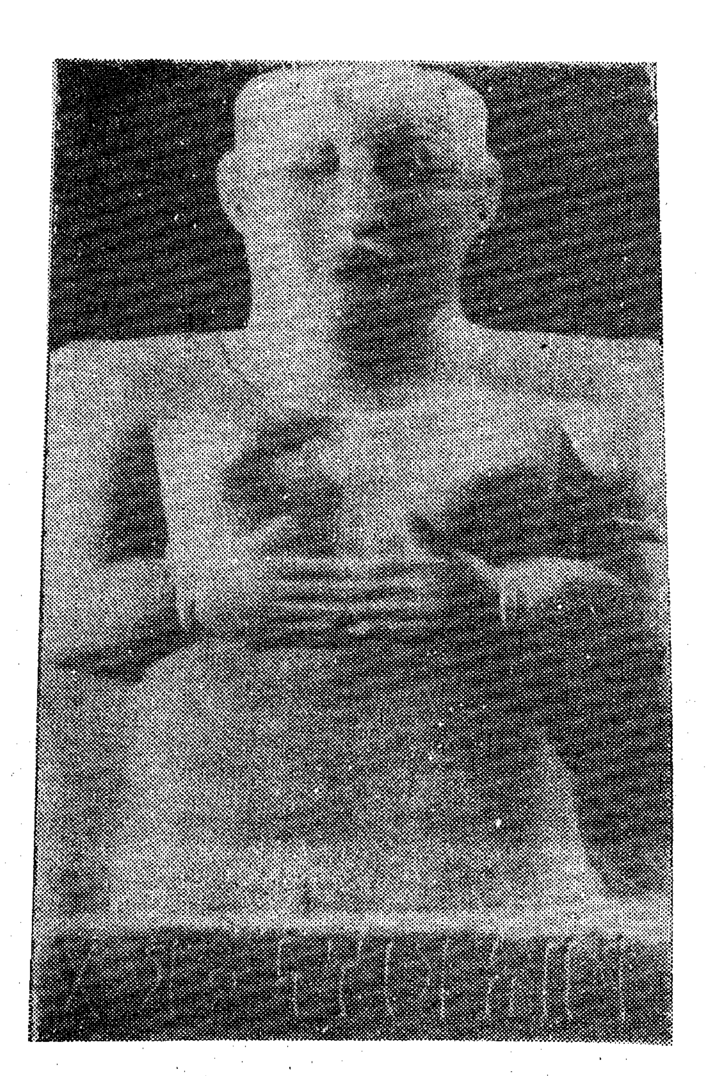
١١ ـ واجهة معبد المساجد



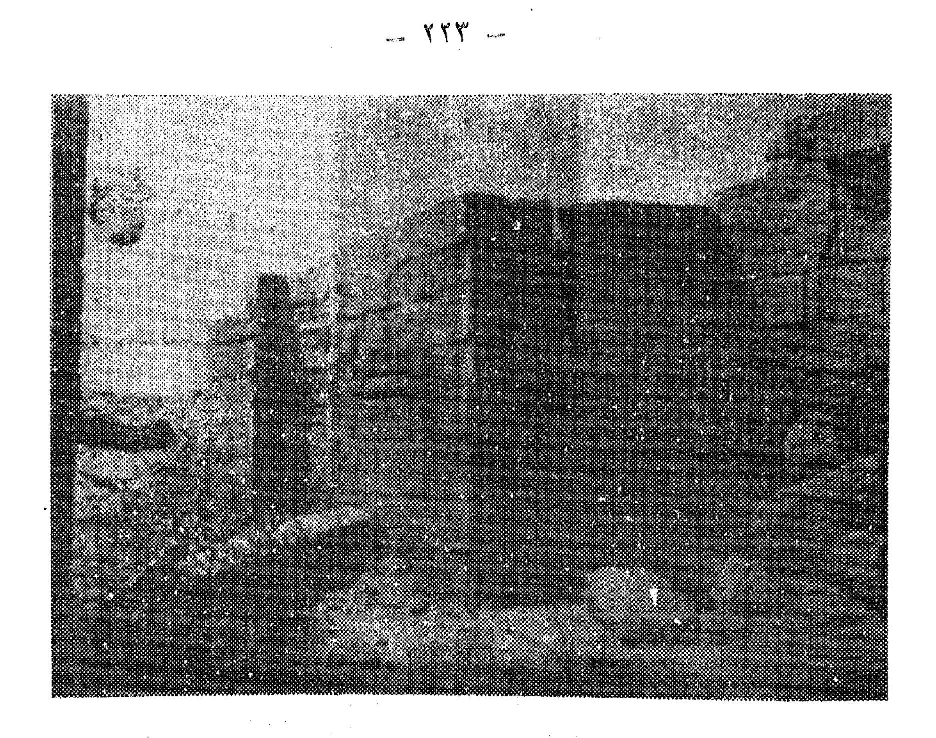
١٢ — نماذج من النقوش المجسمة (فى مأرب)



١٣ ـ احد تمثالين اسطوريين كانا يقومان قرب بوابة تمنع عاصمة قتبان



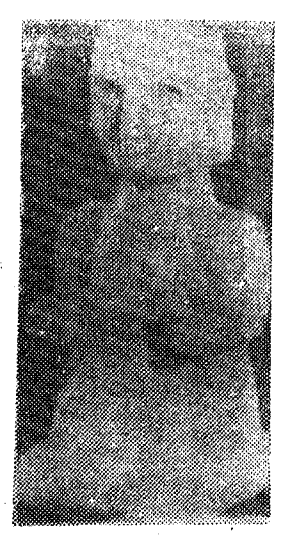
١٤ ـــ نموذج من فن النحت فى قتبان (جبأن من أسرة حنعمة)



١٥ — جانب من البوابة القديمة لمدينة تمنع عاصمة قتبان



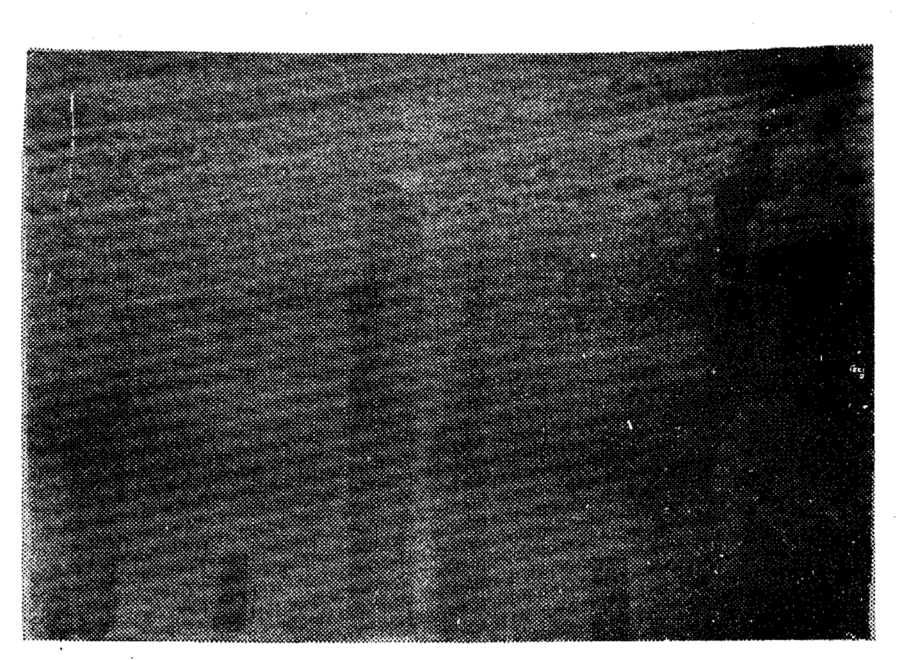
١٦ — بقايا ضخمة لمعبد يمني قديم



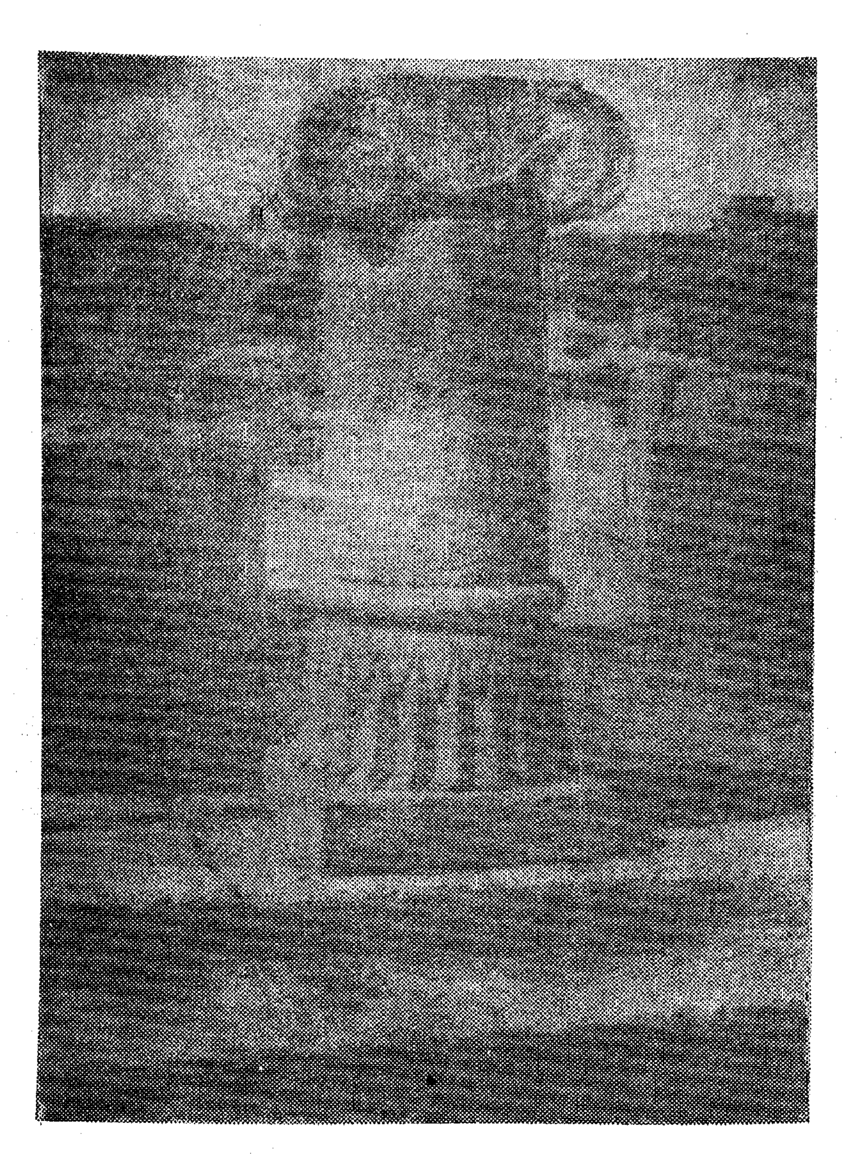
١٧ أ — نموذج من تماثيل الرجال فى الفن العربى القديم ·



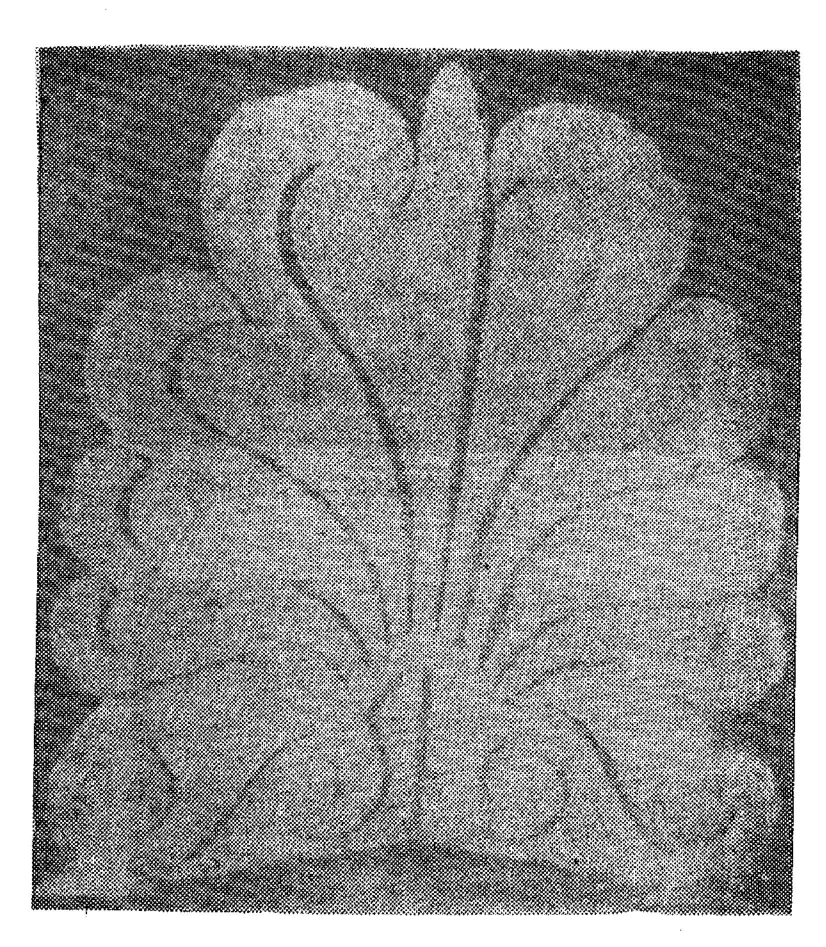
١٧ ب — مريام — رأس من المرمر فى قتبان ·



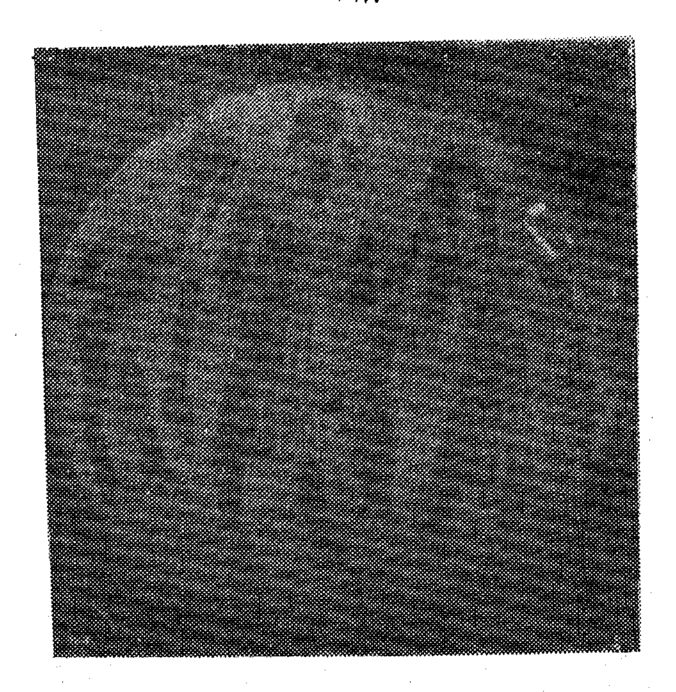
١٨ — من مقابر الأنباط فى مدائن صالح

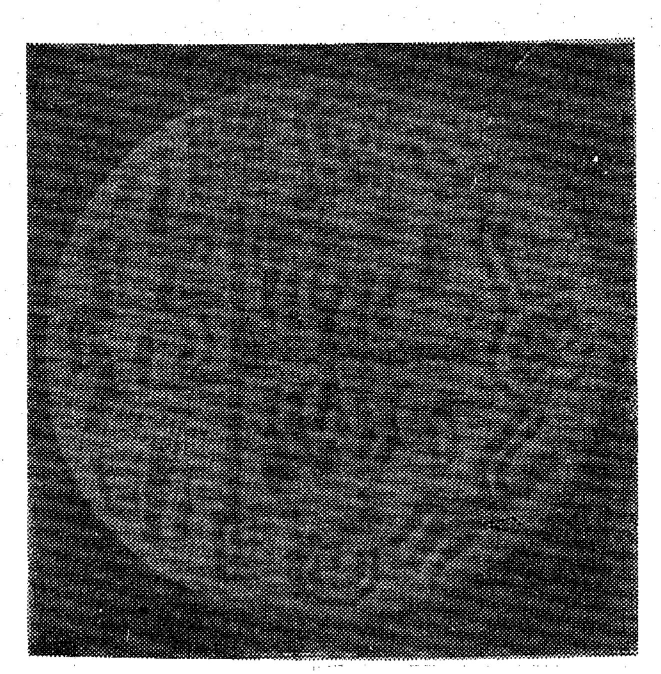


١٩ — أسطون حجرى فى معبد فيلكا بالكويت



٢٠ ـــ حلية نباتية فى الحجر تعلو معبد فيلكا





٢١ — ٢٢ — نموذجان من أختام الخليج المستديرة

من المؤلفات العامة المختارة عن التاريخ العربى القديم

أولندر (جونار): ملوك كندة من أسرة آكل المرار -١٩٢٧- مترجم - بغداد ١٣٥٣ هـ .

أحمد فخرى : اليمن - ماضيها وحاضرها - القاهرة ١٩٥٧ .

الهمدانى (أبو محمد الحسن) : الإكليل - الجزء الثامن - نشره نبيه فارس - بغداد ١٩٣١ .

صفة جزيرة العرب - تحقيق محمد بن على الأكوع - الرياض ١٩٧٤ .

بافقيه وبيستون وروبان والغول : مختارات من النقوش اليمنية القديمة - تونس ١٩٨٥ .

بيرن (جاكلين) : اكتشاف جزيرة العرب - مترجم - بيروت ١٩٦٣ .

جامعة الرياض (وعدد من المؤلفين) · مصادر تاريخ الجزيرة العربية · جـ ١ ، ٢ - الرياض ١٩٧٩ .

جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (عشرة أجزاء) - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧١ .

حورانى (جورج فاضلو) : العرب والملاحة فى المحيط الهندى - ترجمة يعقوب بكر - القاهرة ١٩٥٨ .

خليل يحى نامى : أصل الخط العربى وتطوره إلى ما قبل الإسلام - القاهرة ١٩٣٤ .

صالح العلى : محاضرات فى تاريخ العرب - بغداد ١٩٥٩ .

عبد العزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث فى شبه الجزيرة العربية - إصدار دراسات الخليج والجزيرة العربية ، ٤ ، جامعة الكويت ١٩٨١ .

: المرأة فى النصوص والآثار العربية القديمة - إصدار دراسات الخليج والجزيرة العربية ، ١٤ ، جامعة الكويت ١٩٨٥ .

شبه الجزيرة العربية فى المصادر المصرية القديمة ، مجلة عالم الفكر - المجلد ١٥ ، الكويت ١٩٨٤ ، ص ٢٩٣ - ٣٢٢ .

فيلبس (وندل) : كنوز مدينة بلقيس - مترجم - بيروت ١٩٦١ .

لانكستر هاردنج : آثار الأردن - ترجمة عمان ١٩٦٥ .

مطهر الإريانى : فى تاريخ اليمن - القاهرة ١٩٧٢ .

موسكاتى (سبتينو) : الحضارات السامية القديمة - ترجمة يعقوب بكر - القاهرة ١٩٦٨ .

نولدكه (نيودور) : أمراء غسان من آل جفنة - مترجم - بيروت ١٩٣٣ .

نيلسن ، وهومل ، ورودوكاناكيس ، وجروهمان : التاريخ العربى القديم - ترجمة فؤاد حسنين - القاهرة ١٩٥٨ .

يوسف رزق الله غنيمه : الحيرة - بغداد ١٩٣٦ .

Abdel-Aziz Saleh, "Some Monuments of North-Western Arabia in Ancient Egyptian Style", Bull. of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. 28, Cairo 1970, 1—31.

—, "The Gnbtyw of Thutmosis III's Annals and the South Arabian Gebbanitea of the Classical Writers", BIFAO, 1972, 245—262.

—, "An Open Question on Intermediaries in the Incense trade during Pharaonic Times", Orientalia, 42, 3, 1973, 370—382.

—, "Arabia and the Northern Arabs in Ancient Egyptian Records", Journal of the Faculty of Archaeology, Cairo Univ., 1978, 2, Part 3, 69—77.

Albright, W.F, The Archaeology of Palestine, 1962.

—, Dedan (Gesch. und Altes Testament). 1953.

Altheim, F., u. Stiehl, R., Die Araber in der Alten Welt, 1964-68.

Beeston, A.F.L., A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabian, London 1962.

Bowen, R.B., Jr., Albright, F.W., Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, I-II, 1958. f.

Branden, A.Van den, Histoire de Thamoud; Les Inscriptions Thamoudéens, 1950; Essai de Solution de Probleme Thamoudéens, BR, 1958.

Grohmann, A, Arabien, Munchen. 1963.

Hammond, Ph, G, The Nabataeans, 1973.

Philby, H.J.B., The Background of Islam, Alexandria, 1947.

Phillips, W., Qataban and Sheba, New York 1955.

Riddle, J.M., Political History of the Nabataeans ..., 1961.

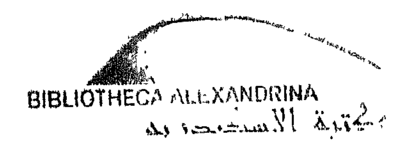
Shahid, I., Pre-Islamic Arabia, in Cambridge History of Islam, I, 1970.

Winnett, F.V., A study of the Lihyanite and Thamudic Inscrpitions, Toronto 1937.

Winnett, F.V., and Reed, W., Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1970.

Wissmann, H. von, Himyar, Ancient History, Muséon 1964, 429—497.

Wissmann, H. von, Zur Geschichte und Landeskunde von alt-Sudarabien, 1964.

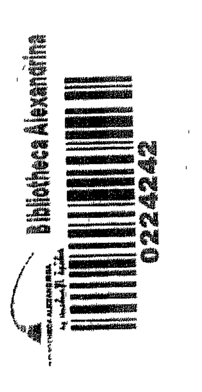




تم الطبع
بمطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
المدير العام
البرنس حمودة حسين

(مطبعة جامعة القاهرة ١٠٩٤ / ١٩٩١ / ٢٠٠٠)




Bibliotheca Alexandrina
0224242